البُوبرّاك

الطبعة الأولى
1444هـ
2023 م

اسم الكتاب: البُوبرّاك
التأليف: الرّوائيّة: خديجة التومي
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 272 صفحة
عدد الملازم: 17 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2023 / 25236
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 86603 - 87 - 3

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

البُوبرّاك

الرّوائيّة

خديجة التومي

دار البشير

إهداء

إلى أبنائي... وفي ذاكرة كلّ منهم جزء منّي لا أعتقده يذوي وإن غادرت.
إلى من أحبّني بقلب صاف.
إلى وطن أشرقت شمسه من مغربها ذات ثورة
ستظلّ شمسك مشرقة فلا كسوف يدوم.

تصدير:

يا أمّة غدت الذئاب تسوسـها ... غرقت سفينتها فأين رئيسـها؟

غرقت فليس هناك غير حطائم ... يبكي مؤبّنها ويضحك سوسها

تتمرّغ الشهوات في حُرُماتـها ... وتعيث في عظماتها وتدوسـها

تعسا لها من أمّة أزعيمهـا ... جلاّدها وأمينها جاسوسـها؟

بشارة الخوري

الأخطل الصّغير.

المقطع الأوّل

الذاكرة التائهة:

كانت السّماءُ مدلهمّة بالسّحب، وبرق خاطف يوقّع خربشاته ويمضي، تعقبه غمغمات رعد في الأقاصي قبل أن تشرع قطرات المطر في التناثر على بلّور النّافذة حيث اتّخذ سامر مجلسا داخل المقهى قبالة المرسى العتيق. أدنى إليه فنجان القهوة، ترشّفه على وقع زخّات المطر وهو يدندن لحن أغنية تناهت إلى مسمعه من راديو المقهى الذي دأب صاحبه على الاستمتاع من خلاله بفيروزيات الصّباح.

قال سامر مخاطبا نفسه: عادة استباق المواعيد تزعجني، فلا أحد على أيّامنا يوليها بالًا بينما أظلّ مسمّرًا في الانتظار، ولولا ذاك المرض اللّعين الذي ألمّ بي ما تغيّبت عن أخذ آخر الدروس ولما احتجت لنسخها... هيّا يا فاضل متى تتكرّم بالمجيء؟

ظلّ سامر يتلهّى بمتابعة المارّة وهم يحثّون الخطى تلفّهم ملابسهم الشتويّة العابسة وهم يحتمون بالمطريات من زخّات المطر، ومن لا مطريّة له عجّل المشي أو احتمى تحت مظلّات الدكاكين أو المقاهي ريثما تنقشع الغيوم التي ملأت سماء المدينة أواخر شتاء قارس لم تصفُ سماؤه ولا كفّ دمعها عن الخرير. كم هو مؤذ شتاء الشمال، وكم هو رائع وقعه على الطبيعة الوليدة المتجدّدة التي تظلّ ترشف المياه العذبة، وتنقّي سموم يد الإنسان في بقيّة الفصول...

كلّ هذه الأفكار كانت تغزو ذهن سامر لتتقاطع مع حالة الضّيق التي تضخّمت في نفسه حتى هبّ للوقوف ومغادرة المقهى قبل أن تُجلسه يد

وُضعت على كتفه ونطق صاحبها: اجلس يا صديقي، ولا تلمني على التأخير فقد تعطّبت الحافلة التي أقلّتني من قرب المركّب الجامعي، ولزم وقت لإصلاح العطب، وأنت تعلم ندرة سيّارات الأجرة صباحًا وخاصّةً عندما تمطر.

انفرجت أسارير سامر وهو يقول: لا بأس، كيف حالك وهل تواكب الدّروس بانتظام؟ أمّا أنا فمازلت أخضع للفحوصات الدوريّة وقد لا تسمح لي الطبيبة بإجراء امتحانات آخر السّنة.

بدا فاضل منشغلًا بوضع صديقه الصحّي، غير أنّ سامرًا انزاح إلى مواضيع أخرى متجاوزًا؛ فقال وهو يرسم ابتسامة عريضة لم تنجح في إخفاء سحنة وجهه ولا بواطن النّفس المتألّمة: دعك من المرض فستكون لي الغلبة، فقط اسرد لي مغامراتكم وصنيعكم في مدارج الجامعة، هيّا يا فاضل فأنت زعيم المجموعة.

تمطّط فاضل وهو يصطنع الجديّة: وهل في هذا الجوّ البارد لنا إلاّ حضور الدروس، والتوجّه إلى مطعم الجامعة كي نصيب ما لذّ وطاب، وختم مقهقها..

كان سامر يعلم أسلوب فاضل السّاخر فعلّق قائلا: أعلم أنّكم لا تصيبون من الأكل غير القليل؛ لذلك أعدّت لكم الوالدة بعض المأكولات لمّا علمت بتنقّلي إليكم، خذها وأرني ما عليّ نسخه فزمن العودة إلى تونس بعد قليل، لي موعد طبّي، وسنتواصل كالمعتاد.

ضحك فاضل وهو يقول:ألا تريد سماع أخبار الحبيبة؟

أشاح سامر بوجهه وهو يغمغم: لا ليس الآن، حصلت أشياء أخبرك عنها لاحقًا، دعني أغادر.

تصافح الصّديقان، وتوجّه سامر إلى محطّة القطار، دلف إلى الدّاخل واقتطع تذكرة وظلّ ينتظر... وقد تأخّر القطار كعادته في كلّ المواعيد، كان باستطاعته ركوب الحافلة أو سيّارة الأجرة؛ ولكنّ القطار وحده يجعله قريبا من مستشفى الأمراض النفسيّة بـ(منّوبة) حيث يتابع حالته فلا يتجشّم أجرة ولا تعب وسائل نقل أخرى، جاوره في مقاعد الانتظار مسنّ يبدو عليه الإرهاق ولكنّه يقوى على نفسه وأمامه قفّة من سعف النّخيل مليئة بالأغراض المختلفة، وكان المسنّ وهو يدخل باب المحطّة يجرّها من ثقل.

تفرّس المسنّ في وجه الشاب الجالس حذوه وبادره بإلقاء التحيّة: طاب يومك يا ابني، ثمّ سأله: في أيّ المحطّات تنزل؟

انتبه سامر للمسنّ وكان شاردًا: أهلا بك يا بابا، سأنزل بمحطّة (منّوبة).

بدت على المسنّ علامات استبشار وهو يردّ: هي محطّتي أيضا، فهل لك بمساعدتي على حمل هذه السلّة ونحن نصعد القطار وننزل منه، فقد شِخْتُ كما ترى ولم يعد لي الجهد الكافي، الحمد لله على كلّ حال.

سارع سامر ليقول: بالتأكيد يا...فإذا المسنّ يبادره: عمّ الطاهر، نادني كذلك يا ابني.. وانطلق بينهما تعارف وأحاديث متشعّبة ألهتهما عن ملل الانتظار، وقد شعر سامر بنوع من السّكينة نحو الرّجل الذي يبدو أنّه قد حلب الدهر أشطره فلا ينطق سوى عن خبرة.. كان كلامه مترعًا حكمةً ونصائح بطريقة محبّذة آسرة، قال: إنّه اشتغل عقودًا في تعليم الصبيان، وتنقّل في جهات البلاد شرقها وغربها، وقد علم خبايا البشر والكثير من العادات والمآكل، ثمّ تنهّد وهو يكمل: بعد عشرات السنوات من الزّواج انتقلت رفيقتي إلى مثواها الأخير، وتفرّق أولادي يضربون في الأرض

خارج البلاد، ولم يبق لي داخل الوطن سوى بنتي الصغرى التي أقصد بيتها كلّما أطبقت عليّ الوحشة واشتدّت بي العزلة، كم هم مقفر بيتي لمّا خوى من ساكنيه، وبقيت كبوم منفرد يتمطّط زمني كأنّه الأبد.

حرّك سامر رأسه مؤكّدًا وهو يقول للشيخ مواسيًا وقد لاحظ أساه: تلك سنّة الحياة يا عمّ الطاهر، وأبناؤك سافروا مضطرّين كجلّ الشباب؛ بحثًا عن الرزق في بلاد الله الواسعة.

غير أنّ عمّ الطاهر حرّك رأسه دلالة على عدم الموافقة، وانتابه صمت لم يقطعه سوى صفير القطار معلنا قدومه؛ فهبّ المسافرون من أماكنهم متّجهين صوب الرّصيف، وحمل سامر قفّة صديقه الجديد الذي بدا يمشي خلفه بتؤدة وهو يلعن آلام المفاصل التي استبدّت بركبتيه، سلكا الممرّ المؤدّي للرّصيف فوجدا نفسيهما أمام القطار الجاثم على السكّة كعقاب أسطوريّ، قطار من تلك القطارات القديمة التي مازالت تغالب العصر الحديث وتبحث لها عن وجود ضمن أساطيل من القطارات الطائرة سرعة وجمال تصميم في العالم المزدهر.

صعد سامر وهو يساعد العمّ الطاهر على تخطّي عتبات القطار وقد تباعدت؛ وكأنّما تمتحن صحّة الركّاب وقدراتهم على التسلّق والقفز.

وما إن استقرّ العم الطاهر في الجلوس حتى بادره سامر بالسؤال: لماذا تجشّم نفسك عناء التنقّل كلّ مرّة؟ ألا يمكن لابنتك القيام بزيارتك فتكفيك هذا التعب؟

فردّ العمّ الطاهر: يا ابني مشاغل الدنيا من عمل ورعاية الأبناء مسؤوليّة كبرى، نسق الحياة سريع وصعب والمتطلّبات ضخمة، ومادمت قادرًا على الحركة فسأفعل، فالشعور بالوحدة مرّ يا سامر، وهذا السّفر

يسلّيني ويخرجني من قوقعة مطبقة جعلت ليلي مساويا لنهاري، لا تدري يا ابني كم هو مؤذٍ أن يصبح البيت خاويا لا أصوات ولا أنفاس، فحتى الشقاوة وتلك الخصومات العابرة والطلبات التي تثقل كاهلي أحيانا بتّ أحنّ إليها، لم أتهيّأ لهذا الفراغ القاتل.

تماهى سامر في الحديث قائلا: صحيح هذه معضلة، ولكن هل جرّبت المشاركة في أنشطة خاصّة بمن هم في سنّك مثلا؟

تبسّم الرّجل ساخرًا: وهل من وجود لهذه الأنشطة؟ هل فكّر أحدهم في مثل ما ذكرت، أن تكون في سنّي يا سامر عليك أن ترتاد المقهى لتسمع ما يؤذيك وتستنشق ما يسدّ أنفاسك، أو الجامع لو كنت متديّنا في فترات الصلوات، أترى لنا غير هذا مقصدًا؟

تحرّك القطار وهو يصدر صرير الحديد الصّدئ المؤذي، مناديًا نداءه الأخير معلنًا بدء مسيرته الطويلة البطيئة، وشرعت البنايات تختفي الواحدة تلو الأخرى، اغتنم سامر خفوت حركة العم الطاهر بجانبه ونزوعه إلى التناوم ليراقب المشاهد في الخارج.

بدت الحقول الخضراء تنبسط على جانبي السكّة مكلّلة بأشجار الزّيتون والحمضيات، مشاهد مبهجة شغلت سامرًا عن بطء القطار القاتل، هناك عن بعد بدا لمعان بحيرة (إشكل) السّاحرة وهي تطوّق جبلًا يتأهّب للفرار ولا يجرؤ، مُويجات البحيرة ترفرف كأجنحة حمام حبيس تنعكس عليها خيوط الشمس فتصبح مرايا شاسعة، وما إن يوغل القطار في طريقه غير عابئ بما حوله يزمجر ويهتزّ على السكك المعوجّة والملتوية؛ حتى تحدث داخل العربات قعقعات وأصوات صمّاء يتمايل إثرها الركّاب ويمسك بعضهم بالكراسي تفاديا للسّقوط أو ملامسة جيرانهم في المقاعد، التفت سامر

لجليسه المسنّ فإذا هو في نوم عميق، قد لوى عنقه في الاتجاه المعاكس وتدلّت شاشيته تغطّي شطر وجهه، قال يخاطب نفسه: مابال الواحد منّا يظلّ يشتكي تعب العمل والكدح، فإذا أحيل على شرف المهنة مثل العم الطّاهر ضاقت به الدّنيا، وصار يبحث كيف يزجي الوقت؟ فهل صحيح أنّ سعادة الفرد تستمدّ من الآخرين؟ وهل يمكن للفرد أن ينحت سعادته بفردانيته؟ كلّ هذه الأسئلة جالت بذهن سامر وهو يتأمّل وجه العم الطاهر وقد اكتسحته تجاعيد الزمن دون شفقة، وسرعان ما تبادر إلى ذهنه كلام صديقه فاضل وهو يغريه بالحديث عن حبيبته قائلا «ألا تريد سماع أخبارها؟

خمّن سامر في نفسه «فاضل لا يدري بالتأكيد كيف تغيّرت معاملات حبيبته السّابقة (نهى) تجاهه، لم تعد تجيب عن الهاتف، أسرّت لإحدى الزميلات أنّها لا ترى نفسها حبيبةً من زاغت نفسه وغدا يراجع الأطبّاء، قالت لهنّ «المرأة تعشق القوّة قبل الجمال، والمرض وهن... حزّ في نفسه كلامها المؤذي وقد تصوّرها حبيبة العمر حلوه ومرّه، وأحجم عن الدّخول إلى المركّب الجامعي، وصار يلتقي أصحابه في المدينة كلّما تنقّل لنسخ الدّروس، لم يخبر أحدًا بانسداد أفق ما بينهما، حتى فاضل يجهل التفاصيل.

هرب سامر من تلك القصّة التي ضاعفت ألمه، وألقى ببصره إلى النافذة المحاذية له، تابع ولوج القطار إلى أطراف إحدى المدن التي تشقّها سكك الحديد؛ فسمع الصّافرات الحادّة تصمّ الآذان محذّرةً المارّة وأصحاب السيّارات حتى يتركوا المجال لهذا الغول الحديدي قبل أن يتوقّف بإحدى المحطّات الجانبيّة، هرول بعضهم للنّزول وركب آخرون، وتدحرجت بعض السلال والأغراض جرّاء هزّات القطار التي لم تنقطع حتى خيّل لسامر أنّ العربات ستتفكّك من بعضها البعض، ولكنّه ظلّ يقنع نفسه

بأنّ سفرات القطار أسلم، فبعد ساعة أو أكثر بقليل سيجد نفسه بمنّوبة قريبا من المستشفى المقصود.

صحا العم الطّاهر جرّاء الجلبة والصفير غير المنقطع الذي واكب دخول القطار للمدينة حتى خروجه منها، انتفض مذعورا «ما هذا؟ أين نحن يا ابني هل تجاوزت محطتي؟» وظلّ يبحلق فيما تكشف عنه النّوافذ لولا أن طمأنه سامر وهو يقول: لم نصل بعد أو تظنّني أتركك؟ ألم نتفق على النّزول في المحطّة ذاتها؟

تنفّس العم الطّاهر تعبيرًا عن شعوره بالارتياح ثمّ قال: لا تؤاخذني يا ابني، الذّاكرة لم تعد على ما يرام، صرت أنسى أبسط الأمور الحياتيّة، ولكن خبّرني عن سبب زياراتك المتكرّرة لبنزرت؟ هل لك أقارب؟ تنهّد سامر وهو يجيب: لا ليس لي أحد، وإنّما أنا طالب أكمل المرحلة الأخيرة من دراسة الهندسة، وما تنقّلي هذه المدّة إلاّ لأخذ الدروس ونسخها بعد أن ألمت بي بعض المتاعب الصحيّة التي منعتني عن المواظبة وعن أيّ جهد يذكر.

أسف العم الطّاهر لمَّا سمع، وبان من قسمات وجهه أنّه يستزيد التفاصيل ولم يجرؤ على السّؤال احترامًا لخصوصيّة سامر ولكنّه جعل يطلب للشاب الشفاء.

صمت سامر برهة ونظر في عيني الشيخ ثمّ قال: وأنت عميّ الكبير والمجرّب والمطّلع هل تعتقد في إمكانيّة الخروج ممّا أعاني؟

بعد تفوّقي وقدراتي الذهنيّة التي مكّنتني من التميّز أصبحت عاجزا عن تذكّر المعلومة حتى وإن مرّ عليها بضع دقائق، الفراغ استوطن ذاكرتي، وتنتابني حالات من الكآبة والرغبة في الانفراد بنفسي، يشتدّ بي الغضب لأمور بسيطة، أقبل على الأكل بلهفة الجائع دون مبرّر حقيقي لذلك، في

بيتنا أنغلق على نفسي وأكاد لا أتواصل مع والدتي... تحوّلت حياتي إلى جحيم أعيه ولا أستطيع النّفاذ منه، يؤلمني أن أرى مستقبلي يتسرّب من بين أصابعي كحفنة رمل.... ثمّ صمت وأشاح بوجهه وهو يكمل: سامحني إن أقحمتك فيما أعاني..

انتصب العم الطّاهر جالسًا على المقعد بعد أن كان متكئا وهو منتبه لكلّ ما قال سامر، يقطّب الجبين الأجعد حينا ويسرّحه حينا آخر، تلعثم وهو يحاول مواساة الشاب وزادته نفضات القطار لجسمه الواهن اضطرابًا، مدّ يده لسامر يضمّه وهو يقول: لا بأس عليك يا ابني أزمة وسرعان ما تنفرج حالك، لا تيأس، قد يكون لما ذكرت أسباب ومتى عُلمت وجد لها الحلّ فالعلم تقدّم، لا تبتئس فأنت شاب قويّ، خلوق، ليس لك لوثات الشباب من جيلك هذا الجيل الذي يعيش هزّات كبيرة في الوعي، والهويّة، وضبابيّة المستقبل.

كان سامر يسمع لكلام جليسه وسحابة من الحزن تغطّي وجهه، طأطأ رأسه وغمغم «إن شاء الله، إن شاء الله... ما ذكرتَه صحيح حول تقدّم الطبّ، ولكن موقفك من الشباب يمكن أن يُناقش، ولا أظنّنا نستطيع الآن وهنا ونحن نقترب من المحطة والافتراق.

غير أنّ العم الطّاهر اندفع يتشبّث بسامر وهو يلحّ على ضرورة التواصل بينهما، قال: خذ رقمي ومدّني بخاصّتك ولن أسامحك لو قدمت إلى المدينة مستقبلا دون أن تزورني.

أبدى سامر الموافقة وانكبّ يرفع سلّة العم الطّاهر؛ وقد أخذت صافرات القطار تتتابع معلنةً قرب الوصول إلى محطّة منّوبة، عاين سامر توعّك ساقي العم الطّاهر وصعوبة حركته وهو يهمّ بالنّزول، وظلّ يساير مشيه قبل أن

يمكّنه من توقيف سيّارة الأجرة التي ستقلّه إلى بيت ابنته، وظلّ يتابع رحيله وكأنّما يودّع قريبا يعرفه منذ سنوات، ثمّ زفر وهو يقول: عليّ التوجّه إلى المستشفى وانتظار دوري والغرق في حصّة المعالجة... يا الله...

مال يمنةً في سيره، وماهي إلاّ خطوات حتى وجد نفسه قبالة يافطة «مستشفى الرّازي» وهو يعلم أنّه مستشفى الأمراض العقليّة التسمية الحقيقيّة، ولكن إلحاق اسم الطبيب الفيلسوف والمكتشف أبي بكر الرّازي بقدر ما فيه من إعلاء لهذا العلم واعتراف بما أنجز يخفي ذلك وصما يراد الانزياح عنه؛ لأنّ المرض العقلي والنفسي يظلّ في المخيال الشعبي مصدر تندّر وغرابة وتحقير... هو يعلم ذلك جيّدا وليس لأحد أن يقنعه بالعكس، دلف إلى مدخل المستشفى وتوجّه إلى قسم العيادات الخارجيّة قبل أن يثبّت موعده وينهي الإجراءات الرّوتينيّة.

عندما استوى سامر على كرسيّ الاعتراف قبالة الطبيبة المعالجة له، تبسّمت بوجهه وهي تقول: كيف الحال سامر؟ هل من جديد تريد أن تطلعني عليه؟

كان لسان سامر في القطار منطلقًا، وعندما يتعلّق الأمر بحصص الاستماع التي خصّصت له يضيع منه الكلام فلا ينبس إلاّ قليلا، ولكنّه في ذلك اليوم أحسّ برغبة جامحة لإفراغ ما عنده فقال وهو يصوّب النظر تجاه الطبيبة وثقة غير معتادة تسعفه: أشعر أنّي أحاول تخطّي الماضي بكلّ سواده، قال لها أيضا: ما كان جدرانا سميكة تزعجني ولا أريد الكشف عنها أصبحت أروم النبش فيها، أتأذّى صحيح ولكن ذاك يسهم في إعادة بناء ذات ظننتها خرابًا لا نفع منه، يعني دكتورة الجلسات مع الأدوية تفعل فعلها في نفسي لا أنكر؛ ولكن سحابة من الخوف وعدم الرّضا مازالت تلقي بظلالها على روحي فأكتئب رغم ساعات المشي التي نصحتني بها وألقي باللّائمة على نفسي والظروف التي أحاطت بي.

كانت الطبيبة تدوّن كلّ عبارة أو حركات لا إراديّة تنجم عن سامر، وكان يكثر من تحريك رجليه حتى الاهتزاز أحيانا، أو يقوم بفرك أصابعه بطريقة متتالية، وما إن يرى نظرات الطبيبة تتابعه حتى يكفّ ثمّ يعود دون أن يشعر. وعندما لاذ سامر بالصمت حرّكت الطبيبة كرّسيّها لتقترب أكثر إلى المكتب وهي تقول: رائع، رائع ما كنت تقول يا سامر، نحن في الطريق السّليم، وظلّت تسأل عن أشياء في الظاهر لا علاقة لها بحالة الشاب ولكنّها كانت تبحث عن روابط، عن مؤثرات كأن تقول له: هل استاءت الوالدة من كونك منقطعًا عن التعليم؟ كيف هي العلاقة بينكما عادةً؟ هل بينك والجيران من تواصل؟ كيف أبقيت على علاقاتك مع أصدقائك في الجامعة؟ .. وسامر يجيب بتلقائيّة غير اعتياديّة ما أثلج صدر الطبيبة وأشعرها ببوادر نجاح المهمّة، وقبل نهاية الجلسة أكّدت الإبقاء على الأدوية، والفيتامينات، وممارسة رياضة المشي، ومقاطعة كلّ ما يجهد الفكر بما في ذلك الدّروس..

أراد سامر أن يعترض على البروتوكول في جزئية مقاطعة الدّروس ووقت الامتحانات على الأبواب؛ ولكنّ الطبيبة بدت صارمة وهي تؤكّد: لو لزم الأمر طالع بعض الصفحات من إحدى الرّوايات...

فانفلت سامر ضاحكا: رواية؟ هل نسيت أنّي طالب هندسة وقد ابتعدت كلّيًا عن عالم الآداب والقصص، هذا الرّأس يكاد ينفجر قواعد وفرضيات ليس إلاّ.

وجدت الطبيبة حينها المجال لتضيف مبتسمةً: لو أنّك لم تعبّئه بما ذكرت، لما تحالف عليك مع الماضي بما حوى ليرديك في منتصف الطريق، اقلع يا سامر عن النظرة الضيّقة والمحددة سلفًا، فكثير من العلماء كتبوا روايات وسيرا ممتعة، الكتابة كما القراءة علاج للكثير من الأتعاب، وليس مسموح لك غير قراءة بعض الأسطر، وأنهت وهي تريه الساعة: أراك بعد شهر..

خرج سامر من القاعة وهو يجرّ ساقيه جرًّا، وفي ذهنه ارتسمت آخر عبارة «ليس مسموح لك غير قراءة بعض الأسطر...

قهقه بأعلى صوته وهو بالممرّ ولم ينتظر استغراب أحد؛ فقد تعوّد العاملون هناك على القهقهة، والعويل، واللّطم، ونفش الشعر، والتّهاوي، ولا عجب نظرًا لطبيعة المراجعين والنّازلين ممّن مثّلوا رؤى وسلوكيات خارقة لما درج عليه النّاس، نظر باتجاه البوّابة ولكنّه سرعان ما استدار نحو ممرّ ضيّق، واصل السير لينتهي عند باب حديديّ مغلق، وما إن همّ محاولًا فتحه حتى صرخ به الحارس وكان متكوّرا في إحدى الزوايا: ممنوع الدّخول.

وحين اقترب من سامر وعلم أنّه أحد المرضى قال له: في هذا القسم نحتفظ بالمرضى الأشدّ خطورة، نفصلهم تفاديا للأذيّة.

عاد سامر أدراجه نحو البوّابة وهو يهذي: «العقل درجات وفقدانه درجات، هل صحيح أنّ هؤلاء هم المرضى أم أولئك الذين خلف هذه البوّابة خارج المستشفى؟ بتّ لا أرغب في مغادرة هذا المكان، نزلاؤه صادقون، وما تعرّضوا له خارج أسوار هذا المبنى زرع داخلهم مشاعر وسلوكيات مختلفة بلا شك، رأيت أغلبهم يشعر بالسعادة، وقليلهم يتألّم، قد يكون للمهدّئات علاقة ولكنّهم راضون بطلاقهم لعالم البشر...

ماذا لو التحقت بهم؟ وهل يجوز ذلك وأنا لا أعاني إلاّ من فقدان القدرة على التركيز وتذكّر ما درست؟...آه من وجع هذه الذّاكرة تسمّرت فقط عند غرفتي ببيتنا حيث يتناهى إليّ صوت باعة الحيّ من الخارج، وتشنّج أمّي وصخبها الذي لا ينتهي من الدّاخل.

لا تفتأ تلعن الزّمن الغادر، وأنّها انتظرت من الحياة موقعًا أفضل ومعيشةً أكثر كرمًا، سمعتها ألف مرّة تكرّر مثلا شعبيّا: «الدنيا سعود

موش تعرية زنود» وأنّ جمالها في الصبا لم يشفع لها ولم يبوّئها الزّيجة المناسبة، وأنّ أباها وافق على أوّل المتقدّمين..

تصرخ وهي تجلو المواعين مخاطبةً نفسها: «لقد ارتاح المتعوس في قبره، وتركني لهموم الحياة، ثمّ لا تلبث أن تناديني مبحوحة».

هلاّ خرجت للسّوق يا سامر علّك تصيب بعض المال، خذ ما تبقّى ممّا صنعت من «الحلالم والنّواصر» واعرضها للبيع.

كنت أنسحب من الدّار ملبّيا مطلبها مكرها، وحينما أعود ببعض المللايم تتغيّر سحنتها، وتنطلق عشيّةً نحو باعة الثياب المستعملة، وتنكبّ لساعات في عمليّة فرز ومجادلات مع بعض النسوة ممّن تعرف ومن لا تعرف، عادة دأبت عليها منذ كنت صغيرًا، فكثيرًا ما أصرّت كي أرافقها ولم تكفّ إلاّ حينما صرت أحرن رغم كلّ الشتائم والتهديدات... هكذا هي أمّي لا يأتي اللّيل إلاّ وقد قضت على ما نملك من مال على قلّته؛ لتباشر في اليوم التالي حلقة التذمّر وشتم الزّمن والزّوج الذي لاذ بالقبر منذ سنوات ولم يترك لها غير هذا البيت الخرب المتداعي وبعض الدّيون.

تمرّغت طفولتي وصباي في أجواء أكثر عتمة وخصاصة، ولم أجد غير التعلّم ملاذًا، أبحث عن مصعد رافع لما تردّيت فيه ووالدتي... آه يا ذاكرتي، لماذا توقّفت هناك منذ أشهر وأنا أروم زحزحتها؟ أدعوها للمجلّدات والدروس المكدّسة حولي ولكنّها تأبى.

ضاقت الدنيا من حولي واسودّت كلّ الزّوايا إلى أن نصحني صديق مقرّب بالذّهاب إلى طبيب نفسي وبدأت رحلة الجلسات...

تخطّى سامر عتبة البوّابة ورأسه يشتغل كمرجل، ساير خطاه نحو حيّهم وبه كما الدّوار يهزّه ثمّ يرجّه فلا تستقيم أمام ناظريه الطريق.

المقطع الثاني:
أرملة في مهبّ الحياة.

تظلّ زكيّة أمّ سامر في بيتها صباحًا تقضي شؤونه وتخاصم أشياءه البسيطة فلا يخفت صوتها مطلقًا، تصرّح بما يجول بخاطرها دون تردّد حتى ليظنّ المارّة ممن لا يعرفونها بأنّ بها مسًّا؟

تروي لنفسها ولحيطان بيتها حكاياتها التي لا تنتهي أبدا، تعود لأيّام الطفولة ونفورها من الدّراسة ما جعل أمّها تحرص على تعليمها حرفة كالخياطة ولكنّها لم تهتمّ، فضّلت اللّهو ومناكفة أولاد الحارة وبناتها، وما إن بلغت سنّ المراهقة واشتدّ عودها حتى تقدّم لها أرمل من أحد الأحياء القريبة فوافق الأب، وسرعان ما زفّت عروسًا في هذا البيت. كان زوجها يعمل حمّالًا في سوق الخضر ما جعل زكيّة تعيش حياة أقرب للفقر، فكثر تذمّرها وحاولت مرارًا الهروب لولا حملها. وما إن حلّ بكرها ووحيدها سامر إلى العالم حتى أصيب الزوج بحادث مريع فشارف على العجز ثمّ الموت بعد سنة من ميلاد سامر.

أظلمت الدنيا في عيني زكيّة واشتدّت عليها مصائب الدهر بفقد والديها تباعا وتشتت إخوتها.

كانت الحياة أقسى من طاقة تحمّلها، وأكثر ألمًا، كشّر لها الفقر عن أنيابه، وجلدتها الخصاصة جلدًا، امرأة شابة لا تتقن علمًا أو حرفة تجد نفسها مطالبة بإعالة وليدها، لطمتها أبواب التسوّل وأراق ماء وجهها ذلّ السؤال حتى التقت الخالة شلبيّة تلك العجوز التي تجلس كلّ صباح في

مدخل السّوق وقد صفّت أمامها منتوجها من خبزالطابونة وأواني مليئة بـ«الحلالم والنّواصر» وأخرى بالحمص المنقوع في الماء وغيره.

في ذلك اليوم كانت زكيّة تترصّد روّاد السوق طلبًا للعون؛ فبادرتها الخالة شلبيّة قائلة: تقدمي نحوي واستمعي لما أقول: أليس أفضل لك وأنت في عزّ عطائك أن تعوّلي على ساعديك في جلب اللّقمة لك ولهذا الطفل الذي تربّينه على التذلّل، ماذا لو ساهمت في إعداد ما أبيع ونتقاسم الأرباح ونعيش بكرامة؟

كانت زكيّة في حاجة إلى سند وجدته لدى الخالة شلبيّة التي رعتها وتقاسمت معها حلو الأيام ومرّها، فاستطاعت توجيهها وإعانتها على تربية الطفل ثمّ إدخاله المدرسة؛ فأبهر الجميع بتفوّقه المتواصل رغم كلّ الظروف الحافّة به. إلاّ أنّ الأيّام عادت لتجلد زكيّة مجدّدًا بفقد الخالة شلبيّة، فقدت صوابها وحزنت عليها ضعف حزنها على أهلها؛ فقد وجدت فيها رأفة وحماية لم تنلها طيلة حياتها، وعادت لتشعر بالضّياع والخوف من الزمن الغدّار، انعكس ذلك في تذمّرها المتواصل، وبكاء حظّها العاثر، بوجود طفل أثقل كاهلها وأصبح حجر عثرة أمام تجربة زواج أخرى قد تنقذها من فقرها، غير أنّ من تقدّم لها من الأرامل أو المطلّقين كانوا يتراجعون بمجرّد علمهم بوجود الصبيّ في حياتها.

لم تكن زكيّة تتورّع عن شتم الصبيّ وتحميله معاناتها فكان يلجأ إلى بيته وينكبّ على كتبه يقرأ ويبكي حتى تتعكّر الأسطرأمام عينيه.

يبيت ليالٍ بلا أكل، يخزه البرد فتصطكّ أسنانه في صمت، يرعبه هدير زكيّة فلا ينبس ببنت شفة... وكم من الأيّام قصد المدرسة وقد قارب الإغماء جوعا وبردا ولكنّه يغالب ذلك كلّه بصبر أسطوريّ.

أخذت زكيّة مكان شلبيّة في مدخل السّوق تبيع ما تصنع، وتشعّبت علاقاتها بالباعة في السوق ومرتاديه، وانفلت عقالها حتى كان ذلك اليوم الذي طُرق بابها ليلًا طرقًا مؤذيًا، وما إن بادر سامر بفتحه حتى دلف إلى البهو رجال من الشرطة وأبعدوا الصبيّ من طريقهم، وراحوا يقلبون البيت رأسًا على عقب، وبعد لأي صاح أحدهم: لقد وجدنا قرطاس الزطلة، ورُحّلت زكيّة من حينها مع الفرقة المداهمة وسط ذهول الصبيّ وشعوره بوحدة وخوف وضياع، لا رفيق ولا مواسي...

هبّ بعض الجيران وقد سمعوا الجلبة للاستفسار فوجدوا الصبيّ شبه أبكم. تكسو وجهه الدّموع يعجز عن التواصل ولكنّه سمع ما قال بعضهم وهو يطلب اللّطف والسّتر، فقد أكّد الجار قاسم بائع الدّجاج أنّ النتيجة متوقّعة، وشاطره جميع من حضر من المتطفّلين الذين يبحثون عن مثل هذه الوقائع لتأثيث جلساتهم وإضافة حكايات أخرى من وحي أخيلتهم المجنّحة، ولم يلبثوا أن غادروا تاركين الصبيّ غارقًا في وجع لا يعلم مداه أحد.

طلعت صباح اليوم التالي الشمس مشرقةً، ولكنّ البيت كان مظلمًا ساكنًا، وسامر منزوٍ في أحد أركانه لا يعلم مصيره؛ وقد فقد أمّه الجدار الوحيد الذي يمكنه أن يستند عليه، مؤلم أن يكون الفرد مقطوعًا من شجرة وهو الصبيّ الذي لم يشتدّ عوده بعْد، يتلقّى ومنذ نعومة أظافره الصدمة تلو الأخرى.

علم وهو من اعترك الحياة على صغر أنّ معركته مع القدر قد بدأت، فهبّ واقفًا وغادر نحو سوق الخضر القريب، عارضًا خدماته على الباعة، وأخيرًا وجد ضالّته لدى شيخ طاعن وبمرور الزّمن علم حكاية الصبيّ، فأخبره بأنّ أباه كان زميله في السّوق وتوطّدت علاقتهما، حتى أنّ الشيخ بوحجلة كما كانوا ينادونه في السّوق طلب من سامر العودة لمقاعد

الدراسة والاكتفاء بالعمل في العطل وأواخر الأسبوع، وأصبح سامر أكثر استقرارًا وشعورًا بالأمن.

بعد مضيّ أكثر من شهر استطاع الشيخ بوحجلة أن يعلم مصير زكيّة؛ وأنّها قد وُجّهت لسجن النّساء بمنّوبة، وكان عليه أن يستصدر بطاقة زيارة والذهاب مع سامر لمقابلتها ومدّها ببعض اللّوازم حتى تقضي مدّة العقوبة.

مرّت سنة وبضعة أشهر قبل خروج زكيّة من السجن إثر عفو رئاسيّ؛ وقد تعكّرت صحّتها وأصبحت تعاني مرضًا مزمنًا كاد يقضي على حياتها بسبب الإهمال، عادت تجرّ أذيال الخيبة، واستقرّت ببيتها لم تغادره لأشهر، بينما حرص سامر على توفير ما تحتاجه وقد غدا شابًّا مفتول العضلات، له قدرة على التحمّل والصّمود أمام عبث الأقدار.

كان سامر في ذلك الصيف يستعدّ لبداية سنة دراسيّة مصيريّة، سنة البكالوريا وما أدراك، وتشاء الأقدار أن يأخذ الموت في تلك السنة الشيخ بوحجلة قبل أن يفرح بنجاح سامر بتفوُّق وتوجّه إلى شعبة الدراسات التحضيريّة الهندسيّة. مات الشيخ بوحجلة الذي أنقذ سامرًا من الضياع، وزاد أن وهبه دكّان السّوق فلا وارث للشيخ، وبدأت الحياة تخضرّ في عيني سامر وأمّه زكيّة التي عادت لصناعة المعجّنات وتسويقها بعد فترة نقاهة ونسيان لما فات.

عاد سامر يوم حصوله على ورقة التوجيه ملؤه الفرح وهو يصرخ في أمّه: «لقد نلت ما به حلمت» شعبة الهندسة يا زكيّة في مدينة بنزرت، لن أبتعد عنك كثيرًا، وسأعود لزيارتك كلّ أسبوع».

مرّت سنوات الجامعة مرهقة، قلّب، وانخرط سامر في علاقة عاطفيّة صاخبة مع إحدى الطالبات التي أحبّها بكلّ ما أوتي من مشاعر، وأخذت نفسه تشهد استقرارًا رغم إرهاق الدراسة وتشعبّها وصعوبة موادّها،

كان يمنّي النفس بالتخرّج والقفز إلى حياة العمل والأمل، قال لزكيّة: سوف أبادر بإرسالك للحجّ، سوف نصلح هذا البيت ونرتّبه بطريقة تليق بأسرتنا، وبالعروس المرتقبة، سوف تزهر أيّامنا يا زكيّة إن هي إلاّ أشهر وتصبحين أمّ الباش مهندس كما يقول المصريون، سأجفّف كلّ دموعك يا أمّي، وأخذها بين ذراعيه يقبّلها ويطلب لها طول العمر.

انكبّ سامر على الدرس والمراجعة بكلّ جوارحه، ولم تمض بضعة أشهر حتى بدت نفسه تضيق، انتابه صداع شديد ومتكرّر لم يعلم سببه، انهال على المسكّنات دون جدوى، عاد ثلّة من الأطبّاء بلا فائدة حتى غدت حاله أكثر تعكّرًا عاف الدرس، والقدرة على الاستيعاب أو تذكّر ما يراجع، ظنّ أنّه الإرهاق، عاد إلى بيتهم لقضاء بعض الأيّام أملًا في تخطّي ما مرّ به، لم يطلع زكيّة على حاله فهي المرهقة لا تتحمّل مزيدًا من المشاغل، غير أنّه ما إن عاد إلى مقاعد الدراسة ومتابعة التحضير حتى غمره الصداع ولم يعد قادرًا على أيّ شيء، انشغل زملاؤه بوضعه ونصحه أحدهم بالذّهاب إلى طبيب الأمراض النفسيّة فقد تكون الحالة جرّاء الضغط والإرهاق الكبيرين.

لم يستجب سامر في البداية؛ ولكن أمام تدهور حاله قرّر الذهاب إلى قسم الأمراض النفسيّة بمستشفى الرّازي القريب من بيتهم، وأخذ يحضر جلسات العلاج، كانت الطبيبة المباشرة قد طلبت تحاليل شاملة وشرعت في النّفاذ إلى خبايا ذات سامر مراوحة بين النّصائح والمواظبة على تعاطي الفيتامينات وأدوية تخفف من حال الكآبة والضغط الكبير الذين تردّى فيهما سامر، وما شقّ على نفسه حالة المنع من الدراسة التي أصرّت عليها الطبيبة كشرط أساسي لتخطّي الوضع المرضي.

انتظرت زكيّة الإعلان عن نتائج التخرّج أواخر السنة لتفاجأ بأنّ سامرًا قد تخلّف عن الامتحان؛ بسبب معاناته لأشهر دون علمها.

يوم علمتْ سقطتْ مغشيّا عليها، وحُملت إلى القسم الاستعجالي جرّاء جلطة دماغيّة حادة لم تمهلها غير يومين قبل أن تفارق الحياة تاركة سامرًا مرّة أخرى في حالة انهيار غير مسبوقة وقد فقد كلّ أمل في هذه الحياة التي خطّت فصول حرمانه ونكده وخسارته لكلّ الذين أحبّ.

لم يكن سامر يعي لماذا ركب في ذلك اليوم القطار المتجه نحو مدينة بنزرت، بعد أيّام قليلة من دفن زكيّة آخر نبض ربطه بعالم الأحياء، اقتطع التذكرة وهو لا يدري لماذا فعل ما فعل؟ لماذا يعود إلى بنزرت، المدينة اللؤلؤة صحيح ولكنّها المدينة التي شهدت كلّ هزائمه وانكساراته، على أسوارها وئدت غزوة حبّه الأولى والأخيرة، وعلى مدارج جامعتها أهرق أمله في الانتقال من عالم النسيان إلى عالم الذكر، وفي طرقها تعثّرت خطواته وهو هائم فاقد للذّاكرة، وعلى شواطئها الذهبيّة والصخريّة هبّت عواصف نفسه المتألّمة، حزنه عبثت به الأمواج الهادرة، وحلمه سرقته الرّياح الشتويّة التي تضرب جبال المدينة بعنف لا يطاق..

لماذا يعود لهذه المدينة؟ هل بلغ به الأمر مرحلة جلد الذّات والتشفّي حتى يحملها ليلقيها على قارعة المدينة التي شهدت خسارته الأبديّة.

ما إن استقر على الكرسيّ حتى لمح في المقعد المقابل وجها مألوفا ولكنه عجز عن تحديد هويته، وظلّ يعتصر ذاكرته الملعونة دون جدوى. انكفأ على نفسه وتوجّه ببصره نحو النافذة فيما شرع القطار يزمجر معلنا عزمه على الانطلاق، كانت البناءات المتراصّة تتخفى في سرعة، كان سامر يتابع المشاهد وفي رأسه تشتعل عاصفة عنيفة من الأفكار المتنافرة والتهيؤات المرعبة، كان شديد التوتر والانفعال حتى قارب الغثيان. وفجأة نطق الراكب المجاور للشيخ الذي بدا وجهه مألوفًا لسامر وقد لاحظ استرسال دموعه قائلا: ما الذي يزعجك يا عمي؟

فسمع سامر صوت الشيخ مترنحًا يقول: أنا عمك الطاهر يا ابني، لم أستطع مداراة حزني، كنت منذ حين أودع ابنتي، هي أيضا اختارت الهجرة مثل إخوتها...وتهدج صوته.

وما إن أتم كلامه حتى صاح سامر: عم الطاهر، أنا سامر أتذكرني لقد سافرنا منذ أشهر سويًا، ووعدتك بزيارة في بنزرت ولم أفعل.

انتبه الشيخ لمخاطبه وهو يسترد ذكرى باهتة: نعم، أعتقد ذلك، سامحني يا ابني لست على ما يرام، اعذراني كليْكما فليس لي قدرة على الكلام وأخفى رأسه بين كتفيه وتظاهر بالنوم.

استاء سامر لمرأى عم الطاهر على تلك الحال، ورجا لو يخفّف عنه إلاّ أنّه احترم صمته وانكفاءه على نفسه.

وعاد لمتابعة الحقول المنبسطة عبر نافذة القطار وقد انشغل الفلاّحون في عمليات الحصاد المتعدّدة التي تنتهي بجمع المحصول وأكوام القشّ... لقد صارت الخضرة صفرة جانحة إلى التربة، سُنّة الموجودات في تحوّلها عبر مراحل النشأة والرّيعان ثم الذبول؛ ولكنّي حرقت كلّ المراحل دفعة واحدة وقد بلغت مرحلة الذبول في زمن قياسي - قال سامر ذلك في نفسه - وقد عاوده التوتر والإحساس المرير بالتيه. أجال بصره وسط القطار، شعر بالوحشة وأنّه غريب يقصد مدينة لا تمتّ له بصلة، ما عمّق حزنه وتشعبت حيرته حتى خامرته فكرة النّزول في أيّ من المحطات القادمة؛ تماهيا مع حالة العشوائيّة التي تُسيّره منذ أمد، غير أنّه لم يفعل فقد بقي مشدودًا لعم الطاهر منتظرًا بلوغ بنزرت للسؤال عن حاله ومعرفة آخر أخباره...

ما إن توقّف القطار حتى هبّ سامر يوقظ العم الطاهر ويساعده على النّزول ومغادرة المحطّة في اتجاه قلب المدينة.

كان الرّجل منهكًا حتى التعثّر، صوته متهدّج وهو يكرّر: «لم يبق لي أحد، كانت آخر العنقود، انفرط العقد، كنت أستجير بها من وحشتي يا سامر، فإذا بها تحزم حقائبها وتأخذ أبناءها لتلتحق بزوجها، قالوا لم يعد لنا قعود في هذا البلد وهاجروا...

ثمّ فجأة انتاب عم الطاهر تشنّج ظنّ سامر أنّه سيقضي عليه؛ فبادر بسيارة أجرة تقلّهما إلى بيت العم الطاهر القابع في المدينة العتيقة «القصبة». وحين أسعف العم الطاهر بما له من مهدئات وعاده الاستقرار أبدى أسفه لسامر، وهمّ هذا الأخير بالمغادرة دون أن يدري الوجهة حين تشبث العم طاهر بتلابيبه راجيا منه قضاء الليلة معه.

أجال سامر بصره في بيت العم الطاهر وهو يدخله في ظرف استثنائيّ، بيت من البيوت العتيقة التي مازالت تحافظ على الجمع بين الأنماط الهندسية الأندلسية العثمانية والإيطالية، أثارت انتباهه الزخرفة الفاخرة والنقوش على الجبس والخزف وذاك الجو الحميمي الذي تتوزع من خلاله مختلف الغرف المطلة على بهو فسيح..

ظلّ سامر سارح الذهن إلى أن قال له العم الطاهر: «العفو يا ابني، انشغلت بي وربّما ضيّعت عليك قضاء حوائجك، ولم أفرح بزيارتك لبيتي كما ينبغي، أزمة ألمّت بي وسأتكيّف معها، خبّرني عن حالك وكيف هي الوالدة والدراسة؟

لم يستطع سامر أن يتمالك نفسه أكثر وانهار أمام العم الطاهر وهو يعوي كذئب جريح: «لست على ما يرام يا عمّي، ضاع كلّ شيء؛ أمّي تعيش أنت، قبرتها منذ أيّام قليلة، ودراستي...وأشتدّ به النشيج...وكانت ليلة البوح والشكوى والتباريح.. حتى استحى العم الطاهر من نفسه لمّا علم ما قاسى سامر في حياته، ولم يعلما ليلتها متى راودهما النّوم.

المقطع الثالث:

الانفراج.

بات العم الطاهر يفكّر في طريقة يساعد بها سامرًا؛ وقد أضحى بلا سند وفاقدًا لكلّ أمل، حتى استقرّ به المطاف على ضرورة الإبقاء عليه معه زمنًا حتى تمرّ العاصفة الحزينة التي تجتاحه كمرحلة أولى.

لّما علم سامر بمقترح العم الطاهر استساغه بينه وبين نفسه فهو اليتيم، التائه، الخائب، ولكنّه أبدى تمنّعًا ظاهرًا دفعته إليه عزّة نفسه التي تأبى التّواكل، غير أنّه قبل العرض وهو يدري أنّ العم الطاهر نفسه يحتاج هذه الرفقة.

كانت الجولات الصّباحيّة التي يقوم بها سامر وعمّ الطاهر قد بدأت تصلح شيئا فشيئا ما أفسدته الحياة، وكانت إشراقة الشمس على الشواطئ المتاخمة للمدينة تبعث بأنوار من الأمل وتزرع حبيبات من السعادة بدت في نفسيهما كحبّات تزداد تلألؤا بمرورالأيّام.. وجد العم الطاهر خفّة في المشي على غير أيّام البرد، وشرع يأنس لوجود سامر فراح من مخيّلته قليلًا ألم الحنين إلى الأولاد والأحفاد، أمّا سامر فقد علم أنّ الحياة وإن قست يمكن مغالبتها بالصبر والسلوان. حتى كان ذلك اليوم الذي صادف العم الطاهر أحد أصدقاء القسم الذي سافر منذ سنوات إلى أوروبا للبحث والدراسة، وبعد احتساء القهوة سويّا بادر العم الطاهر صديقه الأستاذ نافع الجزيري قائلًا: ولكن حدّثني عن سبب رجوعك النّهائي وقد أمضيت جلّ حياتك في باريس متنقلا بين جامعاتها ومراكز بحثها؟ هل هو الحنين الذي لا تطفئه مياه المحيطات أم هو البحث عن الدفء بعد أن اشتدّ على عظامك برد أوروبا؟

فأجاب الأستاذ نافع دون مواربة: فيما ذكرت جوانب من الصّواب دون شكّ، فأنت تعلم طبيعة الحياة في الغرب عامّة وطغيان الفردانية والاستقلاليّة، فالأولاد قد شبّوا وكلّ أصبح له طريق ونمط عيش، والزوجة لها الغفران، وبعد أن أحلت على شرف المهنة اشتدّت وحدتي، ففكّرت جديّا في العودة وإنشاء مركز بحوث في التاريخ والحضارة يهمّ بلدان شمال إفريقيا، وأنت تعلم أنّه تخصّصي وها أنّي أباشر اللّمسات الأولى بعد تهيئة المقرّ؛ فقد خصّصت له جزءًا محترمًا من بيتي الشاسع.

كاد العم الطاهر يطير فرحًا لما سمع، وتبادرت إلى ذهنه فكرة سرعان ما عبّر عنها متوجّها لصديقه الأستاذ نافع قائلا: هل تحتاج من يعينك؟ يعيش معي شاب جامعي على خلق كريم قست عليه الحياة فلم يتمكّن من إنهاء دراسته الجامعيّة؛ وهو غاية في الذّكاء، يمكنك التعويل عليه لو شئت، ولا أظنّه يرفض مثل هذه الفرصة، في وقتنا من يجد وظيفة عليه أن يكون أسعد الخلق، فالسّوق كاسدة كما ترى.

تبسّم الأستاذ نافع وهو يقول: فعلا أنا بحاجة لموظف يؤازرني وسيكون هذا الشاب الذي تقترح، شهادتك له تكفيني.

أحسّ سامر وهو يرتّب حياته الجديدة بأنّ القدر بصدد تشكيل مصير آخر، وثنايا مختلفة قد تتقاطع مع ماضيه؛ ولكنّها حتما لن تكون مرتبطة بمخلّفات ذاك الماضي اللّعين وحده، وأنّ القطار الذي جمعه بالعمّ الطاهر لم يكن مجرّد قطار حديديّ متهالك؛ إنّما هو واحد من عربات الحياة التي تحمل في جرابها فرضيات اختيار عدّة، وإمكانات حلم لا حصر لها، وما على الإنسان سوى اقتناص الفرصة والنطّ داخل العربة حتى لا تركد من حوله الحياة.

جرت الترتيبات حثيثا، وانكبّ سامر يبلي البلاء الحسن في إنجاز ما يُطلب منه، ووجد نفسه منغمسًا في كون مترامي الأطراف من المصادر والمراجع والبحوث وأرشيف هائل من الوثائق، والمعلومات على صلة بالتاريخ قديمه ومعاصره، وبناء الأمم، والحضارات التي اندثرت وأخرى صعدت بدلها، والحروب التي دمّرت وأزهقت الأرواح...

لم يكن سامر يغادر مقرّ مركز البحوث الشمال إفريقيّ إلاّ للنّوم، وأصبح منكبّا على القراءة المتفحّصة لما يكتب خاصّة من قبل المستشرقين حول بلاد العرب والمسلمين وزعماء الأمّة والدراسات النقدية للتراث عامّة. حتى عثر في ذلك الشتاء البارد على وثائق جلبت اهتمامه حول الأمير عبد القادر الجزائري؛ ومن يومها سلك طريق الحفر في هذه الشخصيّة التي تضاربت حولها الكتابات والآراء حتى التناقض التّام بين من يعتبره بطلا قوميّا مجاهدا وضع لبنات الدولة الجزائريّة الحديثة، ومن صنّفه خائنا سهّل دخول المستعمر ليصبح عضوا في المحافل الماسونيّة أثناء وجوده في بلاد الشام قبل وفاته.

قال الأستاذ نافع يوما لسامر وقد رآه منغمسا في البحث: لقد اشتكى صديقي الطاهر منك.

انتفض سامر ومسحة من الغرابة تغطي وجهه: وفيم شكواه؟ لم أقترف عيبًا في حقّه. أتراه ملّ وجودي معه؟

حينها ضحك الأستاذ وهو يردف: لا... لا يا ابني، بالعكس هو يشكو من قلّة جلوسك إليه وخروجك للتطواف معه، أنت تعلم وحدته وقد أصبح يعتبرك ابنًا له بعد أن بعُد كلّ الأبناء... حاول أن تخصّص له وقتًا، هذا كلّ ما في الأمر.

تنفّس سامر الصّعداء معتذرًا عن تقصير غير متعمّد، وتوجّه سائلا الأستاذ نافع: هل تعتقد في صحّة ما كُتب حول الجاسوس الفرنسي ليون روش في علاقته بالأمير عبد القادر الجزائري؟

حينها تبسّم الأستاذ نافع وهو يقول: هل وصل بك البحث إلى هناك؟ أودّ أن تطّلع على كلّ الآراء وتستخلص استنتاجاتك وحينها نناقشها سويّا، ما رأيك؟ وليكن هذا منطلقًا لبحث أعمق حول علاقة الغرب بشمال إفريقيا ما قبل الاحتلال.

أحسّ سامر أنّه كان تائهًا في بحر من القراءات المتفرّقة وأنّ مقترح الأستاذ قد وجّهه نحو هدف محدّد، وعاد لينظّم أفكاره ويبحث عن مخطّط محكم يصوغها من خلاله.

عاد ينبش في سيرة ما اعتبر جاسوسًا غريب الأطوار، هذا الاسم المدوّي في عالم السياسة والجوسسة.

تاه مدّة في غياهب الكتب والمذكّرات، وبقي أيّامًا في حالة من الصدمة والذّهول وقد وجد نفسه أمام حقائق مذهلة جمعت بين الخيانة والغدر، وحبّ خرافيّ وكره غير مسبوق، بين الشجاعة والجبن... صرخ في وحدته « هل يمكن لليون روش أن يكون واحدًا أم مزيجًا من البشر؟ لا أصدّق كلّ تلك التحوّلات والطفرات وما نُسج حوله.

وفجأة راودته فكرة اعتقد أنّه يمكن استثمارها في بحثه والجلوس إلى العم الطاهر أكثر ما يمكن من الوقت، دندن لحنًا محبّذًا وهو يقول: «سأتقصّى حكاية ليون روش هذا ومن لفّ لفّه، وسنستمع لها سويًّا أنا والعم الطاهر فهو مولع بالتاريخ وقصص الأوّلين، سنزجي سهراتنا الشتويّة الطويلة بها. جهّز الهاتف وحاول أن يتكلّم عربيّة بصوت غير صوته الحقيقيّ حتى يوهم السّامع بأنّه قد عثر على تسجيل لأحد الباحثين ثمّ بدأ بتنفيذ الفكرة.

المقطع الرّابع:
فرنسا، الثورة، عهد الإرهاب، التوسّع الاستعماري.

من يصدّق أنّ الثورة الفرنسيّة امتدّت من سنة ١٧٨٩ إلى الحرب العالميّة الأولى؟

كان الليل الأسود يرخي سدوله على باريس، برد وجوع وخوف يملئون سكّان المدينة وهم يتلقّون المنشورات المحرّضة على الملك وزبانيته خلسة؛ ويسارعون إلى دفنها والرّعب يشلّ ألسنتهم وأرجلهم، يدرون أنّ المقاصل منصوبةٌ في كلّ الأحياء، وأنّ النّبلاء ورجال الدّين يسدّون عليهم الأنفاس ويشربون دماءهم دون شفقة منذ قرون؛ ما هيّأ النفوس لتقبّل الأفكار التنويريّة وانتشارها على أجنحة الأمل، والحلم بالعدل وانتفاء امتيازات الأرستقراطيين الإقطاعيين وسطوة رجال الكنيسة، كان النّور يبدو منبجسًا في أنفاق باريس ولياليها السوداء الحزينة؛ حتى اهتاج الخلق وكسروا حواجز الخوف وهبّوا إلى الشوارع لا يلوون على شيء، واقتحموا سجن الباستيل رمز الطغيان والمحاكمات الجائرة، ونجحوا في إلغاء نظام الإقطاع وإعلان حقوق الإنسان المواطن.

باريس صارت بهرة من الضياء والأنوار الواعدة، وسرعان ما بدت الرغبة في تصدير الثورة، وانطلقت الحروب الثوريّة تضرب شرق أوروبا وغربها.

الثورة عندما تتطرّف وتلبس لباس المستبدّ تنقلب على أهلها، هكذا صاح الفرنسيون وقد منوا بخيبة كبيرة ومعاناة مريرة حين انقلاب اليعاقبة البرلماني، فهذا ماكسيمليان روبسبيير قد غدا طاغية أوامره مقصلة، وفرنسا تسبح في بحر من الدّماء والرّعب، الحكم بالإرهاب والنّقم تملأ العيون.

صاح روبسبيير ـ وقد عزف التجّار ونقصت المؤن ـ: «أرسلوا الفرسان إلى الرّيف، وليعتقلوا المزارعين وليصادروا المحاصيل، وسارعوا بجلب الحبوب إلى أهالي باريس..

اقترب من روبسبيير أحد أعضاء لجنة السلامة العامة وهو يوشوش له: ما جمعناه من مواد غذائية من فلاحي فرنسا لا يكفي لإطعام باريس، وماذا عن الباقي؟ المجاعة تهدّد الجميع والشعب في هرج لا ينقطع...

لم ينتظر روبسبيير أن ينهي محدّثه كلامه حتى صرخ: خائن، خائن خذوه إلى حتفه.

واستمرّت الأجواء الموبوءة تلبّد سماء باريس، واستمرّت العربات الخشبيّة المفتوحة تحمل الضحايا نحو المقاصل في مشهد فرجوي مرعب.

صاح الفرنسيون وهم يملؤون الشوارع: لقد جعنا، لم نثر لندمّر فرنسا، ثرنا ضدّ الإقطاع، ثرنا ضدّ الظلمة من رجال الكنيسة، ولم نثر ضدّ الربّ، أوقفوا ذبح الكهنة الصالحين، أوقفوا تدمير الكنائس وأيقونات الأقداس. وتمكنت أمواج الثوّار من اعتقال روبسبيير وأعدم هو وغيره من قادة اليعاقبة وكانت الجموع تردّد: «ولتذهب سياسة الحدّ الأقصى القذرة» يقصدون الحكم بالإرهاب صنيعة اليعاقبة.

ثورة الجياع والمقهورين عندما يركبها المستبدّون باسم الثورة تفقد ألقها، ترتمي في أحضان المتربّصين القدامى، وتدغدغ شهوة الثكنات والعسكر، من هذا الباب انقضّ نابليون مدعومًا بالبورجوازية واضعًا حدّا للثورة؛ ليقيم نظامًا دكتاتوريًّا توسّعيًا.

كان العم الطاهر يستمع منتبهًا وحيرة بادية على محيّاه ترجمها قائلا: أراك تدور حول الموضوع دون أن تلجه، ما الأمر؟

قال سامر: ليالي الشتاء طويلة، وتاريخنا يحتاج في قراءته إلى مجلّدات حتى لا نمرّ بجانبه مرور المغيّبين... استمع وسوف تتبدّد حيرتك.

تنحنح العم الطاهر وهو يقول مستفزًّا: لقد برد الشاي فهل لي في آخر خفيف دون سكّر؟

فقال سامر متحمّسا: المهمّ أن تتواصل سهرتنا.

المقطع الخامس:
مدينة غرونوبل.

في زقاق من أزقّة مدينة غرونوبل عاصمة جبال الألب، كان ألفونسو روش يجتاز ممرًّا ضيّقًا مرصوفًا حجارةً مصقولةً، بعد أن اجتاز ساحة «نوتردام» وهو محبط، سارع الخطى نحو بيته وقد لفحته زخّات مطر خريفيّ بارد، كان بيتًا من طراز معماري قديم شديد الضيق وكثير الرّطوبة، وما إن ولج إلى الدّاخل حتى ألفى زوجته كليمونتين شاحبة اللّون، تقاوم وجع المخاض بجسد نحيل منهك وليس حولها سوى بعض النسوة. ازداد وجه ألفونسو تجهّمًا خوفا على كليمونتين. بدا منشغلا، متأفّفا كيف لا وهو لم يجن أيّ مال منذ زمن وقد عاد للتوّ من ساحة «غرينيت « سوق الحيوان والحبوب وقد ألفاها مقفرة، كان ينوي اقتراض بضع فرنكات من صديقه المزارع الذي تعوّد عرض منتوجه الفلاحي؛ ولكنّ الأوضاع المتوترة والحروب المتواترة التي بات يخوضها نابليون في كامل أنحاء أوروبا لم تترك مجالا لحرث أو زرع، آه من الحرب، آه من الثورات والانقلابات التي جوّعتنا؛ قال ذلك قبل أن يشتدّ صراخ كليمونتين في الحجرة المجاورة والذي سرعان ما كان يخور وينطفئ فيخال أنّها قد انطفأت معه، فيهرع يسأل، فيلقّى جوابًا لا يرتجيه: «لم تضع المولود بعد وحالها لا يطمئن» فيعود إلى الشرود والتوجّس حتى انبلج فجر ٢٧ من سبتمبر ١٨٠٩ وكانت صرخة الوليد الذي أطلق عليه اسم ليون بدا شديد النّحول كثير البكاء، تعجز كليمونتين عن رعايته بعد أن تهالكت قواها واشتدّ بها الوهن الذي أودى بها.

كانت أوروبا كلّها تعيش على وقع حرب شعواء وتحالفات معقّدة وغير مستقرّة، وكان نابليون يحقّق النصر تلو النّصر ما جرّ على فرنسا فواتير ثقيلة من الدّيون؛ لتمويل حملاته التي لم تنته إلاّ بهزيمته، حيث انكفأت فرنسا تلعق جراحها وتتفقّد عدد قتلاها وجرحاها وتعاين ضعف اقتصادها.

كان ألفونسو روش كغيره من آلاف الفرنسيين الذين أنهكتهم الحياة وصعب عليهم العيش، وعمّقت سنوات من القحط وقلّة المحاصيل الأزمة، في هذا الجوّ المشحون والمضطرب عاش الطفل ليون روش، كان يُترك في وحدة مقيتة وقد انشغل الأب بتوفير اللّقمة الشحيحة، ولم يهتمّ ألفونسو لحالة الاضطراب التي كانت تنتاب الصبيّ مخلّفة في نفسه مشاعر متناقضة بين خوف وتهوّر، فكان يظلّ منكمشا ببيتهم لأيّام، وأحيانا يغادر حتى يصل أطراف المدينة حيث يقضّي الساعات متأمّلا جبال الألب التي تحاصر المدينة وتكسو جنباتها برداء من الثلج يكاد لا ينجلي، ويعود ليون كالمخطوف ليدخل في عالم من الصمت والذهول، ورغم هذا الوضع المزري الذي عايشه استطاع ليون أن يجتاز سنوات الدراسة بنجاح باهر؛ فقد كان لامع الذكاء. شبّ الفتى وتعلّقت همّته بدراسة الحقوق؛ ولكنّ الخصاصة التي ظلّت تسم العائلة منعته من إتمام دراسته الجامعية التي لم يمكث بها غير ستة أشهر، ليتّجه إلى العمل في التجارة بمدينة مرسيليا لدى أصدقاء أبيه ألفونسو روش.

لم يستطع أجوار فرنسا أن يغفروا صنيع نابليون بهم، ولا أرادوا للأفكار التنويريّة الانتشار؛ فعملوا على محاصرتها وقطع سبل التعاون معها ممّا عمّق حاجتها للتداين حتى تمكّن شعبها من قوت البقاء على قيد الحياة وقد خرجت من ثورة دموية منهكة؛ فاضطرّت إلى اقتراض الحبوب من الجزائر التي كانت حينها إيالة عثمانيّة.

وما إن تمكّن آل بوربون من استعادة الحكم وتولية شارل العاشر العرش سنة ١٨٢٤ فأصبح قائدا للملكيين المتشدّدين الذين عارضوا التنازلات ضدّ اللّيبيراليين فلم يتمتع بأيّ شعبيّة ليلقي بالبلد مجدّدا إلى الفوضى والتظاهر والاضطرابات، ذلك أنّ نفحات الحرّية متى لامست النّفوس لا يمكن استئصالها أبدًا.

كان شارل العاشر بالقصر يتابع التطوّرات وأخبار القلاقل التي تعصف بفرنسا لمّا بلغه أمران يأتيان من الجزائر الأوّل التذكير بتسديد مقابل ما اُقترض من قمح.. ونعق الملك صائحا بالمخبر: «هات الخبر الثاني يا غبيّ.

تلكّأ فرانسوا أوليفيي قليلا ثمّ قال متلعثمًا: «بلغنا أيضا أنّ داي الجزائر قد صفع القنصل الفرنسي «بيار دو فال» بمروحته؛ وهذا اعتداء على جلالتك سيّدي ومقام دولة فرنسا العظيمة.

انتفض الملك شارل انتفاضة من به مسّ وصرخ في مستشاريه داعيًا إيّاهم للتشاور وهو يقول: لن ترى الجزائر حبّة قمح أو فرنكًا، وسنرى كيف نردّ على تطاولها، إنّها جرأة الدولة العثمانيّة عدوّنا اللّدود في واقع الأمر...

كان ربيع فرنسا ساخنًا ذاك العام ١٨٣٠ حيث أمعن الملك شارل العاشر في العداء للثورة، فبعد أن دقّ بها إسفين الاستبداد بحلّ البرلمان وتعديل القوانين الخاصّة بالانتخابات، عمل على إيقاف حريّة الصحافة، وأعاد للإكليروس والنّبلاء امتيازاتهم؛ ما أثار توجّس الفرنسيين وأعاد إلى أذهانهم حقب القمع الوحشيّ فعادوا للانتفاض والتحرّكات في مختلف المدن الفرنسيّة، بينما راح الملك يبحث عن طريق لإلهاء الشعب، وتفويت الفرصة على أعدائه الليبيراليين والاشتراكيين، وإعادة هيبته

وسطوة البوربون؛ فأمر بإعداد حملة عسكريّة ضدّ الجزائر وهو يصرخ في معارضيه: مصالحنا في البحر الأبيض المتوسّط باتت مشلولة بسبب القراصنة الذين أسسوا لهم جمهوريات في الجزائر وشمال إفريقيا، وحاكم الجزائر تجرّأ مطالبًا بديْن القمح وقد مضى عليه ربع قرن، وقد بلغ به الصّلف أن يهين قنصل الإمبراطور ية الفرنسيّة، ألم يكن حريّا به سداد الدّيون النّاجمة عن غزو نابليون لمصر بعد أن التزم بذلك.

ظلّ ميناء طولون يستوعب عناصر الجيش من المشاة والخيّالة الآلاف المؤلفة، وتحرّك الأسطول الضخم بمئات السفن المزوّدة بأحدث أدوات الحرب في ٢٥ ماي من سنة ١٨٣٠ باتجاه الجزائر.

انفرجت أسارير العم الطاهر وهو يمسك بتلابيب القصّة؛ فقد صار يعلم عن ألفونسو روش وابنه ليون ظروف النشأة، وعلم أنّ سامرًا قد نسج ما يشبه الرّواية عليه أن يستمع لفصولها حتى يستوعبها، غير أنّه لم يعده بالصمت المطبق قائلا: لن يكون سكوتي صمتًا على بياض، سأسأل كلّما عنّ لي السؤال، وسأدحض كلّما تراءت لي نظرية مخالفة، فلا تنزعج مني يا ابني فقد كنت معلّمًا مجتهدًا في البحث عن المعلومة.

المقطع السادس:

شبه جزيرة سيدي فرج.

كانت بشائر فصل الصّيف تلقي بنورها ودفئها على سواحل شبه جزيرة سيدي فرج الحالمة، الأمواج تعلو قليلًا ثمّ ما تلبث أن تستكين وهي تلامس رمال الشواطئ الذهبيّة، البحر الأزرق الصّافي يحضن اليابسة بأذرع من العشق، يبحث كيف يحميها وهي المنفتحة على أعماقه الممتدّة تفتن بموقعها وجمالها الخرافيّ كلّ مبحر وناظر.

انتشر على السّاحل بعض الصبية يستقبلون الصيف بحذر وهم يتحسّسون مياه البحر فتصيبهم القشعريرة لبرودته، غير أنّهم يواصلون في تحدٍّ وهم يتصايحون ويتدافعون، وماهي لحظات حتى تراهم ينغمسون في اللجّ وقد استعذبت أجسامهم اليانعة ملامسة المياه، ويستغرقون في لهوهم وتعلو ضحكاتهم، وتتطاير حولهم النّوارس كأسراب من الملائكة. كان مشهد الصبية اللاّهين على سواحل شبه الجزيرة يمتدّ طيلة فصل الصّيف، ولا يقطع متعهم غير هبوب عواصف الخريف وبداية الأمطار. يكون حينها سكّان الجزيرة منهمكين في مواسم الحصاد وطمر أقواتهم وأقوات دوابّهم، فيما تلجأ النسوة إلى تمليح الأسماك التي يدرّها البحر قبل أن تعلو العواصف، وترى غيرهنّ حول المواقد يشوين أواني الطّين أو يطهون الخبز، الحياة في شبه جزيرة سيدي فرج بسيطة وهادئة، والطبيعة الكريمة المعطاء تشرح نفوس السكّان رغم قلّة ذات اليد، إلاّ أنّهم يحتمون بمساكنهم الطينيّة وسعادة لا يدرون مأتاها تغمرهم؛ حتى كان ذلك اليوم الذي عاد فيه الصبية على غير زمن عودتهم فزعين وهم يصرخون ويشيرون إلى البحر حيث غطّى أفقه أسطول ضخم وشرع يقوم

بعمليّة إنزال سُبقت بإطلاق نيران كثيفة تجاه مئذنة مسجد سيدي فرج، فرآها السكّان تنهار وهم في صدمة ورعب ممّا يجري دون سابق إنذار أو حتى إيحاء، وشرع النّازلون وكانوا جنودًا يكتسحون اليابسة، وكان في استقبالهم رياح قويّة هبّت فجأة وجعلت تبعد سفن الأسطول عن السّاحل ما أدخل في نفوس من نزل من الجنود الرّعب؛ فقد وجدوا أنفسهم على أرض بلا مؤن ولا أسلحة كافية، خافوا مقاومة لم تأت، فلم يكن حكّام الجزائر على أهبة، وكان «الأغا إبراهيم» قائدًا فاشلًا لم يتمكّن من التخطيط للتّصدّي، وتشتت بسرعة ما جمع من جند في حين كان الجنود الفرنسيون يواصلون تغلغلهم فسرعان ما استحوذوا على البرج التركي، وقضوا على جيوب مقاومة باهتة تكاد تكون عزلاء فلا أسلحة ولا خنادق، وبعضهم كان يحمل الرّماح في مواجهة نيران المدافع، لقد هزموا قبل أن يبدأوا بنفوس منكسرة.

علم أهل الجزائر حينها أنّ الإنزال الفرنسي في شبه جزيرة سيدي فرج كان القصد منه إجراء اقتحام خلفي لقلعة مدينة الجزائر العصيّة، والاستيلاء على قصبة الجزائر، والقضاء على حكم «حسين داي»، وبسط السيطرة على إيّالة الجزائر وهو ما تمّ في غضون زمن قياسيّ بتوقيع وثيقة الاستسلام.

تأوّه سامر معلّقًا وهو يواصل إسماع التسجيل لعم الطاهر: «هكذا وبهذه البساطة تباع الأوطان في غفلة، هكذا تقدّم هدايا ثمينة للأغراب بعد أن لم يرعها أهلها حقّ رعايتها.

قطع العمّ الطاهر على سامر بثّ التسجيل وهو يسأل محتارًا: ولكن يا ابني لم أفهم ما علاقة ما كنت تسمعني بحكاية الجاسوس ليون روش التي حدثتني عنها؟ أكان مع أوّل المحتلّين الفرنسيين الذين نزلوا في شبه جزيرة سيدي فرج؟

ضحك سامر ضحكةً مجلجلةً وقد أدرك أنّه نجح في استدراج العم الطاهر إلى سماع توطئة الحكاية، وأنّه لن يتركه إلاّ حين اكتمالها ثمّ قال: الجواسيس يا عم الطاهر يتحرّكون في أجواء آسنة ومشحونة بالتآمر غايتهم خدمة مصالح طرف ضدّ طرف، بالتأكيد هناك من الجواسيس الذين جاسوا في البلاد تمهيدًا لعمليّة الاحتلال برمّتها؛ وعلى أمثالهم عوّلت الامبرياليّة في العالم، لقد وفدوا تحت مسمّيات مخادعة بين مؤرّخين، وعلماء أنثروبولوجيا، ومبشرين؛ لينقلوا عن الشعوب وثرواتهم وعاداتهم وأديانهم ومن أيّ السّبل يمكن إتيانهم قبل أن تحلّ محلّهم العساكر المدجّجة وتُقبل على تدجين أهل البلاد، غير أنّ الفرنسيين لم يهنأوا طويلًا بنصرهم إذ سرعان ما قام عليهم المقاومون، وثارت القبائل، وشرع الوعي الجمعي في التشكّل والالتفاف حول الشيخ محي الدّين الذي تمكّن من توحيد الصفوف بين العرب وقبائل الأمازيغ، وبادر بتشكيل نواة جيش جزائري متحمّس لمقاومة الاستعمار الغاشم بعد أن انهزم وفرّ حكّام الإيّالة من العثمانيين.

وحريّ بنا أن نكشف عن القليل القليل ممّا اقترفت فرنسا التي تزعّمت ثورات التحرّر والتنوير في العالم، ولكنّها أجرمت في مستعمراتها، وجرائمها لن تسقط بالتّقادم، اسْتمع يا عمّي.

وعاد للهاتف يشغّله وعاد الصوت المستعار يسرد بعض التفاصيل وهو يقول: كشّر المحتلّ الفرنسي عن أنيابه وكشف عن نيّة الاستيطان؛ فهمّ الجنود باقتراف المجازر لتهجير السكّان الأصليين واتخاذ مواقعهم وممتلكاتهم وتفتيت القبائل وبثّ الرّعب؛ فلم يسلم البشر و لا الحيوان من اعتدائهم.

كان من بين المشاركين في الحملة الفرنسيّة «ألفونسو روش» جنديّ كغيره من الجنود الذين عانوا ويلات الحروب في أوروبا ولم يجنوا سوى الفقر

والخصاصة، فمثّلت لهم الجزائر بكلّ ثرواتها الفرصة السانحة، فلم يتأخّر ألفونسو عن افتكاك مائتي هكتار من سهول متّيجة الثريّة في ضواحي الجزائر وراح يستثمر في الزراعة، وعلى منواله نسج الآلاف من المستعمرين بتشجيع من الحكومة الفرنسيّة التي كانت تشهد أزمة اقتصاديّة خانقة، وما المستعمرة الجديدة سوى متنفّس لما تصدّر من مواد وتستجلب من حاجيات.

سارع ألفونسو روش إلى استقدام ابنه الشاب»ليون» بعد أن انقطع عن دراسة الحقوق لقلّة ذات اليد وانغمس في أعمال تجاريّة غير مجزية.

في صيف ١٨٣٢ رست السفينة التي أقلّت ليون روش وكان شابا فارع الطول أشقر الشعر، من عينيه الزرقاوين تنفلت نظرات فاحصة لكلّ ما حوله، لفحته حرارة غير اعتياديّة على أرض المستعمرة التي يطؤها أوّل مرّة، تجاوزها بما كان يدور في ذهنه من أحلام... تلك الأحلام التي تراود كلّ المغامرين والمحتلّين في تحقيق الثروات والسؤدد والامتيازات التي حرموا منها في بلدانهم.

استقبل ألفونسو ابنه وكان على عجل، قال له في الطريق إلى المزرعة: نحن الآن في موسم الحصاد، وقريبا يمرّ التجار من مالطا وصقليّة لأخذ كلّ المنتوج من الحبوب، ليس لنا وقت لنضيّعه، ستتعلّم يا ليون وتتأقلم مع نمط العيش هنا، يمكننا أن نحقّق الكثير.

شارك ليون أباه حماسه وانغمس في تنفيذ ما يطلب منه، وقد اقتصرت أعماله في البداية على مراقبة العمّال ونهرهم لو تراخوا وكانوا من الجزائريين ومن إفريقيا السوداء خليط من السنغال وجنوب الصحراء.

وبعد أن لاحظ ألفونسو صعوبة تواصل ابنه ليون مع عملة المزرعة ورغبةً منه في جعله ذا مكانة مرموقة لدى المسؤولين الفرنسيين؛ دعاه لتعلّم العربيّة والتغلغل في المجتمع الجديد.

لمّا جلس ليون روش عند الشيخ عبد الرزاق بسيط أيّامه الأولى في تعلّم العربيّة لم يستسغها ولم يحمل أيّ حبّ لها فقد اعتبر أصوات حروفها تجرح الأذن، ولكنّه شرع في التأقلم وتقبّلها خاصّة أنّها قد مكّنته من الاختلاط بالأهالي وبقايا العائلات الثريّة وذات النّفوذ من الدايات والآغوات، لم ينسَ مطلقًا انتماءه لعائلة فقيرة، وعمل على تغطية شعور النّقص الذي وسم كلّ حياته.

تخطّى ليون حدود مزرعة أبيه وحيّه السّكني ليجالس النّاس في المقاهي العربيّة، ويحضر مجالس القضاء، ويشارك المزارعين العرب في خروجهم للغابات قصد صيد الخنازير.

لم تمرّ سنة على قدوم ليون روش إلى الجزائر حتى أمكنه التغلغل مليّا في ثنايا المجتمع الجزائري رغم ما فيه من تنوّع وثراء حدّ الفرقة أحيانا، وما إن وقف ألفونسو على إمكانات ابنه حتى قدّمه للحاكم العام الفرنسي «الدوق دي روفيغو» الذي سرعان ما عيّنه ملازما في فرقة الفرسان الخيالة وقد انبهر بقدرته على التأقلم وذكائه المتوقّد.

وقد بات ألفونسو متأكّدًا من المستقبل المشعّ الذي ينتظر ابنه ليون، استوقفه وهما يغادران مقرّ الحاكم العام الفرنسي عشيّة قبوله ملازمًا وهو يقول له: عليك أن تضع نصب عينيك ما جئنا من أجله إلى هنا تاركينا الوطن والخلاّن، علينا أن نحقّق أهدافنا المزدوجة على أكمل وجه، فرنسا تستحقّ منّا التضحية، وواجبنا نحو أنفسنا يقضي تكوين ثروة تنسينا ما عشنا يا ليون، اذكر أمّك التي لم تنعم بحنانها فقد ماتت نتيجة الخصاصة، وهؤلاء الهمج يرقدون على ثروات لا يعلمون كيف يستثمرونها، همّهم ركوب الخيل وقتال بعضهم البعض من أجل تفاهات أو قرصنة سفننا، لقد جئنا لنبيعهم الحضارة وعليهم دفع الغالي والنّفيس، لا تنسَ أنّ

حملتنا مقدّسة يباركها الربّ في عليائه، ألم ترَ حماسة القساوسة في التبشير للمسيحيّة مقابل ظلماتهم.... وصمت بانتظار موقف ابنه الذي بدا متماهيًا معه وقد عادت به الذكرى إلى أيّام غرونوبل وليالي الوحدة الباردة، ليالي الصمت الذي كان يخيّم في بيتهم لأسابيع وأشهر في ظلّ غياب الأب والموت المبكّر للأمّ، تذكّر كيف غادر كراسي كليّة الحقوق مقهورًا، ونظر إلى السّماء وهو يهمهم: «سنبيعهم الحضارة مقابل ثرواتهم، معادلة معقولة يا أبي، فكلّ شيء بثمنه».

ما أن صمت الهاتف واستعدّ العم الطاهر للنّوم مازحه سامر وهو يقول: أليس لك الفضول لسماع قصّة غراميّة عجيبة؟

اتسعت عينا العم الطاهر وانفرجت أساريره عن ابتسامة خبيثة وهو يقول: الزّمن زمنك يا سامر، أمّا أنا فقد ودّعت ذاك الشغف منذ سنوات، ولكن سأستمع لهذه القصّة مرويّة منك شفويّا غدًا ونحن نرتشف قهوة الصباح بمقهى المدينة ففيها الدفء وعبق الماضي علّه يحيي روحي.

صباحًا عندما انقشعت عواصف ليلة شتويّة شنيعة وبدا الجوّ أكثر حنوّا وقد نزلت «جمرة الهواء» كما ظلّ يردّد العم الطاهر أخذ سامر يروي.

المقطع السّابع:
العشق الممنوع بين خديجة وليون.

لمّا دخل ألفونسو على ابنه في تلك الليلة وجده طريح الفراش يتّقد حرارة وهو في حالة هذيان، تتقاذفه موجات من الغيبوبة وحبّات العرق تلتمع على جبينه؛ حتى خشي الأب انفراط روحه فبادر بجلب الطبيب جاك للكشف عنه، وتتالت الأيّام ولم يشعر ألفونسو بتحسّن يُذكر، وكان كثيرا ما يسمع لهذيانه عند اشتداد الحرارة وقد ألفاه يردّد اسم «خديجة...خديجة».

احتار ألفونسو وهو يرى تعكّر صحّة ليون وصمته المتواصل حتى عثر ذات يوم صدفة على مجموعة من الرّسائل الغراميّة التي كان يتبادلها ليون مع فتاة تُدعى خديجة، وقد كتبت له مؤخّرا تعلمه بعزم أهلها على تزويجها من رجل لا تكنّ له أيّ عاطفة لمّا تفطّنوا لعلاقتها بابنه، قرأ بعض الفقرات وهو مصدوم من صنيع ليون غير المتوقّع بحكم اختلاف العقيدة واللغة والحضارة ولكنّه بدا متيّما.. «حبيبتي خديجة، مبعث سعادتي، نور القلب، ما أحسّه تجاهك تجاوز أيّ عاطفة بشريّة، جننت بك ولا دواء منك إلاّ بك، حبّنا قدر جلبني من هناك من وراء البحار، فكيف لي أو لك مناهضة القدر؟ أجزم أنّ هذا القلب لم يخفق مطلقا إلاّ لك، وكم سعدت بشعورك المتبادل يا ملاكي، لم نخلق إلاّ لنكون معاً إلى آخر رمق، لن يكون لأيّ من الحواجز أو العقبات قيمةٌ تُذكر أمام هذا الحبّ الجارف حبيبتي، حياتي، اصمدي، قاومي لا تدعيهم يقتلونك بزواج لن يُسعدك فهو بلا حبّ، لأنّ ما بيننا هو الحبّ، هو خفقان الصدر هو دقّات النّبض التي لا تفتر وتكاد تُهلكني، حبيبتي لا ترمي بي إلى الضياع، بدونك يا قلبي لا حياة لي وإن عشت».

قرأ أيضا جزءًا من رسالتها الأخيرة وكانت مبلّلة بقطرات من الدّموع، ولا يدري أكانت دموعها وهي تخطّ أم لابنه وهو يقرأ أم لكليهما «حبيبي ليون خفقة القلب الأولى، نوري وناري المتأججة التي لم تنطفئ منذ التقينا لقاءنا الأوّل الخاطف عند أطراف المزرعة، إنّه بقدر تمسّكي بك بقدر عجزي أمام سطوة العائلة، أدرك أنّها لن تسمح لي كي أكون لك، فقد أضحيت كالسّجينة أنتظر الحكم بالإعدام، بُعدي عنك هو الموت، هو الفجيعة الكبرى، كم تعلّقت بك وكم أودّ أن أكون معك طول العمر ولكنّي عاجزة، منهكة، يائسة لا حول لي وإن زوّجوني، وإن سلبوني منك فلن يكون قلبي إلاّ معك ما حييت».

ضمّ ألفونسو رزمة الرّسائل في مكانها وغادر بعد أن بات على علم بعلّة ليون التي عجز الطبّ عن كشفها، وتوجّه رأسًا إلى أصحاب ليون المقرّبين علّه يجد أجوبة لحيرته وما أصاب الشاب فعلم منهم أنّ العلاقة بين ليون وخديجة حقيقيّة، وأنّ الفتاة من عائلة موريسكيّة مرموقة، وأنّهم لن يسمحوا بزواجها من ليون بحجّة أنّه نصراني؛ لذا سارعوا بعقد خطوبتها منذ أيّام قليلة على رجل لا تكنّ له أي شعور يكبرها بعشرات السنين؛ تفاديا لما يمكن أن يحصل بين العاشقين.

أحسّ ألفونسو رغم قوّة نفوذه أنّه عاجز عن الوقوف إلى جانب ليون، لأنّ المسألة لن تُحلُ بقوّة السّلاح، هي على علاقة بدين الأسر وعاداتها وتقاليدها التي تستميت دونها. فكان يردّد في نفسه «لماذا توقع نفسك يا ليون في هذا المأزق؟ لماذا تشعرني بالعجز؟ هل يمكن لهذه الفتاة مهما كانت جميلة كما ذُكر لي أن تفوق جمال الشابات الفرنسيات؟ كيف لي أن أنقذك من هذه الورطة؟

لمّا جلس ألفونسو إلى ليون ألفاه قد ذهب رشده، ونحل جسمه، وبدا غير قابل لنصح أو سلوّ وظلّ يردّد: لا حياة سويّة لي دونها أخذت لبّي وكلّ ما أملك من مشاعر، ستتزوّج يا ألفونسو، كيف لهم أن يقصفوا حياتها بهذا التوحّش؟

بدا ألفونسو حزينًا وهو يخاطب ابنه: كان عليك أن تصارحني منذ البداية يا ليون، لكنت نبّهتك، بيننا وبينهم فروق جوهريّة في هذه المسائل...

انتفض ليون من مرقده وهو يصرخ: قلبي خفق بلا إذن، وهل تستأذن الضّواعق لمّا تشقّ قلب السّماء، شعور رائع، عميق، حقيقيّ يا أبي، أحبّها، أحبّها، وعاد لينهار.

رأى ألفونسو أن يكون أكثر حزما علّه يتمكّن من استعادته فقال: أراك نسيت أهدافنا التي جعلتنا نغادر الوطن، وأراك غير واعٍ بما يحصل حولنا من مقاومة جزائريّة اشتدّ عودها وأضحت تكيل لنا الضّربات الموجعة يا ابني، ما يقوم به الأمير عبد القادر الجزائريّ يكاد يقوّض وجود قوّاتنا، علينا أن ننسى ذواتنا وأحاسيسنا في هذه المرحلة... وأظنّك تشاطرني الرّأي، هل نعود من حيث جئنا خائبين منكسرين؟ لقد أقسمنا على التضحية من أجل الوطن أوّلًا وأنت جنديّ في خدمته وهو يحتاجك قويّا، لا كما أنت، الحبّ معركة صحيح ولكنّها بينك وبين قلبك، ولكنّ معركتنا الكبرى مع هؤلاء المقاومين...

كان ليون يستمع لخطاب ألفونسو وهو ساه ولا يردّ.

مضت الأيّام وحال ليون في تقهقر، زاده سماع خبر زواج خديجة نكسة كادت تنقله إلى عالم الأموات؛ لولا تواتر الأخبار عن اشتعال المعارك وسقوط العديد من القتلى في صفوف الفرنسيين وكان من بينهم أحد أصدقاء ليون المقرّبين.

علم أيضا أنّ فرنسا لم تفتأ ترسل الدّعم من العساكر المدجّجة وراء الدعم، وأنّها جعلت تغيّر الحكّام وقادة المعارك لهول ما تلقّت قواتها من ضربات موجعة، وأنّها لم تتمكّن من الحفاظ على مواقعها التي احتلّتها.

كانت هذه الأخبار تتقاطع لدى ليون مع أخبار زواج حبيبته خديجة فتتعمّق لديه النكبة المزدوجة، ولكنّه سرعان ما يعود إلى توصيات أبيه ويظلّ زمنا لا يقوى على اتخاذ أيّ قرار، منقطعًا عن الخروج من بيتهم أو العمل فيكتفي بقبول بعض المقرّبين له، حتى كان يوم عودة الأب مصابًا بجروح بليغة جرّاء غارة خاطفة قام بها كوكبة من الفرسان على مزارع المعمّرين فقتلوا من اعترضهم، ودمّروا وأحرقوا حقول القمح كردّ فعل على ما قام به الجيش الفرنسي في هجوماته المتكرّرة على مواقع القبائل القريبة من الجزائر متوخّيا سياسة الأرض المحروقة؛ حتى يدفع بالسكّان إلى الفيافي فيستولي على السّهول ومنابع المياه والثروة.

في ذلك اليوم استشعر ليون الخطر الدّاهم وأنّ عليه أن يساهم في الدّفاع عن مصالح فرنسا فأتى على نفسه يؤهّلها، واعتنى بتطبيب ألفونسو ثمّ عاد للمزرعة يؤمّنها، ويشدّ من أزر بقيّة المعمّرين الذين أصابهم الرّعب وفيهم من فكّر في مغادرة الجزائر وقد منع عنهم الخوف والتوجّس كلّ راحة.

وحين اشتدّت المقاومة اضطرّت فرنسا إلى عقد اتفاقيّة «دي ميشال» ١٨٣٤ حيث اعترفت بمقتضاها بدولة الأمير عبد القادر، فبسطت فرنسا سلطانها على السّواحل بينما تمركز الأمير في غرب الجزائر وامتدّ نفوذه إلى داخل الصحراء.

لمّا خمدت نيران المعارك وبسطت الهدنة أجنحة مؤقّتة من الشعور بالاستقرار تمكّن ليون من العودة إلى دروس اللّغة العربيّة، والإبحار في كلّ ما يمتّ بصلة للحبيبة، وظلّت ناره وحدها متّقدة ولم يغادر وجهه

الذبول ولا جسمه النّحول، كان يسعى بكلّ الطرق إلى تنسّم أخبار خديجة مالكة القلب حتى تمكّن من استدراج زوجة معلّم اللغة العربيّة وأن يربط خيطا سميكا مع المحبوبة؛ فقد اعترضها ذات يوم وكان يهمّ بمغادرة الدرس فأحسن تحيّتها وراح يسألها عن السكّان والجيران أسئلة موجّهة القصد منها الوصول إلى خديجة وما همّه في غيرها.

قالت زوجة معلّم العربيّة: لست على صلة في الحقيقة بالعائلة الموريسكيّة ولا بابنتهم خديجة، فأنا من أصول أمازيغيّة تزوّجت سي بسيط معلّمك فنقلني من القبائل، وقد سكنّا هنا حديثا، ولكنّي أعرف الزنجيّة مسعودة التي تتردّد على بيتي من حين إلى آخر لتعينني على شؤونه، مسعودة تعرف كلّ السكّان فهي الكهلة التي تدخل كلّ البيوت.

صاح روش بالسيّدة دون أن يشعر: وأين هي مسعودة؟ أريد رؤيتها.

قالت: قد تمرّ علينا اليوم وقد لا تفعل. لا مواعيد لها.

شكر ليون زوجة معلّمه وأوهمها بالمغادرة غير أنّه بقي يحوم كامل اليوم، يراقب المسكن علّه يرى هذه المرأة الزنجيّة تؤمّه، وهبط الليل وهو على ذلك الوضع من المراقبة المستمرّة، وألم في الصدر ينهشه، ودمع ما إن يجفّ حتى يعود ليغرق العينين حتى أضحت الدنيا أمامه ضبابا ثمّ أظلمت، فعاد للبيت يجرّ أذيال حبّ مكسور وأمل كاذب.

داوم على البيت يحرسه حتى رأى مسعودة الزنجيّة ذات يوم تهمّ بالدّخول، فطار قلبه فرحًا، نعم هي، كهلة ضخمة الجثة تلتحف بلحاف أصفر فاقع وتغطي الرأس بفوطة حمراء وتمشي في خفة. بادرها ليون قبل أن تطرق باب معلّم العربيّة بالتحيّة، ارتبكت في بادئ الأمر وأصابها الجزع غير أنّ ليون تبسّم في وجهها وهو يقول: وددت معرفة إن كنت

مستعدّة لمساعدتنا في بيتنا، أعيش مع أبي ونحتاج معونتك وسيكون لك أجر مجز، فقد أشادت زوجة المعلّم بخدماتك.

كانت استجابة مسعودة سريعة ورافقت ليون لتوّها بعد أن أجزل لها العطاء مسبقا. وعمل بكلّ ما أوتي من خبث على معرفة أحوال الحبيبة.

قالت مسعودة وهي تجيب ليون: تسألني عن خديجة؟ هي ابنتي لقد أرضعتها في صغرها لمّا أصيبت أمّها بالحمّى وكادت تفنى، وربّيتها حتى ترعرعت، آه من غدر الزّمان لقد زوّجوها على عجل ولم تكن ترغب في تلك الزيجة الملعونة، لقد تمّ الأمر بسرعة آه يا سيّدي، قصفوا شبابها وكانت أجمل فتاة رأتها عيناي، قدّ مياس، وعينان زرقاوان، وشعر مسدل كستار يكاد يخفيها..لم يمرّ من عمرها سوى أربعة عشر ربيعًا، قل لي كيف تسعد مع من لا تحبّ؟ لقد سمعت خفية أنّها تعلّقت بشاب فرنسيّ فسارعوا بتزويجها، أيعقل هذا يا ابني؟ لم أصدّق مطلقًا، لقد طمع أهلها في هذه الزّيجة فالرّجل شديد الثراء، وأردفت: «وماذا ينقص أهلها؟ ولكنّ النّاس لا يشبعون.

قطع ليون على مسعودة ثرثرتها وتعاليقها الجانبيّة وقد نفد صبره وهو يقول: بلى يا مسعودة خديجة وأنا أحببنا بعضنا حتى الجنون، وأنتِ هنا من أجل أن تكوني ساعية بيني وبينها، وسرعان ما أمدّها برسالة كان قد أعدّها. مضيفًا: «احذري أن تقع في غير يدها، احذري أن تخبري أحدًا، إن كانت خديجة تهمّك افعلي ما طلبت منك».

خُيّل إلى مسعودة لوهلة أنّها تورّطت ولكنّها سرعان ما تذكرت المال المجزي الذي كوفئت به قبل أداء المهمّة، تذكّرت خديجة وحزن خديجة ودموع خديجة وذبولها، تذكّرت في لمحة شبابها قبل أن تُغير إحدى القبائل على خيمة أهلها المنصوبة على أطراف الصحراء، ثمّ جيء بها إلى الجزائر

لتباع لجدّ خديجة الموريسكي الثريّ الذي يقال إنّه تمكّن من تهريب الكثير من الذهب والأموال لمّا طرد من الأندلس.

عاد مسعودة حزن ساكن في قلبها ليشتعل من جديد وهي تذكر قصّة حبّها اللّذيذة مع زنجيّ من قبيلتها، كانا يتواعدان ويتعاهدان على حياة سعيدة قبل أن تؤخذ في إحدى الغارات، وتنقطع عن عالمها الأوّل ليزوّجوها بأحد الزّنوج من السينغال، ويفنى كلّ الأولاد الذين أنجبتهم ويلتحق بهم الأب، وبقيت مقطوعة من شجرة لا أهل ولا زوج ولا أولاد غير بيوت الجيران تدخلها دون إذن لتعين فتعيل نفسها، دمعت عيناها ولكنّها تبسّمت وهي تقطع الطريق إلى بيت خديجة وكان قريبا من بيت أهلها، ظلّت تقنع نفسها بأنّها سترفع عن ابنتها الحبيبة ما كسوْها به من حزن، وأنّها سوف تعيد إليها الابتسامة وترى مجدّدا ذاك اللّؤلؤ المنضود، ولن تدعها تعيش ما عاشت هي. حثّت الخطى ولمّا طرقت الباب فتح لها زوج خديجة وكان معكّر المزاج: «ما الأمر إن كنت تريدين ابنتكم المدلّلة هي هناك منكفئة على نفسها وكأنّها في مأتم، ثمّ استدار وهو يتمتم بعبارات عدم الرّضا.

لم تلق مسعودة بالًا لما ذكر واندفعت تطرق باب حجرة خديجة برفق وهي تقول: «افتحي يا ابنتي، جئت أطمئنّ عليك، افتحي لن أزعجك سوف أمكث قليلا حذوك...

تحاملت خديجة على نفسها واستقبلت مسعودة بالأحضان وهي عاجزة عن إخفاء دمع انساب بلا مقدّمات.

بادرت مسعودة إلى إغلاق الباب خلفها وهي توشوش في أذن خديجة، انشرحي يا ابنتي أحمل لك من ليون روش رسالة وكشفت عن صدرها تخرج الرّسالة حيث أخفتها...

انتاب خديجة كما الإغماء وتلقّت الرّسالة وهي ترتجف، هل هو بخير؟ وبماذا أخبرك؟ وكيف ستتصرّف؟ أنا متزوّجة، سوف يذبحني زوجي لو علم بالأمر، وإن نجوت منه فلا نجاة لي من أهلي. لم تفارقها رعشات الخوف والحنين وهي تقرأ ما كتب لها ليون «عمري الذي توقّف عند ابتسامتك الساحرة، حياتي التي فقدت وهج شبابها منذ فارقتني، سعادتي التي انكفأت بدخولك تحت سقف رجل غيري وأنت لي، أملي الذي عبثت به عاصفة ما فتئت تقضّ نومي، كيف تركتهم يذبحون قلبينا، لماذا لم تفرّي من الجلاّدين، أتدرين أنّي مستعدّ للقيام بمجزرة أتخلّص بها من كلّ الواقفين أمام عشقنا لولا أنّ هؤلاء هم أهلك.هل من أمل في مصير غير الذي دمرونا به؟ أجيبيني حتى يكون لي بقيّة رغبة في وجود ما عدت أطيقه، لا تتأخري في الردّ ولتكن مسعودة ساعية حبّ مجنون بيننا. حبيبك إلى الممات ليون.

قرأت خديجة الرّسالة وهي تنتحب، وظلّت شاخصة لا كلام ولا حركة حتى خيّل لمسعودة أنّها قد سافرت إلى عالم آخر لم تتمكّن من تخطّيه فراحت تسقيها بعض الماء وتذكي نفسها ببعض العطور قبل أن تسمع صوت زوج خديجة المتعالي خارج البيت يطلب الإذن بالدّخول؛ فسارعت مسعودة تخفي الرّسالة بين طيّات ثيابها وهمّت بالمغادرة.

لم يقطع العم الطاهر على سامر استرساله في الحكي على غير عادته، وظلّ يستمع بشغف مراهق، يقطّب جبينه حينًا، ويبتسم استحسانًا حينًا آخر، انتظر حتى أنهى سامر ففرك يديه وهو يقول: قصّة عجيبة، الحبّ لا دين له، لقد شوّقتني وأخرجتني من التركيز على الوقائع التاريخيّة.

قهقه سامر متخابثًا: التاريخ لن يفلتك في باقي الفصول، فبانتفائه ننتفي، قم بنا يا عمّي إلى مركز البحوث وهناك ستواصل الاستماع إلى التسجيل، وما إن جلس العم الطاهر حتى باغته سامر واضعا أمامه الهاتف وانصرف إلى عمله يتمّه.

المقطع الثامن:

دولة الأمير عبد القادر(معسكر).

كانت مدينة معسكر في شهر جوان من سنة ١٨٣٥ تحتمي من الهاجرة بجبال بني شقران التي تشرف عليها كأنّما تحميها من غوائل الدّهر، وكانت المدينة رغم صيفها الحارّ في ذلك العامّ تعيش على وقع حركة لا تهدأ؛ فالتوجّس من هجوم مباغت للقوات الفرنسيّة بلغت أخباره الأمير عبد القادر وجنده.

حرص الأمير عبد القادر على تفقّد جيشه، وعلى عقد اجتماعات متواصلة مع وزرائه ومستشاريه حتى يخلصوا إلى الردّ الأمثل على الهجوم المرتقب، وكان يردّد قوله: لا تستغربوا نقض معاهدة دي ميشال من قبل الفرنسيين؛ لأنّ معاهدات المستعمر مع أهالي الأقطار المستعمرة هي في الغالب محطّات استراحة بين الحملة والحملة، لا عهد لهم، ما يسيّرهم هو مصالحهم.

وقد عاهدت الله وعاهدتكم منذ بايعتموني على أن أفدي الجزائر بروحي وبأغلى ما عندي، لا تهنوا، فنحن أصحاب الأرض، وإنّي أرى ألاّ ننتظرهم حتى يدخلوا علينا المدينة، فما من أرض جرت عليها المعارك إلاّ ولحقها الدّمار، فلنقطع عليهم الطريق، فقد بلغني أنّهم على أهبة الخروج إلينا على رأس جيش مجهّز بالمؤن والذخيرة والمدافع يقوده الجنرال الطّموح» تريزيل».

فجرًا لمّا جلس الأمير عبد القادر – الشاب الذي لم يتجاوز عمره حينها ست وعشرين سنة – قال لمستشاريه: مع الغروب سننطلق الليلة نحو نقطة حدوديّة بين وهران ومستغانم؛ فهي الممرّ الآمن الذي سيتوخّاه الجيش الفرنسي مستندين إلى حاميتهم في وهران، ونقعد لهم خلف الروابي

المحاذية لنهر المقطع، وما إن يتوغّلوا قليلا في طريق «سيق» قاصدين مدينة معسكر حتى نباغتهم.

كانت توقّعات الأمير جميعها في محلّها، وتمكّنوا من مهاجمة الجيش الفرنسي وألحقوا به هزيمة شنيعة جعلت الجنرال المهزوم تريزيل يعيد تنظيم القوات الرّابضة بالجزائر.

ولمّا خلصت المعركة وقف الأمير في جنده خطيبًا قائلًا: أظنّكم تعلمون أنّ استثمار هذا النّصر الذي حقّقناه في معركة المقطع يكتسي بعدًا مستقبليًّا عميقًا، ففرنسا التي تجاهلتنا وداست على كرامتنا عند اندلاع حربنا ضدّها؛ باتت تعترف بنا كقوّة ضاربة ومقاومة ضديدة لها وزنها، هي تقارع دولة الجزائر وهذا اعتراف يخدم قضيّتنا، وتلك الهزيمة التي مني بها جيشها ستجعلهم يأخذون وقتا كافيا لإعادة التنظّم وجلب المزيد من العتاد، فماذا علينا فعله في هذا الوقت المستقطع؟

استمع الأمير إلى مختلف الآراء وكانت جميعها تؤكّد على المزيد من التدريب للجيش وتطعيمه بالمقاتلين، غير أنّ الأمير القائد كان ينظر بعيدًا فردّ واثقًا: وهل توقّفنا يوما عن هذا العمل الذي تذكرون؟ الجيش القويّ يجب أن يكون دائمًا على أهبة، ولكن لا تنسوا أنّنا نحارب على أكثر من جبهة، فرنسا عدوّنا الأوّل، ولكن القبائل المتمرّدة علينا تمثّل شوكة في خاصرتنا تطعننا في الظهر؛ ألم تروا كيف سعى تريزيل إلى توفير الحماية لقبائل الزمالة والدّوائر حتى تكون علينا لا معنا؟ إنّ نجاح المقاومة يتوقّف على الولاء والطاعة، واجبنا يا إخوتي أن نُجمّع الشعب الجزائري من حولنا، وأن نجد الحلول لمنازعات القبائل فنكسب ثقتها وتقوى بها شوكتنا ونحقّق وحدة الجزائر فنقف صفّا واحدا ضدّ المستعمر الفرنسي وقد كشّر عن أنيابه وبان أنّه قدم للاستيطان والقضاء علينا.

ظلّت الحرب والمعارك سجالًا بين جيش الأمير والقوّات الفرنسيّة الغاشمة؛ والتي سعت إلى توسيع دائرة نفوذها ووأد شعلة المقاومة، وكان أكبر أعمالها الانتقاميّة في الهجوم على مدينة معسكر وإحراقها، وتضييق الخناق على قوات الأمير؛ ما اضطرّه إلى إنشاء عاصمة متنقّلة، وانسحب إلى أطراف الصحراء وشيّد عاصمة صحراويّة « تكدمت».

وانتهجت القوات الفرنسيّة سياسة الانتقام من القبائل الموالية للأمير عبد القادر وقطع طرق الإمداد عليه وخاصّة من الأسلحة والعتاد، وكانت ردود المقاومة عنيفة أوقعت في صفوف الجيش الفرنسي المزيد من الخسائر الفادحة خاصّة في منطقة وادي تافنة بتلمسان، وأجبرت الجنرال «توماس روبير بيجو» إلى دعوة الأمير عبد القادر إلى المفاوضات؛ بغية تحقيق معاهدة هدنة جديدة أطلقوا عليها معاهدة «تافنة» استفاد منها الأمير أيّما استفادة بخصوص توسيع نفوذه على أكثر من ثلثي الجزائر؛ ما أظهره زعيماً وطنيًّا بلغ صيته كثيرا من الأصقاع في العالم، وصار رمزًا من رموز التحرّر والبطولة.

لّما انكفأ الأمير في خيمته إثر توقيع المعاهدة وبدا مهمومًا بادره أحد أبناء عمومته وكان من معاونيه: ما حقّقناه بالمعاهدة حلم أيّها الأمير.

نظر الأمير عبد القادر نحو محدّثه وهو يقول: أعلم أنّ لهذه المعاهدة ما بعدها، لقد أوجعنا الفرنسيين بمقاومتنا الشرسة فرضخوا مؤقّتا، ولن يستسلموا ولن يتركوا الجزائر، سينقلبون إلى فرنسا طالبين الدعم ويهيّئون أنفسهم لمعارك أكبر، فقد بلغني أنّهم يدرّبون فرقًا على حرب الجبال والعصابات؛ معنى ذلك أنّهم مستقبلًا سيتوغّلون بعيدًا، ولكن ليس هذا ما يقضّ مضجعي، إنّما هذا التشتّت وفرقة القبائل وصراعاتها وأحقادها التي تسهم بقدر كبير في إضعافنا، هذه القبائل النّافرة الرّافضة لسلطتنا

أصبحت لقمًا سائغة في يد الفرنسيين يؤلّبونهم علينا، وأنت ترى ماذا تصنع زوايا الطريقة التّيجانيّة ضدّنا؛ حتى إنّهم نقلوا للفرنسيين الكثير من المعلومات التي تهمّ إمداداتنا، هل يمكن لوطن أن يتحرّر بينما يتخندق جزء من مكوّناته مع عدوّه؟ وهل يمكن أن نقتلع العدوّ وبعض زعماء القبائل لا يؤمنون بالمقاومة الشعبيّة، ويرضوْن بالبقاء تحت حماية الفرنسيين، ويدفعون لهم الضرائب وهم صاغرون على أن ينضمّوا إلينا مرفوعةً رؤوسهم.

ردّ محدّثه وكان شابّا متحمّسًا: لم تخل نضالات الشعوب وجهادها من أمثال هؤلاء، علينا أن نؤمن بقوّتنا وصدق من انضمّ إلينا، وأن نستكمل استعداداتنا فلا تحين مواجهة إلاّ كنّا لها بالمرصاد. ألم تستشعر ضعفهم أثناء مفاوضات تافنة؟

تبسّم الأمير وهو يقول: إذا رأيت نيوب اللّيث بارزة فلا تظنّن أنّ اللّيث يبتسم، تلك استكانة وليست ضعفا، هم أقوى منّا من حيث الإدارة والتنظيمات والقوانين، تدعمهم إمبراطوريّة دوّخت أوروبا على أيّام نابليون، أسلحتهم متطوّرة ويأتيهم المدد باسترسال، كلمتهم على رجل واحد لمّا تندلع الحرب، لو أنكرنا هذه الحقائق كنّا جناة، ونحن نقابلهم بعزيمة من حديد، وإيمان صادق، وجهاد نبيل في سبيل الدّين والوطن؛ وهذه نقاط قوّتنا، أمّا انكفاء بعض القبائل عنّا فيصيبنا في مقتل، التحرّر يطلب تكاتف السّواعد ونبذ الخلاف، وأردف: «لفت انتباهي وجود شاب ضمن الوفد المفاوض لا أذكر اسمه ولكنّه كان يتقن العربيّة وبه دهاء كبير، كان يخترقني بنظرات مسترسلة؛ حتى كدت أعلّق على صنيعه لولا غرابة المسألة ونحن نفاوض بنود المعاهدة.

لم يكن ذاك الشاب الذي اخترقت عيناه الأمير عبد القادر طوال مفاوضات المعاهدة سوى ليون روش الذي اختاره الجنرال بيجو ضمن الوفد؛ لتمكّنه من

اللّغة العربيّة ليكون مترجمًا، وكان في طريق العودة قد عبّر عن إعجابه بشخصيّة الأمير حتى نهره مرافقوه فقال مدافعًا عن نفسه: إن قلت إنّ الرّجل صاحب شخصيّة قويّة ومميزات قياديّة عالية؛ ليس معنى ذلك أنّي أحبّه، أو أنّي في صفّه، هناك أمور نعترف بها حتى وإن نُسبت لعدوّنا وهذا هو معنى النبل، لقد لمست في حديث الأمير ككلّ وطني تأكيدًا على عزمه النهوض بشعبه وتحقيق وحدته واستقلاله، أليست مطالبه شرعيّة من وجهة نظره على الأقل؟

قهقه أحد المرافقين لليون وهو يقول: ظننّاك لا تجيد سوى الحبّ الممنوع وكتابة رسائل العشق لمحبوبتك خديجة، وإذا أنت بارع في السياسة والدبلوماسيّة.

تنهّد ليون وهو يجيب زميله: الحبّ ابتلاء لذيذ ما إن يصيب الشخص حتى يوقعه ولا فكاك منه، ولست وحيد زماني، فقصص العشّاق تتناقلها الأجيال، لست شاذّا سأظلّ أحبّها ما حييت.

فردّ عليه مخاطبه: ولكنّها تزوّجت وانتهى الأمر، ما بالك تلهث خلف سراب؟ ألم تر الفتيات بنات المعمّرين اللاّتي جئن حديثًا جمال ورقّة وعلم، هنّ فرنسيات هل تتركهنّ وتبحث عن سليلة هؤلاء المتخلّفين؟

حمي وطيس الحوار، واشتدّ غضب ليون وظلّ ثابتا مدافعا عن قصّة حبّه، وعن أمله في نهاية زواج خديجة لتكون له أخيرًا.

كان سامر يراقب العم الطاهر المنغمس في الاستماع إلى مقطع دولة الأمير ملاحظًا انفعالاته وحماسته، فعلم أنّه أعجب بما حقّق الأمير من انتصارات على الفرنسيين، فالشعوب المهزومة تبحث لها عن انتصارات؛ وإن بين دفّات التاريخ وليس على أرض الواقع.

فهل تتحوّل سير القادة العظماء إلى مسكّنات أو أفيون تتعاطاه الشعوب هروبًا من أحزان حاضرها المنكسر؟ قال سامرذلك وهو يهمّ بمغادرة مركز

البحوث ممسكًا بذراع العمّ الطاهر بعد أن أتعبه الجلوس على الكرسيّ، وفضّلا أن يتناقشا فيما يستعدّان للغداء بعيدًا عن الكتب والفصول والتاريخ.

ولمّا تهيّأت أطباق الكسكسي الشهيّ نظر العم الطاهر إلى سامر وعتاب بائن في عينيه.

فقال سامر: ما الأمر يا عمّي؟

أمسك العم الطاهر بالملعقة ودقّ بها الطبق دقّا خفيفًا؛ صنيع ما كان يعبّر به الطلبة عن غضبهم لرداءة الأكلة الجامعيّة ثمّ قال: ألم يكن حريّا بك أن تكمل قصّة ليون مع خديجة حتى يبدو عملك متسلسلًا، لقد شردت بي فصولك بين فرنسا والجزائر وهذه القصة العجيبة حتى صار تتبع الأحداث يرهقني.

ضحك سامر كما لم يضحك أبدًا وهو يردّ: أعتقد أنّ تركيزك قد انفلت بسبب قصّة العاشقين؛ لأنّ المراوحة بين الأمكنة والأزمنة كان منهجي منذ البداية.

كاد وجه العم الطاهر ينغمس في الطبق خجلًا وهو يهمهم بما لا يفهم ثم قال متجاوزًا: سامحك الله يا ابني، وهل لشيخ مثلي شغف بمثل هذه الحكايات؟ أنا أحدّثك عن المنهج ليس إلاّ.

لم يزد التبرير سامرًا غير مزيد من الضحك، وكان الغداء رائقا دسما وما هضمه غير الضحك.

وختم سامر: بعد القيلولة ستكون قصة العاشقين، فلا تبتئس.

فخيّم الصمت على عم الطاهر المشغول بورطته عن التفاعل.

المقطع التاسع:

اختراق المعسكر.

كان ليون ما إن يغادر متّيجة حتى يعود وشوق جارف يدفعه إليها؛ ففيها الحبيبة الأزليّة، وفيها مسعودة الزّنجية التي صارت في ناظريه أرقّ امرأة على وجه الأرض، فيبادر إلى سؤالها بعد كلّ عودة وقد أصبحت عنصرًا قارّا بمنزلهم، بعد أن منعها ليون من التسرّب إلى منازل الجميع كما كانت سابقًا، أراد الاحتفاظ بها لنفسه فهي معين من الأخبار لا ينضب، وهي التي أصبحت تهيّء له اللّقاءات مع خديجة.

لمّا عاد ليون روش من تافنة توجّه إلى مسعودة كعادته يستطلع الأخبار أو الرّسائل فألفاها حزينة باكية، وما إن رأته حتى هبّت إليه ودمع يكسو عينيها: «لقد أخذها، رحل بها ذاك الملعون..

فسأل ليون وفجيعة تعلو نبرة صوته: أفصحي عمّن تتحدّثين؟

قالت وقد بحّ صوتها من فرط النّحيب: ومن غير ابنتي خديجة؟ رحل بها زوجها إلى مليانة بعيدًا هناك في الغرب الجزائري، يا ويلي لن أراها مجدّدا.

صعق ليون للخبر وراح يسأل: لماذا فعل هذا؟

نظرت إليه مسعودة في شزر: بسبب ما بينكما، مثل هذه الأخبار لا تتخفّى.

وعادت للبكاء، وبقي ليون واجمًا لا يدري ماذا يصنع تجاه هذا الواقع الجديد؟

ولكنّها ظلّت تترجّاه حتى يتدخّل لدى الفرنسيين لتمكينها من اللّحاق بها، ولم تسكت إلاّ حين وعدها بذلك.

ظلّ ليون منذ رحيل خديجة إلى الغرب الجزائري كمن به مسّ من الجنون لم يحل له نوم ولا أكل، عاده الضّياع وتفشّى في نفسه اليأس حتى عنّت له فكرة راح يقلّبها على جميع الوجوه، ذكر شرطًا من شروط معاهدة تافنة يتمثّل في الاعتراف الفرنسي بسيادة الأمير عبد القادر على المناطق الغربيّة دون المدن السّاحليّة؛ مقابل السّماح للفرنسيين بالإقامة في مناطق سيطرة الأمير، وصاح ملء المكان: «وجدتها، وجدتها، هذا البند يخوّل لي الانضمام إلى معسكر حيث عاصمة الأمير، وأكون قريبا من مليانة حيث خديجة، وهي مناسبة كي أتّصل بالأمير، الرّجل أبهرني. وأسرّ في نفسه: «وأفيد وطني».

راح يتفقّد غرفة مسعودة الزنجيّة وهو يصفّق ويدندن أغاني فرنسيّة في الحبّ، فانزعجت مسعودة لحاله وهي تقول في نفسها: «لقد جنّ الشاب، وليس عليّ المزيد من البقاء هنا، سأغادر فجرًا إلى حيث لن يجدني. ما أدري ما يفعل بي، وماذا تملي عليه الخمرة؟

دخل ليون على مسعودة وهو في غاية السّرور وهي المشدوهة من تغيّر سلوكه تلك الليلة، بادرها قائلا: كم يلزمك من الوقت كي تحزمي أغراضك؟

فأجابت المسكينة مرعوبة: الآن لو أردت، كنت فكّرت أيضا في الرّحيل غدًا فجرًا؛ فلم يعد هناك سبب لبقائي، وبكت.

قهقه ليون قائلًا: سترحلين بالتأكيد، استعدّي، سنسافر سويّا إلى الغرب الجزائري، سألحقك بخديجة وأتوجّه إلى معسكر.

كادت مسعودة تنطّ سرورًا لولا ثقل جسدها، وقامت لتوّها تعدّ أغراضها وأغراض ليون الذي أمرها بألاّ تخبر أحدًا بما عزم عليه.

حلّ ليون بمعسكر في ديسمبر ١٨٣٧ بعد عامين بالضبط من حرق الجنرال كلوزيل للمدينة، غير أنّ إصرار الأمير عبد القادر على امتلاكها عاصمة لدولته جعله يبعثها من الرّماد؛ فالمدن المقاومة فيها إباء طيور الفينيق، كان الشتاء ذاك العام شديدًا، وكانت جبال بني شقران المشرفة على المدينة يكسوها بياض الثلج ما أضفى عليها وقار الحكماء، كانت الأحياء تكمّد جراحها وتنبئ عن وحشيّة الفاعلين الذين مرّوا من هناك، بيوت مهدّمة وأكوام من الرمال والأتربة والحجارة تنتشر هنا وهناك، في قلب المدينة تتراءى صومعة قائمة وقد خُسف شطرها بقذفة مدفعيّة حملت في جعبتها شُحنة من الحقد الدّيني الذي كان حاضرًا في كلّ ممارسات المستوطنين الفرنسيين.

كان ليون يجيل بصره، يبحث عن بني جلدته في هذه المدينة غير أنّها بدت خالية منهم، قد يكون توجّسهم من الأمير وجنده منعهم من وطئها ليس كغيرها من المدن التي اختلط فيها الفرنسيون بالجزائريين، وغيرهم من ملل أوروبيّة أخرى، لم يمرّ وقت كثير حتى ساقه أحد السكّان إلى مخيّم الأمير عبد القادر. رأى عن بعد خيمة كبيرة ترتفع عن بقيّة الخيام المحيطة بها؛ وحولها انتشر خلق كثير يرغبون في الدّخول على ما يبدو، وكان الحاجب يمنع أغلبهم هاشّا إيّاهم بعصا لا تفارقه، تقدّم ليون من الحاجب وخاطبه بعربيّة فصيحة قائلا: أنا ليون روش فرنسيّ، قدمت من الجزائر أريد مقابلة الأمير. فوسّع له الحاجب الطريق؛ ظنّا أنّه يحمل رسالة ينتظرها الأمير.

يقول ليون روش: «إنّه دخل ولم يتمكّن من رفع عينيه في وجه الأمير، وإنّه جلس على ركبتيه وقبّل يده قائلا «أنا الملازم ليون روش جئت أطلب السّماح لي بالانضمام إلى معسكركم، اعتنقت الإسلام منذ أمد، وتعلّمت العربيّة حتى أنّ أهل الجزائر قد أطلقوا عليّ اسم عمر عبد الله.

ويردف: «كنت تحت وطأة انبهار غير مبرّر فرضه عليّ هذا البطل المسلم، ولمّا رفعت عينيّ تجاهه رأيت عينيه الزرقاوين الجميلتين مُحاطتين بحاجبين سوداوين، يتوسّط الحاجبين وشم رقيق، كان عريض الجبين ذا أنف حادّ وشفتين رقيقتين، تنسدل من وجهه لحية سوداء سويّة، كان ذا سحنة بيضاء تميل إلى الشّحوب، له يدان بيضاوان وعضلات مفتولة، كان شابّا في مقتبل العمر من نفس جيلي تقريبًا، ذاك هو الأمير عبد القادر الذي جالسته في مفاوضات تافنة ولم تفارق صورته خيالي، واعتبرت أنّ ما يقوم به هو عمل نبيل، يهدف إلى صحوة شعبه وإحيائه وطرد العدوّ من وطنه.

فوجئ الأمير عبد القادر بدخول الفرنسيّ ليون روش عليه فحيّاه وراح يسائله: لماذا اعتنقت الإسلام يا ليون؟

أجاب دون كثيرمن التفكير: بسبب قيمه العليا.

سأل الأمير ليون عن جدوده وعائلته وأبيه الموجود بالجزائر، وأبدى بعد تحرّياته اقتناعًا بالإجابات، وعبّر له عن سعادته باستقباله، ووعده بتعليمه القرآن من قبل قاضي الخيمة.

انسحب ليون وفرح عارم يملأ كيانه.

تقلّب ليون كامل ليلته الأولى بالمخيّم إذ لم يتعوّد شظف الحياة، وظلّ مأخوذًا بلقائه مع الأمير، ولم يغب عن ذهنه التفكير في خديجة وقد أضحى

قريبا من مليانة حيث هرب بها زوجها من قصّة حبّهما، ومنّى النفس بزيارة لتلك المدينة حتى يطفئ لواعج قلبه.

كان الفجر بالمخيّم نشيطًا؛ حركة دؤوب وضجيج وكلام يخترق المسامع، وصهيل الخيول يملأ الفضاء، وثغاء المواشي ورغاء الإبل آت من بعيد، أطلّ ليون فإذا أمام المخيّم ساحة كبرى وكانت تعجّ بالمقاتلين وهم يتدرّبون على شتى طرق القتال والمبارزة، التفت صوب خيمة الأمير المواجهة لخيمته فألفاها كما تركها وقد تجمهر أمامها كوكبة من الرّجال الذين ينتظرون الإذن بالدّخول، والشاوش يهشّ هذا ويمنّي ذاك متعلّلًا بانشغال الأمير مع مساعديه، أحسّ ليون بنوع من الغربة وراح يسأل نفسه: «ما الذي رماني هنا؟ وأيّ الدّوافع أقوى؟ أهي مخالطة الأمير أم اللّحاق بحبيبتي خديجة؟ لقد التبس عليّ الأمر. وبينما كان غارقا في تفكيره المشوّش إذ بأحدهم يلج خيمته وهو يقول في أدب: «الأمير يدعوك لمجلسه، فلم يتأخّر ليون عن الاستجابة.

تواصلت اللّقاءات بين الأمير عبد القادر وليون روش وتعدّدت حتى صار هذا الأخير من خاصّته، يكتب رسائله ويترجم ما يرد عليه، فتقاسما الخيمة والملابس والأكل والصلوات والخيل وكلّ الأسرار. وفي أثناء ذلك كلّه ظلّ قلب ليون روش معلّقًا بحبيبته خديجة حتى كان يوم أن وضع الأمير برنامج زيارات المساعدين للجهات للتفقّد، نطّ ليون روش صائحًا: «أنا من سيتفقّد مصانع الأسلحة في مدينة مليانة بعد إذنكم..

شخص بعض المساعدين، وعبّر أحدهم:إنّها مهمّة سريّة تستدعي معرفة بالمدينة.

لم ينه المتدخّل كلامه حتى قال الأمير: لا بأس طالما أبدى الأخ عمر عبد الله هذه الحماسة، سنرسل معه من يعينه على المهمّة.

علّق العم الطاهر مستغربًا: يا لليون روش هذا، كم هو مغامر وجريء، من يقدر على دخول عرين الأسد؟ وأيّ لباقة وقدرة على الإقناع يمتلك؟ أعتقد أنّ الأمير عبد القادر اغترّ بحديثه، فهؤلاء المحتلّون يمارسون كلّ الخبائث للتغلغل في البلدان التي صمّموا على احتلالها، وكم وظفوا من جواسيس، وسيّاح، ومدّعين للبحث والاستكشاف، وعلماء الأنثروبولوجيا؛ لتسهل عمليّة السيطرة من الدّاخل من النفوس واللاّوعي...

أكد سامر: كلّ ذلك دُرس وخطط له منذ عقود وقبل التنفيذ، غير أنّ اندفاع ليون كان يمكن أن يكلّفه رأسه، وستفاجأ بما صنع في مليانة.

انتفض العم الطاهر من مكانه وهو يتوكّأ على عصاه: دعنا اليوم إلى جولة في أسوار المدينة، فقد اشتقت للبحر الأزرق البعيد وأمواجه المتفضة المنكسرة عند مداخل الميناء العتيق، فقد سئمت القعود طوال هذا الشتاء القاسي، أريد أن أرى بشائر ربيع سيأتي، وأرمق خفقات السنونو المبشرة بالدفء، فقد يكون آخر موعد لي مع ذاك السحر الربيعي في بنزرت، فقد كلّ العمر واستعدّ الجسد للرّحيل، وتناثرت منه دموع ضعيفة داراها بالتهيؤ للخروج وهو يردف: «على الأسوار احكِ لي عن هذا الروش ومغامرة مليانة، يروقني كلامك المباشر.

المقطع العاشر:
مغامرة مليانة.

كانت رحلة ليون روش ومساعديه إلى مدينة مليانة في أواخر فصل الرّبيع؛ ولكنّ الجوّ كان متقلّبًا بين أمطار خفيفة وشمس مخاتلة تفاجئ الجماعة من حين لآخر، فتشرق من حولهم روعة الطبيعة وهم يشقّون الغابات السّاحرة حيث الينابيع المتدفّقة، والأودية الرقراقة التي استقبلتهم قبل ولوجهم مليانة المدينة النّائمة بين الأحضان الجنوبيّة لجبل زكار الشاهق، ظلّ أحد مرافقي ليون في الطريق يسرد له خصائص المدينة فهي قديمة ضاربة في عمق التاريخ، تتبع بايلك الغرب على العهد العثماني يستوطنها عرشًا ريغة وبني مناصر الأمازيغيّان، ويتحمّس: «أتدري أنّ بني مناصر سُمّوا هكذا لأنّهم أوّل من ناصر الإسلام، وأنّ جبل زكار يعجّ بالمرابطين في زواياهم؟ هذه المدينة كانت ملجأ للفارّين من الأندلس وقد استوطنوا بها وعمّروا البيوت على طرز لم نألفها، لهم ألبسة تميّزهم ومآكل لم نتعوّدها، أقول هذا يا ليون لأنّني أصيل المدينة، ولم أغادرها إلاّ استجابة للأمير عبد القادر عندما دعانا لجهاد الفرنسيين.

كان بال ليون روش مشغولًا، وما همّه في مليانة قبل أن تطأها الحبيبة، كان يفكّر كيف يراها ويبثّها أشواقه؛ وهو الذي لم يتمكّن من ذلك يوم أوصل مسعودة الزنجيّة، فكيف به اليوم وهذان المرافقان يحيطان به كحارسيْن وفيّين لا يبرحانه؟

قال أحد المرافقين: ندخل المدينة عند الغروب خوف عيون الفرنسيين فقد يكشفون مخابئ الأسلحة.

وسرعان ما بنى ليون روش على مقترح المرافق وهو يقول: الأفضل أن ندخل متفرّقين، وأن ننفّذ ما جئنا من أجله كلّ على حدة

انفصل ثلاثتهم بعد أن أحسن المرافقان توجيه ليون إلى الأماكن التي عليه تفقّدها وكان يحمل رسالة تفويض من الأمير عبد القادر، واتفقوا على أن يلتقوا بعد يومين في جامع المدينة عند صلاة العشاء؛ للعودة إلى معسكر فجرًا.

عند الغروب وكانت الشمس تتخفّى في خفر خلف جبل زكار، والمدينة في أبهى حلّة تحيطها الغابات والخضرة من كلّ صوب، وكان ليون روش يحثّ فرسه بعد أن تحرّر من المرافقين وغبطة تسري في قلبه فيزداد نشاطًا رغم تعب السّفر، فكّر في تخصيص اليوم الأوّل لتفقّد مصانع الأسلحة، وأن يكون اليوم الثاني لخديجة هوى الرّوح ومجرى دمه في العروق.

استقبل القائمون على مصانع الأسلحة ليون روش بكلّ حفاوة وقد سمعوا عنه ورآه بعضهم في مجالس الأمير عبد القادر ومهّدوا له سبيل الزّيارة، ظل ليون يلفّ ردهات المصانع ويقف على كلّ كبيرة وصغيرة، لم يترك بابًا لم يطلب فتحه، ولا ركنا أو سردابا إلاّ وجاس فيه، وحين غادر المكان كان بحوزته وثائق وخرائط وبوصلة، كما استحوذ خلسة على خاتم الأمير دون أن ينتبه القائمون على المصانع بصنيعه.

خرج من المصانع إلى حيث يأوي وهو يدندن أغانيه الفرنسيّة المحبّذة مردّدًا: «اليوم تجسّس وغدا حبّ، كيف ستمرّ ليلتي هذه دون أن أراك خديجة؟ بل كيف سيتسنّى لي لقياك وقد ضرب زوجك على بيتك رقابة كما بلغني؟ يصمت ثمّ يعود لمخاطبة نفسه: «بلى سأراك فلا حواجز أمام المحبّين، أرواحهم تتناجى في العلا وتستجيب الأجساد في العالم السفليّ دون سابق ترتيب.

كانت ليلة ليون روش أضغاث أحلام ونوم متقطّع؛ فعنّت له فكرة شيطانيّة زيّنها له الشوق وحبّ المغامرة، فعزم على تسلّق جدار بيت خديجة وقد بات يعرفه ويعرف أين تقيم الزنجيّة مسعودة دون انتظار بزوغ الصّباح، قال في نفسه يطمئنها: « سأنطّ عند بيت مسعودة المستقلّ في الحديقة وأجعلها تدعو خديجة لموافاتنا، ليس أمامي الوقت أو الصبر.

وما إن نطّ ليون من على سور البيت حتى تحرّك نحوه حارس ليلي وهو يصرخ: «سارق، سارق»، وأمسك بتلابيبه ولم يطلق سراحه إلاّ بحضور صاحب البيت، وما إن رآه حتى صرخ في وجهه وشرر كاللّهيب يتطاير من عينيه: «هذا أنت أيّها الوقح، تلاحقنا حيث أقمنا، سأسفك دمك الليلة، وهمّ به لولا صراخ خديجة وعويلها وهي تترجّاه ألاّ يفعل: «اتركه أرجوك، ربّما جاء لزيارة مسعودة، وتسوّر الحائط خوفًا من بطشك... اتركه لن يسكت الفرنسيون لو قتلته سيقتلوننا جميعا...

حينها وجد ليون روش الجرأة ليؤكد قول خديجة ويمرّ لتهديد زوجها صارخًا: «اشتقت إلى مسعودة جئت لأراها» فما كان من صاحب البيت سوى الإذعان؛ خوفًا من بطش الفرنسيين، وتفشّي الفضيحة في مليانة المدينة الصغيرة التي تنتشر فيها الأخبار بسرعة، وخاصّة أنّها تعجّ بالسكّان الموريسكيين الذين ينتمي إليهم هو وخديجة، وأنّ حزازات كثيرة قائمة بين السكّان الأصليين والوافدين من الأندلس الذين يعيّرون أبدا بقلّة تديّنهم أو تنصّرهم المتخفّي... وهو التاجر المرموق لا يريد أن تحوم حول بيته الشبهات.

التفت عارف القادسي زوج خديجة نحو ليون روش وهو يقول له: سأطلق سراحك أيّها الوغد الليلة، ولكنّي سأنتقم لما فعلته بي، قد تكونون

أيّها الفرنسيون استطعتم أن تحتلّوا بلادنا، ولكنّكم لن تدوسوا على شرفنا أيضا، وسننتصر عليكم يومًا ما ونطردكم شرّ طرد.

تنفّست خديجة الصعداء وهي تنظر جهة ليون الذي كان منكّس الرأس مخزيّا يعاتب نفسه المتسرّعة المتهافتة وهمّ بالمغادرة دون كلمة.

لمّا وصل ليون روش إلى الجامع قبيل الفجر ألفى المرافقين يستعدان لآداء الصلاة؛ فحثّهما على الرّحيل دون مزيد من الانتظار.

قال له أحدهم: اتفقنا على قضاء يومين، ما الذي جرى حتى نستعجل الرّحيل؟ المدينة جميلة يمكننا التجوال بها غدا، وقد أدّينا مهامنا...

غير أنّ ليون كان حازمًا وهو يقول: سنسافر الآن.

ارتاب المرافقان في أمره وهيأته خاصّة أنّه ورد الجامع على غير ما اتفقوا، ولكنّهما لم يجرآ على سؤاله وأذعنا لأوامره.

قضّى ليون طريق العودة في صمت حزين حتى بلغوا المعسكر. وقبل أن يبادر للقاء الأمير أخفى في خيمته ما استحوذ عليه خلسة من مليانة.

لمّا دخل ليون روش على الأمير وجده يستشيط غضبًا وهو يتناقش مع مساعديه؛ فأسقط في يديه ظنّا منه أنّ المرافقيْن قد نقلا له معلومات أو شكوكهما حوله، فبقي صامتا في انتظار ما سيؤول إليه الأمر، غير أنّه أخذ يشعر بالطمأنينة لمّا علم أنّ موضوع النّقاش كان حول امتناع ثوّار وادي الزيتون عن دفع المجبى، وأنّ شيخ التيجانيّة ما انفكّ يحرّض على الأمير، ويكشف للفرنسيين عن تنقّلاته وعن طرق جمع المال وعن أسماء القبائل الداعمة له.

قال الأمير وقد اتخذ القرار بتأديب كلّ من يعيق المقاومة: نتجهّز لمعارك خاطفة وإن لزم الأمر حصارًا فليكن.

مضى أسبوع الاستعدادات للمعارك الدّاخليّة التي لم ينفكّ الأمير عن القيام بها، وكان ليون روش منذ عودته من مليانة في وضع نفسيّ صعب ما استرعى انتباه الأمير ودعاه لمسارّته، فلم يلبث ليون أن انهار وهو يكشف عن قصّة حبّه الأسطوري لخديجة، وكيف أنّه لم يتمكّن من نسيانها رغم زواجها..

قال الأمير بعد أن أبدى تعاطفه مع ليون: طالما أنّ الفتاة قد تزوّجت فلا حقّ لك فيها، وكلّ سلوك منك أو منها ينبئ بتواصل ما بينكما هو مخالف لتعاليم ديننا، وأنت مسلم يا عمر، كن قويّا وتغلّب على هواك، وإنّي سأسعى إلى تزويجك من أجمل فتاة عندنا قبل أن نباشر أيّ معركة، ونادى من توّه في أحد المساعدين للتكفّل بالأمر.

كان شعور الصدمة قويّا على ليون، وكانت سرعة التنفيذ مربكة ولم تترك له مجال النّقاش أو الرّفض، وما بين ليلة وضحاها يجد نفسه مقبلًا على زيجة لا يعرف أوّلها من آخرها.

لّما كشف النّقاب عن عروسه بالخيمة فوجئ بجمالها الأصيل، ولكنّه سرعان ما انكفأ في ركن من أركان الخيمة تتلبّسه صورة خديجة دون سواها، ومضت حياته الجديدة رتيبة، ساكنة، بلا مشاعر، مكتفية بمحاولات تجفيف الذّاكرة دون قدرة على ذلك، حتى علم بقرب الاشتباك مع ثوّار وادي الزيتون الرّافضين لآداء المجبى فألحّ أن يكون ضمن المقاتلين.

كانت معركة حامية الوطيس؛ فقد استطاع الثوّار التحصّن بالجبل ونصب الكمائن لمقاتلي الأمير عبد القادر، وتمكّنوا رغم قلّة عددهم من أن يلحقوا الهزيمة بعناصر الأمير الذين فاقوا الألف والخمسمائة من الجنود والثلاث مائة فارس من نخبة المخيّم مقابل الثلاث مائة جبلي الذين ثبتوا وهزموا جيشا مدرّبا.

وأمام هذه الخسارة غير المحسوبة انسحب ليون روش منكسرًا، وقد بدأ ينظر للأمير بنوع من الرّيبة؛ فقد رآه ماضيا في الاستعداد للحرب، وأنّه لن يتخلف كثيرا عن إعادة إشعالها مجدّدا ضدّ مناوئيه ومع الفرنسيين، وذاك مأزق لا يريد الوقوع فيه، وهو الذي كان ينوي التأثير على الأمير بترك الحرب والقبول بالأمر الواقع، فكثيرًا ما كان يردّد: «الجمع بين الجزائر المسلمة وفرنسا المسيحيّة أمر ممكن» وهو الذي هاجر خلف امرأة يصيبها بعد أن يوظّف كلّ ما عنده من نفوذ لتطليقها من زوجها؛ يجد نفسه مجنّدًا في جيش الأمير.

لم يمض على معركة وادي الزيتون سوى بضعة أيّام حتى طلب ليون من الأمير السّفر إلى تلمسان لمتابعة تعليمه الدّيني كما هو متّفق عليه من قبل، فلم يتأخّر الأمير عن الاستجابة، إلاّ أنّه أبلغ خليفة تلمسان مصطفى بن التوهامي بأن يظلّ ليون روش تحت رقابته.

قطع ليون روش مئات الكيلومترات قبل أن يشرف على مزارع الكروم والزيتون التي تحيط بمدينة تلمسان، مدينة الينابيع كما كانت تسمّى، فتراءت وكأنّها تسبح في بحر أخضر مترامي الأطراف، بدت المدينة لليون ذات ماض وعراقة من خلال مبانيها الفنّية الرّائعة وجدارها الناهض في قلبها كحارس أسطوريّ.

سرعان ما بدأ يألف الحياة في تلمسان بعيدًا عن بداوة معسكر، والمديّة، وضغوط الحرب، والاشتباك المتواصل، وتلك الزوجة التي لم يولها أيّ حبّ، وقد استطاع أن يزجي وحدته بقدوم صديقه الألماني «إيزيدور».

قال إيزيدور مخاطبا ليون وقد لاحظ تبرّمه المتواصل من حضور الدروس الدينيّة: لماذا ترغم نفسك على ما لست مقتنعًا به؟ ماذا لو فررنا إلى الجزائر وقطعت صلتك بالأمير عبد القادر؟ إن كانت الحبيبة ميؤوسا من وصالها بعد أن حكيت لي ما وقع لك آخر مرّة... تعال نغادر تلمسان،

فلن يكون لهؤلاء سلطة علينا، ونعيش بذخ الجزائر فقد غدت تعجّ بفتيات أوروبا الفاتنات، ما الذي يشدّك لهؤلاء الأجلاف، ألا تحنّ لأبيك وقد توسّل إليك الرّجوع كم مرّة؟

وظلّ إيزيدور يزيّن الأمر لليون حتى اقتنع وبدأ الاستعداد لمغادرة المدينة خلسة في ليلة مقمرة؛ غير أنّ كوكبة من الفرسان لاحقتهما وأرجعا إلى تلمسان، وبعد أن أصبح أمر ليون مستراباً كتب الخليفة للأمير عبد القادر رسالة ذكر فيها: «إنّ تحرّياتنا تذهب إلى أنّ ليون جاسوس مرسل من الفرنسيين؛ لكشف أسرار المقاومة ومصادر تمويلكم، بل إنّ بعض مخبرينا يعتقدون أنّ ليون مكلّف باغتيالكم لا قدّر الله لو اتقدت نار المعارك مجدّدًا وخُرقت معاهدة تافنة.

في تلمسان، وحين اشتدّ الخناق على ليون وعلم أنّه مراقب ولن يفلت، قرّر العودة إلى معسكر مصطحبًا معه صديقه إيزيدور، وقبل دخوله على الأمير قال للشاوش: خبّر الأمير بأنّ عمر ولد روش جاء من تلمسان ويطلب مقابلتك، وما إن سُمح له بالدّخول حتى بادر ليون الأمير بالقول مصطنعا الحزن: «من أجلك أنت أيّها الأمير بن محي الدين تركت وطني وعائلتي وحياتي المرفّهة، بعد أن انبهرت بشجاعتك وفضائلك ونبلك، جئت أعرض عليك خدماتي دون أيّ خلفيات، ولكنّ مناصريك هناك ظلّوا يراقبونني ويعاملونني مثل جاسوس، وقد تكون أنت نفسك صدّقت الأمر، أهذا هو الاستقبال الذي يليق بمسيحيّ ترك بكلّ حريّة دينه ليعتنق الإسلام، جئت أعرض خدماتي وأعينك على ما تطمح إليه من إيقاظ لأمّتك وبعث لدينك.

خمس دقائق من المرافعة المؤثّرة من طالب الحقوق السّابق كانت كفيلة بإقناع الأمير الذي سرعان ما تصالح مع ليون وزاد في تقريبه، وأصبح كاتبه الخاصّ

بعد أن زكّى أحد القضاة كلام ليون روش وأكّد معرفته به وبصدق إسلامه منذ كان بالجزائر، وكان الأمير بكلّ طيبة يردّد: «الإسلام يجبّ ما قبله».

مرّ شهران ونُسيت حكاية ليون في تلمسان، بينما الأمير عبد القادر مشغول ببسط نفوذه على كامل التراب الجزائريّ، وكانت الاستعدادات حثيثة للقيام بحملة على زاوية سيدي محمّد التيجاني وأتباعه الذين لم يقبلوا بسلطة الأمير عبد القادر مطلقًا ووقفوا ضدّ كلّ آماله بتوحيد البلاد، وكان لهم العديد من المريدين الذين يسهل تجييشهم وقد فعلوا.

خرج الأمير عبد القادر في جيش عرمرم، حسن العدّة والعتاد باتجاه عين ماضي وموطن واحات محمد التيجاني وأتباعه، وحوصرت المدينة لزمن طويل قبل أن تنهار وتسقط. وجاء المخبرون يزفّون الخبر للأمير فتهلّل وجهه بشرًا وهو يقول: «من عادى المقاومة والجهاد خائن، ومن خدم مصالح الغزاة خائن، دمّروا هذه المدينة اللّعينة حتى يكون أهلها من أتباع التيجانيّة عبرة لكلّ خارج عن سلطتنا، نحن لم نسع للسلطة، بل جاءت تطلبنا وقد بايعتمونا؛ وبناءً على ذلك فإنّ الخروج عن الجماعة بدعة، وهؤلاء أصحاب بدع وجب محاسبتهم.

وما أن انتهت سنة ١٨٣٨ حتى احترقت المدينة وأصبحت شظايا. وحين دخلت فرق من الجيش المنتصر للوقوف عند دفاعاتها التي صمدت ما يزيد عن أربعة أشهر؛ رأى ليون فظاعة الدّمار الحاصل، وشؤم الحرب، الأشلاء منتشرة في كلّ مكان ورائحة الحرائق المؤذية، البناءات محترقة ومدمّرة، وأصوات الجرحى تنبعث من تحت الأنقاض، كان يسجّل في ذهنه كلّ المشاهد والتفاصيل حتى يتمكّن من توظيفها مستقبلًا، وبينما هو يتنقّل في زقاق تطاير رمله ممتزجا بالأدخنة؛ إذا به يلمح وجهًا معفّرًا

ولكنّه مألوف لامرأة ضخمة الجثّة تجري هاربة نحو أحد أبواب المدينة التي تركت كممرّ آمن للمدنيين والمسالمين، قفا خطوها حتى سبقها ولمّا تفحّص مليّا وجهها صرخ بأعلى صوته: «مسعودة، مسعودة» وإذا بها تلتفت إليه مرعوبة ودماء قد غطت عن الدموع وسواد الدخان قد غطى عن لونها الأسمر، ووقعت عند رجلي ليون تستعطفه.

حضن ليون مسعودة وسؤال حارق لم يبرح حنجرته قبل أن تنفلت مسعودة عاوية: «راحت خديجة، ماتت خديجة، ألقيت في النّيران خديجة وكانت تصرخ؛ لا حياة لي بعدك يا ليون» وأردفت مسعودة: «كان زوج خديجة قد عزم على التسلّل خارج المدينة أيّام حصاركم لها، ولكنّها رفضت وقالت لي: «قد يكون ليون مع محاربي الأمير وقد تمكنني رؤيته، يا ليتنا خرجنا لما أحرقت خديجة وحرقت قلبي معها».

صاح ليون بمسعودة: لقد تركتكم في مليانة ما الذي جاء بكم إلى هنا؟

قالت مسعودة وهي ترتجف: عنّت لزوج خديجة تجارة مجزية كما ظلّ يردّد، قال: إنّه بصدد نقل أسلحة إلى هذه الواحات، وما أدراني غير أنّه عزم على أن ترافقه خديجة خوفًا من عودتك أنت إلى مليانة للانتقام... وهذا الذي حصل من وراء لهفته على المال، ها أنّه قضى على نفسه وعلى ابنتي خديجة معه، وعادت تنتحب.

لم يصدّق ليون ما روت مسعودة، ظنّ أنّها متأثرة بما وقع، ولكنّ الواقع المرّ تكشّف له لمّا رأى جثة خديجة المتفحّمة فانهار حذوها وبقي مصدوما لا بكاء ولا عويل، ولمّا عادوا به إلى المخيّم أكّد جميعهم أنّ الصدمة أبكمته وأنّ حالته صعبة، فيما ظلّ الأمير عبد القادر مشغولًا عنه بأخبار وردته عن تحرّكات

فرنسيّة وعن خرق ممكن لاتفاقيّة «تافنة» فلم يهتمّ كثيرا بليون قائلًا لمساعديه: «لمّا يعود إليه رشده أعلموني، أريد إرسال رسائل إلى ملك فرنسا مباشرة».

استفاق المخيّم بعد يومين من معركة عين ماضي على هرج بالخارج حين أقبل أحد الحرّاس مناديًا: «تعالوا معي لتخليص ليون روش من حبل أداره حول عنقه ويهمّ بإلقاء نفسه من أعلى الشجرة، فهرع الحرّاس لإيقاف التنفيذ حيث كان ليون على عادة سرت في القرن التاسع عشر يريد تمثيل دور العاشق المنتحر الذي لا يريد أن يعيش بعد وفاة معشوقته، وما إن سمع الأمير حتى هبّ لمسرح الحدث ووظف قدراته القيادية في إقناع ليون عن التراجع، ونجح في إنزاله والإختلاء به في خيمته.

بادر الأمير بالقول: أريدك أن تكون أكثر عقلانيّة يا عمر وأن يعمّر الإيمان قلبك فخديجة لم تكن لك، وموتها قضاء؛ وأنت بدخولك الإسلام آمنت بأحد أهمّ أركانه وهو القضاء والقدر، ثب إليّ يا عمر فأنا أحتاجك لتحبّر لي رسائل إلى ملك فرنسا، وقد بلغني أنّ الفرنسيين قد يغدرون بنا مثلما وقع في معاهدة دي ميشال؛ ولذلك عزمت على الاستعداد للقتال وعليّ توجيه رسائل فيها من التحدّي ومن العزم حتى يعلم الفرنسيون أنّنا لن نصمت على استرجاع وطننا كلّفنا ما كلّفنا من الأرواح والعتاد، وأنت يا عمر كنت منذ مدّة في مليانة، ورأيت أنّنا لم نركن للرّاحة، وظلّت الحرب هدفًا قائمًا لدينا.

وأردف: لم نكن لنهاجم التيجانيّة لولا أنّ الفرنسيين هم من وظّفوهم ضدّنا، فلماذا لا تتحمّس لقتال من كانوا سببًا في مقتل خديجة وغيرها؟ هؤلاء الفرنسيون يحرصون على أن نظلّ مفكّكين يضرب أحدنا الآخر؛ فنضعف ويمكنهم السيطرة علينا كما فعلوا مع التيجانية، سمعت أنّهم

يقومون بتسليحهم لمهاجمتنا فيقومون بحرب الوكالة عنهم؛ لذلك بادرت بقتالهم ولست مقتنعا بحرب المسلم للمسلم إلاّ إذا كان أحدهم يستعين بالعدوّ ضدّ مصلحة الوطن.

كان ليون يستمع لتحليل الأمير وهو يستبطن نواياه في استئناف الحرب التي لا يؤمن بها ليون روش ولا يريدها، وكان كلّما ذكر الأمير عبد القادر الحرب وضرورة الاستعداد لها؛ تجهّم ليون وانقبضت أساريره حتى قال له الأمير في إحدى نقاشاتهما: لماذا تعلو وجهك سحنة من الحزن، كان يجب أن تسعد بفرصة الجهاد في سبيل الله حتى تعمّق عقيدتك بمحاربة العدوّ.

فأجاب ليون روش: لقد قلت لك مرارًا أنّي أكره الحرب لأنّها ستدمّر شعبي وشعبك، وأنا ممزّق حين أجد نفسي معكم لأحارب أبناء فرنسا الوطن الذي أطعمني ويحمي أبي.

فقال الأمير مصدومًا: هل تتحدّث عن إخوتك الفرنسيين وعن وطنك فرنسا؟ أنسيت أنّه منذ اعتناقك لديننا الإسلامي قد قطعت مع الرّوابط التي تربطك بالعدوّ؟ أنت الآن تتحدّث كمسيحيّ وليس كمسلم، ألست مقتنعا بأنّ فرنسا هي من اعتدى علينا وجاءتنا من وراء البحار لغزونا والاستيطان في أراضينا وطردنا وقتلنا؟ أي منطق معوجّ هذا الذي يجعلك تتعاطف مع الظلمة بعد أن اعتقدنا في إخلاص نيّتك لنا، وساررناك وأطلعناك على كلّ صغيرة وكبيرة...الإسلام يحتّم عليك الوقوف معنا لعدالة قضيّتنا، ألست مسلما؟

فعلا صوت ليون وهو يقول: نعم لست مسلمًا، لست مسلمًا...

فتجهّم وجه الأمير، وارتعش شاربه، ورفع يديه للسّماء وهو يزمجر: هذا لعب بالدّين، هذا عبث.

انكفأ ليون على نفسه معتقدا أنّها ليلته الأخيرة في هذا الوجود، ولكنّ الأمير اكتفى بطرده من معسكر، فأخذ ليون طريقه مع صديقه إيزيدور إلى وهران حيث وصل بداية نوفمبر ١٨٣٩ أين اقتيد مباشرة للقيادة الأمنية العليا.

كان العم الطاهر يستمع لمغامرة مليانة وعلى قسماته ألوان من الاستغراب والأسف، ولم يطق صبرًا حين تمادى وصف معركة الأمير في عين ماضي ضدّ التيجانية فصرخ بصوت أبحّ يهزّه الغضب: كيف لهؤلاء المتصوّفة أن يناصروا فرنسا المحتلّة الآثمة على الأمير المجاهد عبد القادر؟ أيقبلون ذلاّ وهم الأعلون وأصحاب الأرض؟ وما حكم قتال المسلم للمسلم؟ أليس هذا من العظائم يا سامر؟ وددت أنّي لم أسمع بهذا، أو هو مجرّد افتراء على التاريخ؟

ولمّا لاحظ سامر تشنّج العم الطاهر – وهو الواقع تحت داءين مزمنين ما فتئا ينخران عمره نخرًا – قال مخفّفًا: لم يكن التقاتل بين أبناء الوطن أو الدين حكرًا على ما سمعت، فتاريخنا أحمر قانٍ منذ اندلاع الفتنة الكبرى، ولم تنج أمّة من هذا الويل إلاّ تلك التي ازدهرت لاحتكامها للعدل والحرية.

فقاطعه العم الطاهر غير مقتنع: ولكن يا ابني، هذا عدوّ خارجي جاء يحتلّ الأرض وينتهك العرض، فلا وجود لأيّ مبرّر لنصرته.

فردّ سامر: لولا الخيانات الداخليّة لما نجح عدوّ خارجيّ في الانتصار، ننتظر أن نستوعب معنى: نموت نموت ويحيا الوطن.

انتصرت فرنسا حينها واحتلّت الجزائر رغم قلاقلها الدّاخليّة وثوراتها النّاهضة على أنقاض بعضها البعض؛ ولكن من أجل إعلاء قيمة الإنسان عندهم.

المقطع الحادي عشر:

المنعرج

ما بين ثورة الجمهورية في فرنسا ١٨٣٠ وثورة ١٨٤٨ اعتلى لويس فيليب الأوّل عرش فرنسا وأصبح ملك الفرنسيين، ولم تبرح البلاد في تمزّق بين فئات متنافسة من ملكيّة قديمة وجديدة إلى جمهوريين وبونابارتيين، ورغم أنّ الملك لويس فيليب أراد أن يكون ملكًا لكلّ الفرنسيين؛ غير أنّ ذلك لم يضع حدّا للقلاقل التي ظلّت تهزّ البلاد التي شهدت طفرة سكّانيّة عارمة، ورغم بروز الوسائل العصريّة من سكك حديدية، وبواخر، ومحرّكات بخاريّة، ومصانع منتجة؛ فإنّ انتشار المجاعة، والبطالة، والأزمات المالية المتتالية لم يسمح للمجتمع الفرنسي بالاستقرار، فسعْي التنويريين كان دؤوبًا لنشر قيم الحريّة والتسامح والإنسانية والمساواة، ولم يبخل الأدباء والفلاسفة على الدفع نحو حراك فكري وسياسي هائل؛ فعلا صوت فكتور هوجو صادحًا في البرلمان الفرنسيّ، وكتب ستاندال روائعه الروائيّة، وأضحت لوحة دي لاكروا «الحرّية تقود الشعب» مصدر اعتزاز الفرنسيين، كلّ هذه الظروف الضاغطة جعلت الملك لويس فيليب يحاول تصدير التفاعلات والأزمات الدّاخليّة خارج فرنسا؛ لإلهاء الرّأي العام ولمزيد من الاستنزاف وإشباع نهم الفرنسيين؛ فكان التوجّه للمستعمرات تاركين قيم التنوير على حدود فرنسا، حاملين معهم فقط كلّ مظاهر الاستبداد والعنف واستغلال المستعمرات، فدفع الملك باتجاه نقض معاهدة التافنة مع الأمير عبد القادر قصد الاستحواذ المطلق على التراب الجزائريّ، فأمر باحتلال «قسنطينة» وخرق المارشال «فالي» أراض تابعة للمجال الحيوي للأمير، واحتلّ الطابور الفرنسي «البرج التركي القدِّيم» في

«البويرة» وغيرها من المواقع، وفي المقابل كان الأمير عبد القادر قد توقّع مثل هذه الخروقات والنّكوص على المعاهدات؛ فنادى في مساعديه فور التأكّد من صنيع الفرنسيين قائلا لهم: اليوم نرسل إعلان الحرب إلى الحاكم العام المارشال فالي ونبعث برسلنا إلى خلفاء «مليانة، والمديّة، ومنطقة القبائل» ليبدأوا في نفس اليوم تحرّكهم نحو «متّيجة» بعد أن تمكّنا في فترة الهدنة من بناء جيش قويّ مسلّح، أدعوكم للنّفير العام لصدّ عدوان المحتلّين.

لّما أعْطيت إشارات بداية الهجوم بإشعال النّيران في هذه المناطق؛ وقع اكتساح سهول متيجة الغنية فتحوّلت إلى صحراء محروقة، واشتعل القتال بين قوات الأمير عبد القادر والقوات الفرنسيّة على أكثر من جبهة، وتتالت المعارك والوقائع في شكل تصاعديّ خاصّة من قبل فرنسا الأقوى عدة وعتادًا، ولم تتورّع عن ممارسة أبشع صور القتل الجماعي، وحرق المحاصيل، ومصادرة أراضي المجاهدين، وتجريد القبائل من أرزاقها، وكان الجنرال «بيجو» يكرّر على مقاتليه شعارًا ظلّ السّمة المميّزة لوحشيّة المحتلّ في قوله: «ليست مهمّتكم أن تجروا وراء العرب وإنّما أن تمنعوهم أن يبذروا أو يحصدوا أو يرعوا» إنّها التجسيد العمليّ لسياسة الأرض.

المحروقة قصد عزل المقاومة الشعبيّة وتفكيك تضامن الجزائريين من حولها.

قال بيجو لمساعديه وهم يتناقشون حول أجدى الخطط القاضية على مقاومة الأمير عبد القادر وجيشه: لا بدّ من حلول جذريّة تجعل هذه المقاومة منبتّة لا حاضنة شعبيّة لها، وأرى أن نستعين أكثر ما يمكن بهؤلاء الزّعماء من الجزائريين الذين أخذوا يبدون تململهم من المقاومة الشعبيّة التي تعتمد على إخلاء المدن وقتما يطلب منهم الأمير عبد القادر ذلك...وأعتقد أنّ إسقاطنا لعاصمته المتنقّلة هذه الطريقة الجهنّميّة التي لجأ إليها؛ يجب أن يكون من أولوياتنا.

لم يتأخّر ليون روش وقد أصبح من المستشارين الذين يعوّل عليهم بيجو بحكم وجوده طوال عامين في مخيّمات الأمير عبد القادر واطلاعه على كلّ صغيرة وكبيرة على القول واثقا: إنّنا نبلي جيّدا على الميدان سيّدي، ولكنّ هناك عمل آخر جوهريّ كفيل بنسف المقاومة من جذورها وتضييق الخناق عليها من قبل الجزائريين أنفسهم، لا بدّ من استغلال العامل الديني وتوظيف فعّال للزوايا المناوئة للأمير، وقد سبق وأمددتكم بأسماء القبائل المناهضة لبيعة عبد القادر مرفقة بالأعمال التي ينوي القيام بها ضدّنا، وطالما نملك المعلومة فبديهي أن نملك الميدان سيّدي.

فردّ بيجو: نجدّد لك شكرنا يا ليون على العمل الاستخباراتي الجبّار الذي قمت به لصالح أمّنا فرنسا؛ لمّا غامرت بحياتك في مخيّم عبد القادر... ولكنّ أهل الجزائر لم يصدّقوا تلك الرّسالة التي وضعت عليها ختم الأمير على أساس أنّه يدعوهم للنّزوع لمسالمة الفرنسيين والكفّ عن القتال؛ وهو ما انفكّ يمتطي صهوة جواده، ويقطع الفيافي، ويصعد الجبال مقاتلا شرسا، أتعتقد أنّ الزوايا كلّها ستقف ضدّه؟

وأردف: «الجوسسة وجمع معلومات عن السكّان والوقوف على خلافات القبائل لإشعال الفتن بينها أمر مهمّ لجيشنا بالتأكيد، ولكن توسيع الاحتلال يجب أن يتمّ بتوزيع الأراضي على المعمّرين، عليكم أن تكونوا جميعكم جنودًا وفلاّحين، البندقيّة بيد والمحراث بالأخرى؛ إذ لا شيء يجذّر الإنسان في الأرض ويصبح مدافعًا شرسًا عنها مثل حرثها وزرعها ورؤية أشجارها ونبتها ينمو وانتظار ثمرها ينضج، وعلا صوته يسأل أحد الضبّاط الذي كلّف بجلب الثيران والأبقار والحمير وشتلات التوت والزيتون من إسبانيا لتوزيعها على معمّري وهران، ولم يطمئنّ إلاّ حين علم بقرب وصول السّفن المحمّلة بالمطلوب، وصرخ بأعلى صوته: «لا أريد لبنادقكم أن تصدأ إذا كنتم تبحثون عن الاستقرار على هذه الأرض وامتلاكها.

استأذن ليون روش ليقول: الاستيطان يقف على دعائم ثابتة القوّة، التجذّر في الأرض، وتوفّر المعلومة عن العدوّ سيّدي، وأبحاثنا تشير إلى تنامي عدد مريدي التيجانيّة؛ فلتكن هي منطلق عملنا ضدّ الأمير، وقد وقفتُ على شناعة ما قام به ضدّهم في عين ماضي، دون أن ننسى الفئات التي كانت لها امتيازات قبل دخولنا الجزائر، والفرق التي يمكن توظيفها إلى جانبنا، سأعمل مع الزّاوية التيجانيّة، وأعتقد لو نجحنا في كسبهم ستكون الضربة القاضية لمقاومة الأمير وعلى أيّة مقاومات شعبيّة تستند على الجهاد فيما بعد، بل سيكون لعملنا أثره العميق في تركيز وجودنا بالجزائر وشمال إفريقيا كلّه على المدى البعيد سيّدي.

حرّك توماس بيجو رأسه علامة الرّضا وهو يردف: تجنيد فرق من الأهالي عنصر محوري في هذه الحرب التي طالت وكثرت فيها خسائرنا، قوّة العتاد وحدها لا تكفي؛ ولذلك تمّ بعث المكاتب العربيّة لنتواصل مع الطّامعين والخونة من القوم، إذ لا بدّ من خلخلة المجتمع الجزائريّ من داخله؛ حتى تقتات نيران هذه الحرب من السكان الأصليين ضدّ بعضهم البعض دوننا، ولعلّ كسْبنا للكراغلة في صفّنا قد أفادنا كثيرًا، فقد لعبنا على ما كان لهم من امتيازات زمن العثمانيين وعلى أولويتهم بالحكم كما يعتقدون؛ فانساقوا معنا، وصاروا يبلون حسنا، بل هم الآن في المواجهة مع ميزة خبرتهم بالأرض التي يتحرّكون عليها وعادات الأهل ونقاط ضعفهم.

انفضّ اللّقاء الاستشاريّ بزعامة بيجو بوضع خطّة لتجنيد فرق من الخيّالة العرب للاستطلاع وكلّ من يرغب في التطوّع لمحاربة الأمير عبد القادر، فكان أن اجتمعت بعد أشهر الصبايحيّة، والسبايس، والزواف ليدمجوا مع الأتراك والموريين وبعض السّود وقنّاصين من إفريقيا لتوضع لبنة الجيش الإفريقي الفرنسيّ الاستعماري؛ والذي ستصبح له اليد الطولى في ممارسة أبشع الجرائم على أرض الجزائر قتلًا، وحرقًا، واغتصابًا، وتشريدًا.

وبينما كان الأمير عبد القادر وجيشه يقطعون غرب الجزائر وجنوبها في عاصمتهم المتنقّلة «الزمالة» يقاومون المحتلّ وينحتون بطولات خارقة؛ كان الجنرال بيجو يزيد من تضييق الخناق على الأهالي حتى يتبرأوا من المقاومة، فلم يترك أسلوبًا في الترهيب والترويع إلاّ ونفّذه على المواطنين العزّل. في هذا الزمن الحرج على المقاومة كان ليون روش قد أسرج قاصدًا عين ماضي، وكانت رحلته محفوفة بالمخاطر؛ إذ كان يتوقّع مع فريقه طلوع محاربي الأمير من أيّ دغل أو جبل أو واد، فقد انتشروا فيما يشبه مقاتلي العصابات.

كان وصول فريق ليون روش إلى مشارف جبل العمور حيث ترقد قرية عين ماضي على قدمه على صفيحة بيضاوية كأنّها بيض النّعام المشطور، وجد القرية كما تركها منذ سنوات أيّام حصارها من قبل الأمير عبد القادر منغرسة في بساتينها الغنّاء وبناءاتها الحجريّة ذات الطّابقين تطلّ كقلاع أسطوريّة فقال ليون روش: «يا لقوّة التجاجنة، لقد أحيوا قريتهم من محرقة عبد القادر، فانبعثت منها الحياة من جديد، ولعلّهم نسوا الحصار والدّمار لتلك السنوات لمّا كان الأمير يصول ويجول، ودوري الآن أن ألهب أحقادهم، وأضع الملح على الجرح فيتورّم وينفجر غضبا على عبد القادر، فإن مات جرحهم مازال جرحي قائما وكأنّي أرى جثّة خديجة تلتهب، بل مازلت أستنشق روائح الحرائق لا تغادرني لحظة، أيّها المكان الهائم في الفيافي، دورك أن تلهب ذاكرة لا ترحم تتجّه؛ للانتقام لي ولوطني من هذا المتمرّد الذي لم يترك لفرنسا جفنا يغمض وعمّر قلبي حزنا لم ينقض.

لمّا وافى ليون روش مقرّ الطريقة التيجانيّة كان في استقباله شيخها، واتفقا على أن ينظمّ للاجتماع شيوخ الطريقة الطيبيّة والشيخيّة حتى يكون لمخرجات الاجتماع وقعه العميق.

قال ليون روش مختصرًا الموضوع: نبحث في إصدار فتوى تبيح للاحتلال الفرنسيّ البقاء في الجزائر دون إلزام المسلمين بجهاده.

فاستجاب شيخ التيجانيّة سريعًا وهو يقول: ولاؤنا لكم ليس وليد اللحظة؛ فقد أحسن أجدادنا صنعا بالانضمام إلى فرنسا قبل أن تصل إلى بلادنا وقبل أن تنزل جيوشها الكرام ديارنا، وأظهرنا شجاعة نادرة في مقاومة أكبر عدوّ لفرنسا الأمير عبد القادر رغم حصاره لنا ورغم هزيمتنا أبينا أن نرى وجهه ولا أن نعلن له الولاء، مرنا ننفّذ سيّدي.

وقال شيخ الطيبيّة: وحتى يكون للفتوى وقعها لا بدّ أن يوافق عليها علماء الأمّة.

فقال ليون روش: ماذا تقترحون؟

قال شيخ التيجانيّة: يسافر بعضنا إلى القيروان.

قال ليون: هذه الترتيبات أعود فيها للجنرال بيجو، المهمّ نتفق على المبدأ وتستعدّون فيما بعد لنشر الفتوى وتوزيعها على كامل التراب الجزائري.

غادر ليون روش عين ماضي في رفقة مساعدين لشيخ التيجانيّة عائدًا للجزائر؛ حيث قامت الاستعدادات حثيثة للسّفر لتونس ثمّ مصر فبلاد الحجاز بحيث يكون ليون روش هناك عند موسم الحجّ.

كان الجنرال يودّع ليون روش وهو يستعدّ للسفر إلى القيروان فأكّد له على ضرورة توخّي السريّة والحذر، ولم يكد ليون يصل إلى مقصده حتى نجح في استصدار الفتوى بعد أن سهّل له الشيخ «عبد الله بن المحجوب» المهمّة وكتب رسالة أولى من سوسة قبل التوجّه إلى مصر قال فيها: أردت طمأنتكم على نجاح مهمّة القيروان؛ إذ سرعان ما وقع توقيع الفتوى من مجلس القيروان ببساطة مذهلة، كافأتهم بما استحقّوا، وأستعدّ من سوسة للسفر إلى مصر

راجيًا أن يتمّ إقرار الفتوى هناك قبل التوجّه إلى شريف مكّة وتحقيق الإجماع حولها من قبل جهابذة المراكز الدينيّة، لو حصل ذلك وآمله جيّدا؛ سيكون للفتوى تأثير كبير على نفوس مسلمي الجزائر وشمال إفريقيا عامّة.

سيّدي الجنرال، «أشكر سخاءكم فيما أرسلتم لي من أموال وهدايا قادرة على شراء ذمم أعتى المناهضين لنا، فما بالنا بهؤلاء الشيوخ المتهافتين، ورجائي أن تتفضّلوا بقبول «سالم» الحصان الجميل الذي منحني إيّاه الأمير عبد القادر كتذكار من مترجمكم الشقيّ.

وفي الأخير، ثقوا أنّ مسعانا القصد منه إعلان حرب مدمّرة معنويّا وماديّا تقضي على هيبة الأمير، وتنفّر النّاس منه ومن أيّ زعيم تخوّل له نفسه منازلتنا....الوفيّ « ليون روش.

أفلح ليون روش في تأكيد الفتوى من علماء الأزهر حيث التقى الشيخ حسن بن إبراهيم التونسي وكان مفتيا في القيروان وقد لازمه في رحلته إلى الحجاز، وحين التقى الشريف الأكبر بدا في موقف قوّة وهو يطلعه على الفتوى قائلًا له: «لم آت إلى مكّة لأداء فريضة الحجّ، بل لي مهمّتان، الأولى: إقرار الفتوى، والثانية: تحسين ظروف نقل حجيج الجزائر، وقد كلّفني بذلك الجنرال بيجو الذي كلّفه ملك فرنسا بحكم الشعوب المسلمة التي كانت تحت حكم الأتراك الظلمة.

وكتب ليون روش رسالة أخرى لبيجو يزفّ له خبر نجاح مهمّته في مصر وبلاد الحجاز: «كلّكم يعلم سيّدي أنّي اعتنقت الإسلام لأدخل على الأمير دسيسة ونجحت، وبحثت عن تأثير هذا الدّين في نفوس المسلمين فوجدته قد ملأها شجاعة، ولو قام عليه رجال يعلّمونه حقّ تعليمه لغلبنا المسلمون في كلّ وقت، ووجدت أيضا بينهم شيوخًا يحرّفونه، وإنّي تمكّنت من استغواء بعضهم في القيروان، والإسكندريّة، ومكّة؛ فكتبوا إلى المسلمين في الجزائر

يفتونهم بوجوب الطاعة للفرنسيين، وبأن لا ينزعوا للثورة، ومنهم من أفتى بأنّ فرنسا دولة إسلاميّة أكثر من الدولة العثمانيّة، وكلّ ذلك لم يكلّفني إلاّ بعض الآنية الذهبيّة، مغامرة شيّقة ومجدية كدت أفقد فيها حياتي لمّا هاجمتني مجموعة من الجزائريين يوم الحجّ، وأظنّهم أتباع القادريّة وهم يصرخون: «نصراني، نصراني، لولا أن أنقذني رجال الشريف الأكبر وسهّل مهمّة فراري... التضحية من أجل فرنسا شرف لي، المخلص ليون روش.

الفتوى صارت بعد زمن قليل بأيدي الفرنسيين تُستنسخ ويوزّعها المشائخ والنسّاك والمريدون من داخل الزوايا في الجزائر بالطول والعرض، فتوى كان لها دور محوريّ في ترسيخ الاحتلال وإطالة أنفاسه لعقود طويلة بعد أن ركنت معظم الطرق والزوايا الصوفيّة إليها وهادنت المستعمر الفرنسي وراجت بين المتصوّفة مقولة: «الاستعمار قضاء وقدر».

مثّل فصل المنعرج منعرجًا في نفس العم الطاهر؛ فقد ظلّ صامتًا على غير عادته، وتاهت عيناه في سقف البيت وركبه همّ لا قبل له به، ونادى: «دثرني يا سامر، دثرني ففي قلبي صقيع وبرأسي طنين نحل فزع.

قد والله عجّلت بما أسمعتني منيّتي، أيوظفون الدين والفتوى لتركيع الشعوب وفينا من يقبل؟ وهؤلاء المتصوّفة هل قدروا العواقب؟

خذ أشياءك ودع الموت يطمرني بدل هذا الوخز المؤذي بإبر التاريخ الجارح«.

انقطعت جلسات الاستماع لأكثر من شهر، فقد أصيب العم الطاهر بنزلة برد كادت تودي به؛ ولكنّ روحه المفعمة بانتظار الربيع نفضت عنها غبار الموت وعادت تستزيد من الحياة، تطلبها بوجعها وسحرها فقال ممازحا: في القبر سيكون لي زمني كلّه للنوم الهادئ، علينا التوجه لمقهى الميناء العتيق، اشتقت للمراكب وحولها النّوارس وضجيج الصبية، لا بدّ أنّ الصيّادين بصدد الإعداد لرحلات صيد قريبة بعد شتاء عاصف أرعبهم بجبال بحره.

المقطع الثاني عشر:

مشاة الموت.

كان شتاء الجزائر سنة ١٨٤٢ قاسيًا جدّا، وكانت الأحداث والوقائع مثل البراكين لا تخمد، وقد استعرت نيران المحتلّ الفرنسي بعد أن أحكم السيطرة على الكثير من المواقع، وكال للأمير عبد القادر ضربات موجعة وقُضي على مدن معسكر وتاقدمت مركزي حكمه.

في ذلك الشتاء المؤذي لم تستطع الأمطار ولا الثلوج أن تخمد روح المقاومة لدى بني مناصر وظلّت تزعج المستعمر... بني مناصر تلك القرية الرّائعة المحروسة بجبلين، بيوت بسيطة محاطة بالبساتين، يسعى أهلها في مسالكها الجبليّة الصعبة في اتجاه مزارع الكروم والحبوب والزيتون والخرّوب، عشقهم للأرض أسطورة خطتها أيدي المقاومين؛ إذ سرعان ما انضمّوا لألوية الأمير عندما أعلن المقاومة، وأبلوا البلاء الحسن؛ فنقم عليهم المحتلّ.

كان الليل قد جثم باكرًا على بني مناصر في تلك الواقعة، زخات مطر، وقصف رعد، وهطول ثلج ظلّ يراود المكان، احتمى سكان بني مناصر ببيوتهم وطمأنينة مشوبة بحذر قد كحّلت عيونهم فناموا ليلتها، ولكنّ فجرهم قد جاء سريعًا ومرعبًا، دقّ الطبول اخترق غفوات الأطفال، هبّ الرّجال يستطلعون وظلّت النسوة متوجّسات، نادى المنادي: الفرنسيون على أبوابنا، وروائح الحرائق وسماع دويّ تدمير قد شرع ينفّذه جيش الاحتلال في تلك الدواوير والبيوت الواقعة على أطراف القرية، هربت النسوة والأطفال إلى ثلوج الأطلس فماتوا بالبرد والجوع، واشتعلت معركة غير متكافئة بين جيش عالي التسلّح ومقاومين شبه عزّل، وجالت يد القتل

والذبح، وعمّ صراخ الضحايا واللاّقطين أنفاسهم الأخيرة يختلط بأصوات الحيوانات التي ترغو وتخور، إنّه الجحيم بعينه وسط أكوام من الثلج.

علّق الجنرال «لامورسيير» وهو ثمل: سنعود إليهم لنكسر شوكتهم من جديد، سنجعلهم يلجؤون إلى المغاور كالفئران، لم يرفّ لي جفن وأنا أمشي على أكوام الجثث اللاّصقة مع بعضها البعض، فمن أفلت من الطعن والقنص وفرّ جمّدته الثلوج، أتدرون أنّ بني مناصر قد شكلوا قوّة عسكريّة، وأنّهم مثلوا قاطرة تقود باقي عروش وعائلات المنطقة، وأنّهم قبل أشهر كادوا أن يقضوا على الجنرال بيجو بعد أن نصبوا له كمينًا قبل أن ينسحب إلى شرشال، الخطة تطلب منّا أن نطهّر أحواز المناطق التي يتحرّك فيها الأمير عبد القادر ونمنع عنه المدد؛ حتى يسهل علينا القضاء على عاصمته المتنقّلة.

يعلّق أحد الجنود المتسلّقين في تماه مع قائده: «ويظلّ القضاء على قبيلة الصبيحة في جبل الظهرة درسًا ستتناقله الأجيال في مدارسنا الحربيّة.

صاح لامورسيير وقد بدأ يستعيد رشده من بنت الكروم: «أعد سرد الواقعة على مسامعي حتى أتمكّن من التخلّص نهائيّا من تلك النظريات المقرفة التي كان يسردها علينا أستاذنا «أوغست كانط» حول وضعه علمًا جديدًا للمجتمع يجنّب الإنسانيّة النّزاعات، ويحقّق لها السلم الاجتماعي، أذكر أنّي انبهرت حينها بدرسه الأوّل «محاضرات في الفلسفة الوضعيّة»، فقد أكّد على ضرورة إخضاع السياسة إلى الأخلاق، ولكن مع هؤلاء الأجلاف المتخلّفين ليس علينا سوى أن نقتّلهم ونشرّدهم نحو الصّحاري، لقد بيّنت لنا تجربة سنوات أنّهم لن يستوعبوا التحضّر، ولا العلوم، ولا التقدّم، ليسوا أهلًا لهذه الأرض، مكانهم الأمثل في الأحراش أو خدم لنا.

وأفصح عن حقيقة الاحتلال الفرنسي في قولته الشهيرة: «إنّ الحرب عمل تبشيريّ ضدّ قوم لا ينفع الكلام المعقول إلاّ إذا كان معزّزا بالحراب.

وحين صمت من هذيانه استأنف الجنديّ: «كانت قبيلة الصبيحة من بني رياح تستوطن السّهول المتاخمة لجبل الظهرة ناحية مستغانم عرفت بمناوءتها لنا، وكثيرًا ما استطاعت الفرار نحو الكهوف؛ توقّيا من ضرباتنا حتى تمكّنا من استدراجها أخيرا داخل تلك الكهوف، ولمّا استقرّ أمرهم طوّقنا المخارج، وأشعلنا النّيران وكان الفصل صيفا، وظلّ القنّاصة عن بعد يقنصون كلّ من يحاول الخروج، وبعد ساعات تكفّلت النيران والمداخن بإخماد أنفاسهم مع حيواناتهم، لقد صار المكان مقبرة جماعيّة كبيرة، إنّها صورة مرعبة حقّا ولم يتطلّب الأمر منّا فائضا من البارود، أعدنا الخراطيش لصناديقها.

قال غيره معقّبًا: «لا تنسوا تلك القبيلة بمنطقة الشلف التي ألقينا أهلها بالوادي وكان حاملًا في فصل الشتاء فأخذهم الطمي، وكم تسلّينا بمشاهد غطسهم وطفُوّ ملابسهم وبرانيسهم على وجه المياه الهادرة وهم يستنجدون بنبيّهم وأميرهم ولا مجيب... كانت لوحات سرياليّة بديعة...

ضحك آخر وهو يقول: «هذه نماذج من حربنا ضدّهم، ولكن أفضل الأعمال ما كان له مردود مادّي مباشر علينا مثلما حدث منذ سنوات مع قبيلة العوفيّة، كنتُ قد التحقت لتوّي من فرنسا بالجزائر، وكانت أوّل مهمّة لي حيث حاصرنا القبيلة وأهلها نيام، فذبحناهم كالخرفان، وحملنا معاصم النسوة بأساورها ومواضع الأقراط للأسواق بلحمها ودمها، وأجبرنا الأهالي على تخليصها من أدرانها وشرائها، وفي المساء احتفلنا على نخب الانتصارات.

أردف لامورسيير وقد اقتربوا من تخوم الجزائر: «لم يبق لنا سوى جولات قليلة قبل أن نشدّد الخناق على الأمير عبد القادر، إنّ إسقاط

عاصمته المتنقّلة قد تكون آخر الحروب معه، ونحن نستعدّ لذلك بالخطط والعتاد، ستأخذون قسطًا من الرّاحة وسننطلق نحو زمالته، وها قد أرسلنا العيون لتحديد تحرّكاته بدقّة.

مضى أسبوع قبل أن يجتمع قادة الجيش الفرنسي بعد أن تدارسوا خططهم المستقبليّة الموجّهة ضدّ الأمير؛ وأساسها تدمير الأماكن المنظمة والمحصّنة وقد جعلها الأمير مراكز للتموين وإقامة المصانع، وعدّدوا الحصون والقبائل التي وجب القضاء عليها ووزّعوا المهامّ، فكانت قبائل الحشم الشراقة والغرابة لمساندتها الأمير على رأس القائمة، وتكفّل الجنرال بيجو والمقدّم لامورسيير بذلك، وأسند لغيرهما حصون سعيدة وسبدو وبوغار وتازة...

وكانت أيّام حرب مشتعلة بلا هوادة رجحت فيها كفّة قوّات الاحتلال على قوّات الأمير التي تلقّت ضربات قاصمة؛ ولكنّها بقيت ثابتة ترفع شعار المقاومة بلا هوادة، حتى بعد أن نجحت قوات الاحتلال في إدخال بعض القبائل تحت طاعتها كأولاد الشريف، والدوايرـ بهدف خلق جبهة محليّة مساندة لها، ولم تسلم الزوايا ولا الطرق الصوفية ولا حتى المذاهب من السياسة الاستعماريّة الرافعة لشعار فرّق تسدّ وإشعال الفتن بين الجزائريين فيضعفوا وتذهب ريحهم.

لمّا أسقط الجيش الفرنسي عواصم الأمير الواحدة تلو الأخرى من معسكر إلى تاقدامت؛ لجأ هذا الأخير إلى اختلاق عاصمة متنقّلة تحتوي على مجموعة من الخيام موزّعة على مخطط مدروس حيث يمكنها التنقل والترحال والإفلات من هجمات العدوّ الفرنسيّ، بلغ تعداد سكّانها الستين ألف نسمة أطلق عليها اسم «الزمالة»، وأضحت دائمة الحركة تتابع أماكن الرعي أو تتراجع نحو الصحراء وفق تحرّكات القوات الفرنسيّة.

ألمّ بالعم الطاهر ألم كبته؛ ففضحته أساريره وهو يستمع لنماذج من فظائع المحتلّ الفرنسي ضدّ أبناء الوطن، ولم يلبث أن نطق قائلا:

لقد ظللنا لسنوات ندرّس تلاميذنا لوحة غرنكا للفنان التشكيلي الإسباني بيكاسو؛ والتي صوّر فيها الحرب بإسبانيا، وقصف الطيران الألماني لقرية غرنكا وما خلّفه من ضحايا ودمار، إنّها بشاعة الحرب بالتأكيد.

وتنهّد مكملًا: «لقد علم تلاميذنا عن الحرب في إسبانيا ما لم يعلموه عن بلدهم بالتأكيد، وهذا الذي كنّا بصدده أليس أكثر وحشيّة مما جاء في لوحة غرنكا، ها أنّ صورة متخيّلة قد راودتني لرجل يجثو على ركبتيه وهو يمسك بين يديه قرني ثور هيّجته النيران والأدخنة داخل كهف محكم الغلق وخلف الرّجل تحتمي الزوجة والأبناء، قسمات الرّجل مملوءة رعبًا وعجزًا، والثور يهاجمه بوحشيّة، وألسنة النّيران تلتهم الجميع... أتخيّل أيضا كيف تكدّست الجثث المحروقة للبشر والحيوان سويّا، أتخيّل أيضا الكهوف المخنوقة وروائح اللحم البشري المدخّن ممزوجًا بشواء فلذات الأكباد والحيوانات.

هذه من اللوحات التي نسيتها أيدي الرسامين فلم تعرض في متاحف العالم المتقدّم ولم تحدّد أسعارها بالمليارات، لقد اكتفوا بعرض الجماجم في متحف الإنسان، أيّ سخريّة؟

أتدري يا سامر لماذا؟ واسترسل: «لأنّها لوحة المستضعفين، البرابرة، كما نعتوا شعوب شمال إفريقيا.. سنظلّ بلا قيمة حتى نعلي داخلنا قيمة الإنسان..

المقطع الثالث عشر:

مدينة الخيام.

كان الأمير عبد القادر يمتطي جواده ويرافقه أعضاده وبعض أعيان قبائل أولاد شعيب على رأسهم الشيخ جديد بن يوسف والمقان والغرايس، تنقّلوا من رأس عين طاقين وتابعوا امتداد الواد الطويل والسّفوح التحتيّة لبوغار باتجاه البراوقيّة وبوقزول حيث يوجد أهمّ ممرّ للقبائل المتنقّلة، وحين انتهى الاستطلاع الميداني نظر الأمير إلى مرافقيه وهو يقول: يا لهذا المكان الجامع لكلّ ما نحتاج؛ تضاريس طبيعيّة تشكّل حصنًا منيعًا بمرتفعاته وحواجزه الصخريّة، وهذا الوادي الطويل وهذه العين الجارية وهذه السهول الممتدّة كفيلة بتلبية احتياجاتنا.

أنعم الشيخ جديد بن يوسف مضيفا: لقد شكّلت على مدى العصور سوقًا هامّة لمواطني التلّ والصحراء، وهي منطقة عالية تمكّننا من الرّصد.

صفّق الأمير وهو يثني على كلام الشيخ مردفًا: طموحنا أن نبسط نفوذنا على جميع المعابر الصحراويّة، ولنا الرّومان في العصور الخوالي خير مقتدى، وهذه تحصيناتهم إلى الآن قائمة على سلسلة بوغار مرورًا بخربة أولاد هلال حيث تكون همزة وصل بين واد الشلف والمنطقة الشماليّة، أترون ما أرى؟

لم يجد لكلامه معارضة فقد نبع عن معاينة واقعيّة، وشرع في التخطيط لتحريك مدينة الخيام نحو عين طاقين، وما إنّ استقرّت الزّمالة حتى شرع المنظّمون في ترتيب الصفوف وانبرى الأمير وخلفاؤه في التخطيط للمعارك المستقبليّة مع جيش الاحتلال الفرنسيّ.

ظلّ الأمير عبد القادر بعد أن استقرّت الزمالة بعين طاقين يرأس اجتماعات عدّة تهتمّ بالتنظيم وتزويد عاصمته المتنقّلة، وقد أصبح التفكير في توفير مستلزماتها

واحتياجات الحرب من مؤن وأسلحة يثقل فكر الأمير وأعوانه؛ بعد الحصار والمراقبة الدّائمة التي بات يقوم بها الجيش الفرنسي وزمرته من المعاونين.

أبدى الخليفة بن علال ذات لقاء تخوّفه من العيون المبثوثة في كلّ مكان.

فعقّب الأمير قائلًا: ما يعمّق الذي ذكرته يا محمّد هو حدوث هذه المشاكل داخل الدّائرة، فتمرّد بعض القبائل انعكس على خططنا العسكريّة وأهدرنا الكثير من الوقت، ولم نهاجم عدوّنا الذي جرُؤ علينا واقترب من ديارنا أكثر من اللاّزم.

قال بن علاّل: تخوّفي من الذين فرّوا من الزمالة لمّا عزمنا على المجيء إلى عين طاقين أن ينقلوا أخبارنا.

فردّ الأمير حازمًا: هذا الترحال والانتقال بالزمالة متعب ولا شكّ، ولكنّنا تعاهدنا على جهاد الفرنسيين وتحرير وطننا مضحّين بأرواحنا، وليس هيّنا أن يتنازل عدوّ شرس مستعدّ لكلّ الجرائم في سبيل بسط نفوذه على جزائرنا؛ ولهذا أقول لكم: «كلّ من حاول الهروب من الزمالة فلكم أمواله ولي رأسه»، فقد بلغني أنّ فرنسا أنفقت أموالًا ضخمة للقضاء علينا، وأنّ جهودا خياليّة تبذل من أجل ذلك، الأيّام المقبلة ستشهد معارك مفصليّة.

قال محمد بن الخرّوبي أحد قادة الأمير: ماهي خطتنا في الأيّام القادمة؟

فقال الأمير: نواحي الونشريس لابن علال، ثمّ توجّه لصهره مصطفى بن التوهامي وهو يقول: ولك ونّوغة، أمّا أنت يا ابن الخرّوبي فخذ جندك إلى فليتة.

ويوم خروجكم سألتحق بأحد الفيالق بعد أن تصلني الأخبار من عيوننا.

أمّا بالجزائر فلم تسع فرحة الجنرال بيجو الأرض ولا السّماء؛ حين اعتبرت الجمعيّة الوطنيّة الفرنسيّة خطوته في مطاردة الأمير عبد القادر ضروريّة ولا بدّ من دعمها بالمطلوب، فسارع إلى الاجتماع بليون روش وقد أصبح ساعده الأيمن منذ أن نجح في مهمّة الفتوى وغيرها وهو

مغتبط: أنت تعْلمْ يا ليون أنّنا وبفضل عملك الجبّار قد تمكّنا من الحصول على تأييد رؤساء قبائل إقليم التيطري وأنّهم قد أدّوا يمين الوفاء لفرنسا أمام الحاكم العام، والآن ما علينا سوى حسن اختيار الأشخاص.

سأل ليون روش: هل من توضيح سيّدي؟

ضحك الجنرال بيجو ملء شدقيه قبل أن يتناول زجاجة خمره المفضّل وهو يتّكئ على أريكته: أو تظنّ يا ليون أنّنا سنُبقي على رؤساء القبائل الذين أدّوا لنا يمين الوفاء؟ أوليس من خان وطنه يكون مستعدّا لخيانتنا أيضا، أولئك سيعزلون، وسنبحث عن غيرهم من الضعفاء والقابلين للبيع، ولا أظنّك تعجز عن حسن اختيار حوالي مائة وخمسين نفرًا سنعيّنهم كزعماء قبائل يحكمون باسم فرنسا.

أنعم ليون روش وهو يقول: المهمّة سهلة، أمهلني بضعة أيّام وأسوق لك ما طلبت، كن على ثقة من ذلك.

لم تمض بضعة أسابيع حتى أحكم الجنرال بيجو قبضته على القبائل الواقعة على خطّ المديّة ممّا سمح له بمطاردة الأمير بسهولة في هذه المنطقة، وتواصلت المطاردة حتى بلغت جبال عمور رغم كونها من أكثر المناطق تحصينًا، وكانت المطاردة مزدوجة ومتزامنة؛ فكان المقدّم لامورسيير وجيشه من الغرب، وانقضّ الدوق دومال من الوسط فتحرّك من بوغار في جيش قوامه بضعة آلاف من الفرسان، والمشاة محمّلين بالعتاد في نفس الوقت الذي تحرّك فيه الفرنسيون من المديّة، كان ابن علاّل ومصطفى بن التوهامي ومحمد الخرّوبي يتموقعون في الأماكن التي حُدّدت لهم من قبل الأمير عبد القادر بعيدًا عن عين طاقين.

وبينما الدّوق دومال مستلق في خيمته بعد أن قطع مع جيشه مسافات كبيرة في المطاردة والاقتفاء؛ إذ جاء خادم الفرنسيين يوسف العنّابي أغبر الوجه من وعثاء اللّهاث والبحث عن أخبار الأمير، وكان يصطحب شخصًا يقال له «

ابن الفراح»، وبعد أن استأذنا في الدّخول على الدّوق ترهقهما الذلّة قال ابن الفراح: سيّدي أنصحكم بالكفّ عن مطاردة «مدينة الخيام» فعددهم يناهز الستين ألفًا، وقد يقتلونكم بالعصيّ ويصطادونكم كالأرانب...

ولم يُنه بن الفراح كلامه حتى قاطعه الدوق دومال ناهرًا: اصمت يا هذا، لم نطلب مشورتك، عملك يتوقف عند الاقتفاء ونقل المعلومة، أنت مجرّد مخبر، أمّا القرارات فهي بأيدينا نحن الفرنسيين، ثمّ صرخ مزلزلًا: « أقسم برأس أبي ملك فرنسا العظيم لويس فيليب أنّني لن أتراجع عن غايتي وسأقضي على الأمير وأتباعه.

خرج يوسف العنّابي ومرافقه منكّسيْ الرأس من خيمة الدوق، ووقفا في أطراف المعسكر في انتظار الأوامر من أسيادهما.

كان ربيع عين طاقين في تلك السنة مميّزا، حيث أغدقت السماء عطاءها شتاء؛ فهيمنت الخضرة، وطال الزرع، ونما الضرع بفضل السّهوب والسّهول الغنيّة المحاذية للوادي الطويل.هناك تكون الاستعدادات في شهر ماي حثيثة لموسم الحصاد، وبدت الزمالة وهي جاثمة في عين طاقين كسفينة فضائيّة معلّقة في الصحراء، والخيام على كثرتها منتظمة بطريقة دائريّة فلا اعوجاج أو نشاز، وكان سكّانها يباشرون حياتهم اليوميّة في طمأنينة وسط حركة دؤوب لكلّ امرئ شأن يغنيه، الأطفال في حبور، والنساء حول المواقد يعددن الأطعمة، والأدخنة تتصاعد من الخيم، وقطعان المواشي في رعي ودعة، بينما على مقربة من مدينة الخيام كان الدّوق دومال بجيشه على أهبة الهجوم، وقد حاز معلومات أكيدة حول مكان الزمالة، وفي صباح ذلك اليوم من ١٦ ماي ١٨٤٣ وجد نفسه قريبًا منها؛ فدعا معاونيه إلى اجتماع طارئ وهو يقول: صرت متأكّدًا من صحّة ما وصلنا من معلومات، وأهمّها غياب الأمير ومعاونيه الذين توزّعوا على مواقع قتاليّة بعيدا عن هذا

المكان، وأنّه يمكننا اختراق كلّ صفوف الزمالة؛ فهي لا تتمتّع بتسليح جيّد ويقوم عليها مقاتلون مسنّون في الأغلب، فقط انزعوا من قلوبكم الخوف والتوجس، في هجومنا المباغت عليهم سنقسّم الزمالة إلى قسمين، فلا نترك لهم قدرة على التصدّي ومؤازرة الصفوف بعضها للبعض الآخر، ونادى في «السبايس» أن ارتدوا البرانيس الحمر كما اتفقنا حتى تظهروا وكأنّكم خيّالة الأمير، وليكن يوسف العنّابي قائدكم، وختم مستهزئًا: «سنقضي عليهم، بينما أميرهم في السرسو يراقب تحرّكات لامورسيير».

ولم تمض بضع ساعة، ولمّا صارت الزمالة واضحة أمامهم أعطى الدوق دومال أمر الهجوم.

ظنّ أهل الزمالة وهم يرون الفرسان ببرانيسهم الحمراء أنّ فرسان الأمير قد حلّوا فاستقبلوهم بالزّغاريد، ولكنّهم قوبلوا بطلق النيران الكثيف والتقتيل والتشريد، إذ سرعان ما تمكّنت القوات الفرنسيّة من أن تلقي الفزع في الأهالي وجنود الأمير وقد بوغتوا ولم يكونوا على أهبة، فلم يسمع سوى صياح النسوة: «الرّومي، الرّومي»، وعويل الأطفال الذين داستهم الأرجل، والشيوخ وقد عجزوا عن الإفلات من قبضة جنود متوحّشين لم يفرّقوا بين حامل للسلاح أو أعزل، وكان قايد السبايس يوسف العنّابي يصرخ في حماسة لا نظير لها: «اقضوا عليهم جميعا، تشفّوا من أميرهم بهم، اقطعوا دابرهم حتى لا يكون له من بعد واقعة عين طاقين رأس يرفعه أو حصان يركبه ذاك المنافق... وكان من حين لآخر يحاول أن يسترعي انتباه الدّوق دومال؛ علّه يحصل على الوجاهة والأموال التي باع من أجلها وطنًا.

سقط من الزمالة القتلى بالمئات والأسرى بالآلاف، وغنم الفرنسيون والسبايس ماشاؤوا من المواشي، ونهبت خيمة الأمير بما فيها من أموال، وخرّبت مكتبته، وعمّ الحرق والتدمير كلّ ما طالته الأيدي.

وما إن بلغ خبر الهجوم على الزمالة للأمير حتى اختلى بنفسه داخل خيمته لبرهة وخرج لجنده مواسيًا فيما فقدوا، مهنّئا السّابقين للشهادة، رافعًا للهمم ولضرورة الثبات حتى تحرير كلّ الجزائر، وقرّر وهو يخاطبهم أن يباغت العدوّ المنتشي بنصره، الفرح بغنائمه، قال لهم في حماسته المعهودة: سننقسم إلى أقسام ثلاثة؛ مجموعة تتجه للتلال القريبة من عاصمتنا المنكوبة، والثانية تختبئ في الأحراش، أمّا الثالثة فتتجه إلى عين طاقين مباشرة.

تقدّم الأمير يقود كوكبة من الفرسان وانطلقوا حتى إذا وصلوا إلى عين طاقين وجدوا الجنود الفرنسيين يحتفلون وهم مثقلون بالغنائم، ففاجأهم وعلت أصوات التكبير والبارود، وكانت الحميّة تدفع جنود الأمير، والغيرة على أرضهم وعرضهم تلهب نفوسهم؛ فشتتوا الصفوف، وأمطروا الفرنسيين والخونة من السبايس بوابل من الرّصاص، وكان الأمير مندفعًا لا يلوي حتى تقطّع برنوسه وسقط تحت جواده مضرّجا بالدّماء فظنّوه قد مات، ولم يستطع الفرنسيون رهبةً وجزعًا أن يقتربوا منه، فنجا بأعجوبة واسترجع عددا من الأسرى وبعض ما نهب.

وكانت موقعة الحراش الثأريّة قد خفّفت على الأمير وصحبه ما نالهم من حزن على ما وقع للزمالة إذ حرموا من نقطة ارتكاز على أرض أجدادهم وطوردوا ولوحقوا أينما حلّوا، وإن فكّر الأمير في إعادة بناء ما دمّر؛ فإنّ كلّ المؤشرات تشير إلى أنّ محاصرة الفرنسيين أتت أكلها، وأنّ انضمام الكثير من القبائل الجزائريّة للفرنسيين خوفًا وطمعًا؛ قد أضعف قوّة الأمير، وأنّ الخيانات فاقت كلّ مشاعر الوفاء لمشروعه التحرّري، فلمن يتجه وبأيّ أرض يلوذ؟

انتفض الأمير كأسد جريح بعد سقوط طاقين وبه شدّة لم تُرَ على ملامحه مطلقًا ثمّ قال لصحبه: سنواصل القتال، سنقاتل بحريّة، فما كان يشغل ذهني هو الزمالة وماؤها وكلؤها، سنقاتل ونشرع في الانتقام من فرنسا على جرائمها، ولنا أن نتوجّه إلى المغرب حتى نجدّد قاعدتنا الصلبة، ونرى

كيف للسلطان مولاي عبد الرحمان أن يعضدنا، فالاحتلال الفرنسيّ لن يقف عند الجزائر، ومتى أكلنا سيؤكلون جميعا، كان يخطب بصوت أجشّ يغالبه شجى كلّما ذكر استشهاد محمد بن علال ساعده الأيمن، ولكنّه سرعان ما كان يتجاوز وجعه ليبثّ الحميّة في نفوس المجاهدين، ويردف: «مضى على سقوط الزمالة بضعة أشهر، وقد وجدنا أنفسنا مكبّلين مراقبين لم ننجز سوى بعض المعارك الخاطفة، وبقاؤنا هنا على هذا الوضع سيضعفنا ويشتت جمعنا.

رغم نوازع اليأس التي جالت بنفوس المقاتلين لفترة فإنّهم وجدوا في كلام الأمير باب فرج ممكن قد ينفتح عليهم من جهة إخوانهم في المغرب؛ فلم يلبثوا أن شرعوا في الاستعداد للهجرة.

لّما انتهى سامر من تسميع مقطع «مدينة الخيام» والعم الطاهر ملقىً على فراشه، انتظر منه أيّ تعليق ولكنّه ظلّ صامتًا ومن عينيه المعتّمتين نزت دمعتان، ثمّ قام نحو الشباك المطلّ على المرسى العتيق، ولم ينبس ببنت شفة الليل كلّه.

علم سامر أن لا رغبة لجليسه في مواصلة الاستماع، فقد عكف ببيته لأيّام حتى داهمته ذات صباح حماسة غير منتظرة فنادى بأعلى صوته: أيا سامر، متى تخلّصني من هذا التيه وأنا بأرذل العمر؟ أريد استكمال ما بدأنا من دون أحزان، فكما علمت من صحتي.. ماذا جرى للأمير عبد القادر؟ فقد بنيت في عزلتي فرضيات مشؤومة أرقتني.

أشرق وجه سامر وهو يقول: في الإبّان، لا أريد لعملي أن يخنقني ويظلّ رهين درجي، ولكن هل نمكث بالبيت والجوّ خارجه ربيعيّ مفعم بالجمال، أعلم أنّك تهيم بالربيع.

قال العم الطاهر والسرور يلفّه: بل إلى شاطئ سيدي سالم، فقد يخفف البحر وطأة حرائق ما سمعت من خيانات.

المقطع الرّابع عشر:
وقوع الأمير بين نارين.

كان خريف ١٨٤٢ مؤذيًا جدّا في الغرب الجزائري، الرّياح الشعواء تهبّ من جهة الصحراء معبّأة بالرّمال والأتربة، فتبعث بسحب غائمة حزينة ولا مطر، أسراب الطير المهاجرة نحو الشمال تطرّز وجه السّماء بظلال سوداء شاحبة، والأشجار المصفرّة المتجرّدة من الأوراق والخضرة تبدو كأشباح مرعبة، وكان الشعور بالقهر أيّامها يسيطر على قلوب صحب الأمير وهم يجمعون شملهم باتجاه الحدود المغربيّة، يغادرون منابتهم مكرهين ولكنّ شحنات الإصرار لم تندثر من قلوبهم، وحين وصلوا بعد لأي إلى ضفاف نهر الملوية خيّموا في عين زورة.

أجال الأمير بصره في المكان، تراءى له الأطلس المتوسّط منبع وادي الملوية جاثمًا يحجب الشمس الغاربة يوم الوصول، انبسط لتلك السّهول المعشّبة التي ينساب فيها الوادي وهو يطمئن النفس على أهل الدائرة وحيوانهم.

وما أن استقرّ المقام بالدائرة حتى كاتب الأمير سلطان المغرب عبد الرحمان بن هشام يخبره بما تعرّض له من محن وهو يقارع عدوّا غاشمًا لن تقف شراهته الاستعماريّة عند حدود الجزائر، وألمح للسلطان بطلب المساعدة على بتر أذرع الأخطبوط الفرنسي المحتلّ قائلا له: إن أصبحت بلاد المغرب الأوسط في يد دولة فرنسا فكيف تأمن على بلادك؟

وكان ردّ السلطان باهتًا بلا عذر حقيقيّ، كتب: وإن نتمنّى الحضور بأنفسنا في غمار المسلمين ومباشرة القتال بأيدينا بين صفوف المجاهدين؛

ولكن ما نحن فيه من قمع العتاة وكفّ البغاة جهاد، بل أفضل من جهاد النّصارى حسبما نصّ على ذلك إمامنا مالك رحمه الله.

وصار الأمير عبد القادر يجول في الديار ويجمع الدعم من قبائل الحدود المغربيّة؛ السلاح، والمؤن، والأموال، وما لبث أن استأنف شنّ غاراته على العدوّ بل قد تطوّع مشاركا في ترويض قبائل الرّيف المناوئة للسلطان المغربي استنهاضا لهمته واستمالته؛ غير أنّ برود الردّ من السلطان كان صاعقًا ولكنّه لم يثن الأمير والمقاتلين على مواصلة الجهاد لاسترداد الوطن، وانضمّت قبيلة بني سناسن وغيرها لجهود الأمير لروابط العرق والدّين بينهم، واستطاع أن يحقق الانتصارات التي أعادت الحماس إلى النّفوس؛ ما كدّر قوات الاحتلال الفرنسي، وأصابها الرعب من إمكانيّة التحام القُطرين في مواجهتها؛ فاضطرّت إلى إعادة بيجو إلى الجزائر ليمارس قمعًا شديدًا على القبائل التي واصلت تعاطفها مع الأمير كولهاصة، وترارة، والسواحليّة.

كان الأمير يقطع آلاف الكيلومترات من الغرب إلى الشرق، ومن الشمال إلى الجنوب، ومن السهول إلى الصحراء إلى القمم الثلجية في القبائل الكبرى؛ ما دوّخ القوات الفرنسيّة وجعل مطارداتها تبوء بالفشل، فسعت إلى حصار الأمير من المغرب حتى تنقطع كلّ أشكال المساعدة للقبائل الجزائريّة الثائرة بقيادة الأمير، وكأنّ معاهدة طنجة لم تف بالمطلوب ما اضطرّ ليون روش إلى الإبحار باتجاه المغرب، وحين جالس السلطان مولاي عبد الرحمان كان صارمًا وعدوانيّا وهو يقول: هل تدع كلّ ما أنجزناه منذ سنين يسقط في الماء حضرتكم؟ لا تبدون تعاونًا رغم ما نصّت عليه معاهدة طنجة من إلزامية مطاردة الأمير من أراضيكم، فهو مخرّب خارج عن القانون.

قال السلطان مستضعفًا: لقد واجهناه في معارك عدّة وألّبنا عليه القبائل الحدوديّة ولم نفلح، له قدرة على الحرب القويّة والخاطفة وسرعة الانسحاب.

أردف ليون روش غير مبالٍ بتبريرات السلطان: جئتكم من أجل إعلان اعترافكم بالاحتلال الفرنسي للجزائر، وبوجوب ملاحقة القبائل الجزائرية الثائرة داخل الأراضي المغربيّة، ونحن نعلم أنّ المساعدات ما زالت تصل للأمير، وما لم تكونوا صارمين معه ستكونون في مرمى نيراننا مجدّدًا.

ولم تمض بضعة أشهر حتى استفزّت فرنسا المغرب بإنزال للجنود في للاّ مغنيّة، وحفرت الخنادق فيما يعتبرونه أرضًا مقدّسة، وقصفت السواحل حيث سقط المئات من القتلى، وجرّت الجيش المغربي إلى حرب يعلم الفرنسيون مسبقًا أنّهم منتصرون فيها بحكم تطوّر عتاد جيشهم وانتظامه وضعف الجيش المغربي واعتماده على حرب تقليدية وفرسان يواجهون المدافع الهدّامة بصدور مكشوفة.

كانت معركة إيسلي المنعرج الحاسم، وكانت هزيمة الجيش المغربي قد سمحت للفرنسيين بإملاء الشروط وأهمّها ترسيم الحدود، وكان ليون روش حاضرًا بكلّ ما أوتي من الدهاء لتكون المعاهدة كما يريدها الجانب الفرنسي، ففي ترسيم الحدود كانت الخطوة العملاقة في اتجاه محاصرة الأمير، وتحديد مجال تحرّكه واللّحاق به داخل الأراضي المغربيّة، وكذلك المزيد من الضغوط على المغرب للانخراط في المعركة ضدّ الأمير بفاعليّة.

ظلّت الحلقة تضيق وتضيق حول الأمير ودائرته الجاثمة على ضفاف نهر الملويّة؛ حيث كان الأمير يتركها أحيانا لأشهر وهو في تنقّل مستمرّ وخاطف مهاجمًا مدافعًا، في وقت كثّف فيه الفرنسيون من ضغوطهم على المغرب بين اعتداءات، وتهديدات، ومعاهدات، وظنّ السلطان المغربي أنّ الانخراط في

حرب الأمير سيبعد الويل الفرنسيّ عن دياره تماما مثلما فكّر ملوك الطوائف من أجداده؛ وتلك أخطر هنات المتربّعين على العروش، إذ التاريخ لا يعني لهم دروسًا أو عبرًا بل حدثًا عابرًا لا يتكرّر. ولم يكن السلطان المغربي وحده من ساهم في خذلان الأمير عبد القادر، فبايات تونس قد سهّلوا قبله دخول الحملة الفرنسيّة وآزروا بالمؤونة والمعلومة وعارضوا وكيلهم بجبل طارق «كرطوز» حين قدّم مساعدة للأمير، طوائف هناك وطوائف هنا وأخرى ستكون، والبحث جارٍ عن سلاطين ليسوا للبيع أو المبادلة.

كان الأمير عندما يعكف في خيمته ليلا ويختلي بنفسه؛ يشرع في استرجاع مسيرة سنوات من مجاهدة قوّة استعماريّة غاشمة يقف خلفها مخطّط غربي متكامل لاقتسام شمال إفريقيا والشرق وكلّ ما يقع تحت طائلة آلتهم الحربيّة من البلدان المستضعفة، وكان كثيرا ما ردّد أمام صحبه: «إنّ نجاح سيطرة الفرنسيين على الجزائر سيؤدّي إلى إلحاق الغرب والشرق بقوى الاحتلال الغربي، نحن بالونة اختبارهم فيجب أن نفشل مخططهم من هنا.

كان كلّما سيطرت عليه فكرة أن تتحوّل بلاد المسلمين إلى مرتع للنّصارى يعيثون في مقدّساتها فسادًا ويستنزفون مقدّراتها؛ تتّقد همّته لمنافحة المحتلّ رغم جبال العراقيل، والمحبطات التي أصبحت تسم تحرّكاته، فكان يقفز على ذلك كلّه ويعود لاستنهاض صحبه وتعبئة نفوسهم إرادة ورغبة في القتال، فلم تثنه الفصول المؤذية ولا ساحات الوغى على وعورتها من خلق بؤر مواجهة مع كلّ القادة والجنرالات الذين مرّوا على الجزائر، في تلك المرحلة التاريخيّة فها هو يشتبك مع الجنرال «جنيتر وبلانجيني» شتاءً، ورغم مقتل حصانين تحته ظلّ صامدًا، ورغم محاولة الإيقاع به من قبل الفرنسيين استطاع الفرار مع ابن سالم والمجاهدين فوصلوا حتى قبيلة

آيت إسماعيل ثم الجنوب الوهراني، وربيعًا من ١٨٤٦ يصل إلى جبال القصور عند أولاد سيدي الشيخ طلبًا للمساعدة ولكنّهم يرفضون؛ خوفا من حرب الإبادة الجماعية التي أصبحت تمارسها القوات الفرنسيّة على كلّ من يقدّم العون للمقاومة.

وكان من حين لآخر يجد نفسه مضطرّا لنقل دائرته من ضفاف نهر الملويّة إلى غيرها من الأماكن حتى يبعدها عن أنظار المطاردين له، ولكن حالته النفسيّة تكدّرت لحادثتين ملأتا قلبه حزنا؛ وذلك عند وقف بن سالم وبلقاسم أوقاسي للقتال وسيدي عبد الرحمان في جرجرة، ولّما استسلم بومعزة للجنرال سانت أرنو، علم حينها أنّ دعائم بنائه الصلب أخذت تنهدّ الواحدة تلو الأخرى، وأنّ أفقه قد ضاق حتى لم يعد يرى عين الشمس بازغة، واكتفى بضباب الغروب وعتمة اللّيالي الباردة الحزينة التي أخذت تخيّم باكرًا على جبال الأطلس فتحجب كلّ شيء.

في ماي من سنة ١٨٤٧ كان الرّبيع على غير عادته في تلك الرّبوع حيث يخيّم الأمير، أنواره باهتة وخضرته بلا لون، تسمع لخرير وادي الملوية فكأنّه النّواح، لا شيء كان يوحي بغدٍ ربيعيّ منتظر، غير أنّ نفس الأمير الممتلئة إيمانًا لم تدع اليأس ينفد إلى روحه فظلّت يقظة، عاقدة العزم على المضيّ قدمًا. ترك دائرته ذاك الربيع في عين زهرة وتوجّه إلى عين أحلاف وسط قبائل الريف التي كانت منذ أشهر سلخت تؤيّده، وقبل أن يصل إلى وجهته التقى بعض الفارّين وطلبوا حمايته وجعلوا يروون فظائع ما تعرّضت له القبائل التي والته، قال قائلهم: أنصحكم أيّها الأمير بالرّجوع إلى دائرتكم، فبانتظاركم قوّة مغربيّة كبيرة هاجمتنا وقضت على قبائل بني عامر والحشم والجعافرة، اختنق عن الكلام فأردف مرافق له وكان في حال يرثى لها: اضطرّ مقاتلو هذه القبائل لقتل أولادهم ونسائهم خشية

العار، لقد استعملوا موتاهم كدروع لتحميهم من الموت، وعندما فشلوا في المواجهة قتلوا أنفسهم حتى لا يقعوا أسرى.

رثى الأمير لحال الرّجال وألحقهم بجنده ولم يتراجع، فقد تمكّن من مهاجمة القوات المغربيّة بسلوان في ليلة شتويّة قاسية لم ينفلق فجرها إلاّ بعد أن قضى على العديد من الرّجال، وانسحب إلى نهر الملويّة لعدم تكافؤ الطرفين، وحتى يحمي دائرته من التقدّم المغربي.

لمّا اجتمع الأمير بمستشاريه للنظر في الظروف المحيطة بهم؛ لاحظ وجومهم وسيطرة توجّس غير معهود على وجوههم فقال: أعلم أن الوضعيّة أصبحت حرجة، وأنّهم تمكّنوا بمعونة إخوتنا المغاربة من تضييق الأرض علينا بما رحبت، وحتى من ناصرنا من القبائل قضوا عليها؛ وبهذا فقدنا أهمّ قوّة عسكريّة كانت تمدّنا بالمقاتلين، وكأنّ مهمّتنا انحصرت الآن في الدّفاع عن الدّائرة والتنقّل بها إلى مكان آمن، المهمّة أصبحت معقّدة ومكلفة، لا أريد خسارتكم.

قال أحد القادة في أسف: تقريبًا صرنا محاصرين، وقد بلغني أنّ الجيش الفرنسي بقيادة رينو ويوسف العنّابي قد سيطروا كليّا على واحات الصحراء فيما لو فكّرنا في اللّجوء إليها.

لم تغب القراءة الجيّدة للميدان عن ذهن رجال المقاومة ولكنّهم لم يضعوا في اعتبارهم فرضيّة بدت مستحيلة، أن يصبح السلطان المغربي في تنسيق مطلق مع قوات الاحتلال في مطاردة الأمير من خلال عمودين رئيسيين، أيسر بجانب جبال الرّيف وأيمن يتجه نحو الملويّة، فحوصر الأمير من الشمال: البحر، والجنوب الغربي تمركزت به القوات المغربيّة بالآلاف، وبالجنوب الشرقي تربّص قائد وجدة وبني سناسن، وظلّ لامورسيير بجنده العرمرم بالانتظار على الحدود الجزائريّة ما وراء النهر.

فكّر الأمير في كسر الطوق الذي أحكم حوله ودائرته فجنح إلى التفاوض معتبرًا أنّ الحلقة الأقرب إليه هو السلطان المغربي إن لم يكن بحكم الجيرة فالعرق، فالدّين فالمصير المشترك، واصطفى البوحميدي للتفاوض مع السلطان؛ غير أنّ هذا الأخير سجن ودُسّ له السمّ فمات، وظلّ السلطان متمسّكًا باستسلام الأمير مجيبًا إيّاه: لا سبيل إلى خلاصك إلاّ بأحد أمرين؛ إمّا أن تسلم نفسك إلينا، وإمّا أن تخرج من هذه الحدود، فإن أبيت أن تجري أحدهما طوعًا نجريه كرهًا؛ معيدًا بذلك عجلة التاريخ لألفي سنة مرّت عندما استنجد يوغرطة بصهره ملك المغرب بوخوص مستنصرًا به في حروبه مع روما، غير أنّ بوخوص لم يتورّع عن تسليمه لغريمته روما.

ظلّ العم الطاهر شاخصًا في الأمواج تتلاحق مزهوّة نحو الشاطئ وقد هبّت نسائم ربيعيّة منعشة، لم يعلّق على ما جرى من أحداث، فقد اكتفى بإصدار تنهيدة كادت تخلع قفصه الصدري وقال لسامر بعد برهة: إحساس غريب يراودني يا ابني، إحساس من لن يرَ وجه السماء ولا صفحات هذا الأزرق المترامي. أمر ما يناديني خلسة وبتواتر نحو عالم غير هذا العالم، أهو الهرم وهلوسته؟ أهو المرض اللعين أخذ يستدرجني حيث اللاّعودة؟... كنت منذ حين أستمع إليك وتأثرت لما آل إليه زعيم مجاهد أحبّ دينه ووطنه، واعتصرت بقيّتي تلك الخيانات الضاربة في تاريخنا حتى غدت أصولًا، كان على الأمير أن يعي منذ موقف السلطان المغربي الأوّل أنّه لن ينجده، ماذا لو ولّى وجهه للصحراء ففيها متسع؟

وأردف خاملًا: عد بنا يا سامر إلى البيت فبي وجع في هذا الصدر، وأخذ يطرقه وهو يلهث: «أنفاسي ضيّقة، لعلّ النسائم على روعتها لم تعد تناسبني.

المقطع الخامس عشر:

المثقف العضوي.

رغم الهيمنة الفرنسيّة شبه المطلقة على الجزائر؛ فإنّ الملك لويس فيليب الأوّل لم يفتأ يدفع باتجاه بسط كامل للنّفوذ الاستعماري الفرنسيّ على كلّ الأراضي الجزائريّة.

لم تخل اجتماعات الملك ولا توجيهاته من هذا المقصد حتى ناقشه أحد ضبّاط المخابرات يوما قائلا: تصرّون جلالتكم على تنفيذ كلّ مطالب الإمداد التي يطلبها جيشنا بالجزائر وقد فاقت طاقتنا، ولا يفوتكم حالة الاحتقان التي تعيشها فرنسا ومنذ سنوات، أخشى أن نسيطر على الجزائر وينخرم وضعنا الدّاخلي، ثمّ إنّ ما يرد من أخبار يؤكّد ضعف المقاومة الجزائريّة بعد لجوء الأمير عبد القادر إلى الحدود المغربيّة الجزائريّة؛ إثر القضاء على عواصمه الواحدة تلو الأخرى، وإنّي أرى أن نعالج مشاكلنا المتفاقمة بتحريض من المثقفين للعمال والفقراء.

بقي الملك صامتًا لبرهة قبل أن يستأذن أحد المستشارين المحسوبين على البورجوازية الماليّة التي تساند لويس فيليب الملك البورجوازي منذ أن اعتلى عرش فرنسا ليقول:

يجب ألاّ تكون نظرتنا محدودة، نحن من وراء احتلالنا للجزائر وتمدّدنا خارج القارة الأوروبيّة؛ نؤسّس لهيمنة على مصادر الثروة تدوم مئات السنين، والتاريخ سيثبت وجاهة نظرتنا، ولا يجب أن تفزعنا لوثات هؤلاء المثقّفين المنادية بالحريّة والمساواة وغيرها من الشعارات الواهية؛ فهي لا توفّر لأصحابها الخبز، وإذا نجحنا عديد المرات في وأد هذه الثورات الدّاخليّة؛ فلا شيء يمنع من انتهاج الأسلوب ذاته.

أمّا عن المثقفين الذين يُفزعون البعض فليس علينا استرضاء جميعهم، يكفي أن يكون إلى جانبنا قليلهم حتى نكسب شرائح مهمّة من الشعب، فهل نستهين بالأديب والمفكّر الكبير فكتور هوجو؛ والذي ظلّ ينافح عن وجودنا بالجزائر؟ فهو المنادي بتنوير الشعوب المظلمة، وحمل الحضارة إلى أوجار البربر، ألم يقل: «إنّها الحضارة التي تدوس على البربريّة، وشعبنا المتحضّر ذاهب إلى هناك ليلتقي شعبًا سابحًا في الظلام، وعلى عاتقنا مسؤولية تنوير العالم»، لقد رأيتموه كيف دافع بشراسة في الجمعية الوطنية على طلب الإمداد الذي أراده الجنرال بيجو حتى يطبق سيطرته الكاملة على الجزائر.. فكره يمهّد لنا أرضًا ملائمةً لتحقيق الرّخاء والثروة.

صفّق لويس فيليب لما سمع مستحسنا الرّأي المتماهي مع سياسته، غير أنّ الضّابط كان يرى الأمور من خلال المعلومات الواردة من أعماق فرنسا وصولًا إلى مستنقع باريس السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

فردّ واثقا: يجب ألاّ نصمّ آذاننا عن حركة الإصلاح التي تنادي بها قطاعات واسعة من الشعب الفرنسي (في إشارة خفيّة إلى موقف الملك)، وهذا الاستياء الذي نواكب تطوّره بصدد جرّ فرنسا إلى المزيد من التأزّم، وقرار اقتصار حق التصويت على ملاّك الأراضي فقط؛ جعل البورجوازيين الصناعيين والصغار منهم ينضمّون إلى بقيّة الشعب النّاقم علينا سيّدي الملك.

كان أحد مستشاري الملك يستمع لكلام الضابط ويحرّك رأسه علامة التوافق، فزجره الملك وهو يقول: لا أظنّك تحمل نفس الفكر ونفس التخوّفات التي يحملها ضابطنا الوفيّ، قال ذلك في نبرة استهزاء.

فقال المستشار وكان يسمّى أدريان دوهمال: للأسف جلالة الملك كلام الضابط كلّه صواب، وأنتم اختبرتم وفاءنا، ولكنّ رغبتنا في المحافظة على عرشكم تمنعنا من تزيين الوضع حتى لا تفاجأوا بما لا تحمد عقباه، النّاس

أيّها الملك المفدّى وبعد منعنا للتظاهر صاروا يعقدون الموائد الشعبيّة، وقد استغلّوا الجنائز، والاحتفالات العائليّة، والمآدب كذريعة للتجمّعات السياسيّة كي يعلوا أصواتهم ومطالبهم، ويهتفوا للحرية والمساواة والأخوّة، وإن كان هوجو يساندنا، فأونوري دي بالزاك أصبح يروّج للفكر الاشتراكي الذي يضرب نظامنا في العمق، ودعا بصريح العبارة إلى الثورة على الملكيّة، ألم تطلعوا على مؤلفه الملهاة الإنسانيّة وفيه قد صرّح بالقول: «يجب منع أيّ طبقة من السيطرة على الحكم»؟

وأعتقد أنّ خطابات ألفونس دي لامارتين في البرلمان قد ألهبت الشعب الفقير، فرغم أصله النبيل انضم إلى العامة في مطالبهم، وقد وصف حكمكم بالرجعي ملخّصا موقفه في العبارة اللاّذعة: «ملّت فرنسا حكمها وسادها السّأم منه».

وإنّ حالة الكساد التي سادت فرنسا وجدت لدى هؤلاء ضالتها، ففرنسا لم تعرف بين هاتين السنتين ١٨٤٦و١٨٤٧ كسادًا مماثلًا؛ فقد عبّأ الفقراء والنّازحون شوارع باريس، وزاد الطين بلّة صدور منع ورش العمل؛ فخرج العمال إلى الشوارع ونصبوا المتاريس وقطعوا الطرق، لقد صاروا غير راضين عن القيادة السياسيّة ويطالبون بمزيد المشاركة في الحكومة وبالديمقراطيّة وحريّة الصحافة، إضافة إلى مطالب الطبقة العاملة في أحيائهم الفقيرة وقد انتشرت فيها الأمراض والأوبئة، الوضع يبشر بحرب شوارع لو حرّكتم الجيش جلالتكم. وأكّد مجدّدًا: «ونحن إذ ننقل لكم الواقع؛ فرغبتنا كبيرة في الحفاظ على عرشكم وأنتم قد خبرتم مدى وفائنا....

فقاطع الملك مخاطبه وهو يزأر: لماذا صمتّ عن رسّام الكاريكاتور المقلّد النّكرة «أونوريه دوميه» الذي جعل وجهي على شكل كومثرى

كناية على تآكل شعبيّتي، سيسجن كسابقه «شارل فيليبيون»، وصاح محنقًا: « استصدروا قانونًا تمنع فيه الحكومة تلك الموائد، وليكن الجيش على أهبة، وواصلوا خنق هؤلاء المخرّبين، أليس حكمنا الملكي قد قيّدوه بالدستور وهم من ارتضوننا على العرش، لا يمكن أن تسير البلدان عن طريق النّزوات أو لوثات المثقفين وأحقاد الفقراء الطبقيّة التي كانت ومنذ الأزل، هل يهلّلون لأفكار تدعو للمساواة بيننا نحن أصحاب المال والنبل وعامة الخلق؟ وضحك هازئًا: «الاشتراكيّة، والشيوعيّة، والبروليتاريا، وأين نذهب نحن؟

ثم نظر الملك لويس فيليب إلى السّقف وهو يتأفّف قائلًا: ما ذكرتموه مقلق دون شكّ، ولكنّنا مازلنا قادرين على المناورة، وبيدنا قوّة السلاح والجيش يسايرنا، هناك أمران لا بدّ من العمل على متابعتهما بالإضافة إلى مواصلة إلهاء الشعب بنجاحنا في احتلال الجزائر ودعم توسّعنا في إفريقيا، إنّها كنزنا الذي لن ينضب، إنّها في طور البدائيّة، نلقي لهم بقبس ضئيل من أنوارنا ونستجلب خيراتهم، إنّها الأرض البكر؛ مناجم الذهب والنحاس والحديد حسب جواسيسنا ومستكشفينا، وهذا ما تحتاجه صناعتنا النّاهضة، وأيدي عاملة من الزنوج نستجلبهم للعمل والبناء..

وعاد ليذكر الأمر الهام الأوّل في نبرة متوجّسة: ما يفزعني حقّا هو التململ الجدّي الحاصل في صقليّة وبوادر الثورة ضدّ أسرة البوربون، وتفكير الصقلّيين في الاستقلال هذا لو تمادى؛ سيكون الشرارة التي يحتاجها مناهضونا في فرنسا، إن لم نقل في كلّ أوروبا فهي تغلي كالمرجل.

أمّا الأمر الثاني: هو أن نواصل سياستنا الخارجيّة المعتدلة، وأن نظلّ على توافق مع انجلترا الفكتوريّة حتى تكون لنا سندًا، ونتقاسم المستعمرات بيننا حسب مصالحنا، أتعلمون أنّ انجلترا وإسبانيا قد كفّتا عن دعم

الأمير عبد القادر بسبب عمل ديبلوماسيّتنا النّاجح؟ واستطرد: « نحن نلتقي موضوعيّا مع جيراننا في أوروبا، فما داعي الحروب التي جرّها علينا نابليون بونابرت؟

مرّت سنة ١٨٤٧ على فرنسا والعاصفة السياسيّة على أشدّها لم تلن ولم تهدأ، نظام متقلقل وحالة مستديمة من الفقر رغم الثورة الصناعيّة، فحظر لتجمّعات المعارضة التي لم تقدر القوانين الاستثنائيّة على شلّها إذ استغلّت كلّ تجمّع لتحويله إلى منبر للنقد والتحشيد ضدّ النظام القائم، واستمرّ الملك في تعنّته ظنّا منه أنّ الشعب لن تخامره فكرة ثورة ثانية مجدّدا؛ لكثرة ما أريق من دماء فيما سبق، وأنّ العيش تحت نظام وإن كان ملكيّا أفضل من الفوضى، وهذا هو الرأي الذي ظلّ بعضهم يوشوش به للويس فيليب فتمادى.

لم يستوعب المستبدّون أنّ طعم الحريّة ألذّ ما تتذوّقه النّفوس وتبتهج له الأرواح وتهتزّ لوقعه الأجسام.

لم يأتِ الملك لويس فيليب بجديد يا سامر، قال ذلك العم الطاهر، وتدثر بغطائه وعزم على النوم.

فردّ سامر وبه رغبة في مزيد من الجدل: كلامك غامض لو بيّنته.

استدار العم الطاهر ناحية الحائط وقد انخفض صوته حتى لم يعد يسمع إلاّ قليله وقال: الاستعمار ليس حدثًا عارضًا أو فجئيّا، اتفقنا؟

لقد خططوا واستقرؤوا الواقع ثمّ نفذوا...دعني يا سامر، فنفسي قد ضاقت، أرغب في الوحدة، وقد هلّ عندي الماضي مبجّلا بأناسه وأقاربه، أرى صورهم وأسمع وشوشاتهم وأحيانا ضحكاتهم وهذا يروق لي... لن أفلت هؤلاء لأهتمّ بحاضر غائم لا ينبئ بالاعتبار، غادر سامر وهو يردّد في نفسه: هذا هو الخرف، كلام غريب وتهيّؤات...أعانك الله يا عمّي.

المقطع السادس عشر:
بداية النّهاية.

كانت الأحداث تتلاحق، وملاحقة الأمير قد بلغت منتهاها، فخطب في مجلس الشورى وهو يائس وحزين: «تذكرون العهد الذي أعطيتموه لي في المدينة، العهد الذي لا يمكنكم نسيانه مهما كانت الأخطار والمعاناة، هذا العهد هو الذي حثني على المثابرة في الجهاد... اسمحوا لي بأن أتبرّأ منه... وأطبقت عليه أنفاسه حتى استأنف بصوت متهدّج: صدّقوني الحرب انتهت، يشهد الله أنّنا جاهدنا طالما كنّا قادرين، وما عليّ إلى الله أدّيته وعند عجزي لاعتاب... فماذا تروْن يا إخوتي؟ هل أسلّم نفسي إلى سلطات مراّكش ليعصموا دماءكم، وينجو أطفالنا ونساؤنا من السبي والتنكيل؟

حينها علت أصوات أعضاده بالإجماع: «لا، وألف لا، كيف تسلّم نفسك لمن غدر بنا وتجاهل ما بيننا من دين ودماء، ألم تر ماذا فعلوا بأخيك أبي بكر وابن أخيك محمد الصّادق، ربطوهما بالقيود بعد نزع ملابسهما وكشف عوراتهما أمام الملأ، وضربت أعناقهما مع بقيّة الأسرى من الجزائريين، وعلّقوهما على أبواب المدينة، لا والله لن نفرّط فيك لو أفنينا عن بكرة أبينا.

فأنشدهم بيتًا للمتنبي:

وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أيّ جانبيك تميل

واستطرد: نحن إذن أمام حلول ثلاثة أحلاها هو العلقم؛ إمّا القتال وهو مرادف للانتحار الجماعي، أو البحث عن طريق للصحراء وفيه من المخاطر حدّ الهلاك، أو نستسلم ونوقف القتال صاغرين للفرنسيين.

قال أحد القوّاد: ماذا لو نجرّب البحث عن مخرج آمن للصحراء بمجموعة صغيرة فلو نجحنا استجلبنا الدائرة؟

فقال الأمير وهو يشعر بأنّ المحاولة ستبوء بالفشل: نجرّب الليلة مقترحك، وإنّه يتوجّب علينا المرور بممرّ عبر الجبال ومنها إلى السّاحل.

وحين أسدل الليل ستاره الغاشي كان موكب صغير للأمير يتّجه جنوبًا على أمل ذاو؛ لكسر الحصار وإيجاد مفلت نحو الصحراء، غير أنّ «لامورسيير» علم بهذا الممرّ فأرسل ليلًا الملازم الأوّل للصبايحيّة المسمّى «بوخُوية « كمستطلع، وفعلًا فقد التقى موكب الأمير وتبادلوا طلقات ناريّة، نبّهت الخيّالة الفرنسيّة وجعلتهم يُقدمون على جناح السرعة، ويحاصرون موكب الأمير في السّاحل، فاضطرّ الأمير للتراجع نحو الدائرة التي تركها متأهّبة للمغادرة وقد منّوا النّفوس الجزعة من المصير المجهول بأمل ضئيل.

كانت الأيّام شديدة القسوة، الشتاء عامها كان غاضبًا جامحًا منتفضًا، العواصف تتناسل من بعضها البعض، وزخّات المطر لا تكفّ عن قرع الأرض وقد صارت أوحالًا وغدرانًا، والأمواه تجرف الأمواه فكأنّما ترمي لقلع الشجر والبشر وكلّ ما ينبئ بالحياة، هي ثورة الطبيعة، هي زمجرتها في وجه الطغيان، هي الطغيان الذي يرفع صوت الجموح أمام ذئاب البشر.

كان الأمير منكسرًا وهو يخاطب إخوانه: بعد انسداد كلّ أفق وتوالي الخيانات؛ فهذا المغرب جارنا قد ولّى لنا الظهر وشحذ في وجهنا الأسنّة، وتلك الأمم البعيدة؛ إسبانيا وإنجلترا كانتا معنا ولكنّهما تحالفتا لمصالحهما مع فرنسا ضدّنا، وباي تونس قد فتح باب العون لفرنسا حتى نُكبّل شرقا وغربا، ساحلا وصحراء وزفر: مُضطرّا سأفاوض الجنرال «لامورسيير»

على الاستسلام، وها أنّ أخبار النّكسة تتوالى فقد استسلم شقيقاي سعيد ومصطفى، فليس لنا أن نُكابر أكثر فيهلك الجميع.

وزفر ثانية وعبرات الخيبة تهمّ بالانحدار غير أنّها تتكلّس في محاجرها؛ فالأسود تئنّ ولا تبكي..:»سأفاوض «لامورسيير» على الأمان لنا جميعا.

وسط مشاعر مثقلة بالهزيمة وشعور قاهر بالغدر نهض القائمون على الدائرة يستعدّون للمغادرة، النسوة مرتعبات يحضنّ الصغار البواكي، ضجيج نقلة الاستسلام باهت وحزين، كانوا أبدا يرتحلون ولكنّ سبل الأمل والإحساس بالعزّة غير تلك المندحرة الباسطة يدها لهزيمة مفروضة، قلع عروقهم من أرضهم مرّ، أشياؤهم تركت ملقاة بلا قيمة حتى الثمين منها، وهل أثمن من وطن يودّعون آخر نسماته الحرّة؟ الخوف من المجهول يبتلع أنفاسهم فكأنّها حشرجات موت لا يأتي.

كانت أنياب البرد تلك الليلة تفترس الأجساد المنهكة فتصطكّ الأسنان محدثة موسيقى جنائزيّة صامتة فمتأوّهة فباكية بلا دمع

كانت تساؤلات الصغار بريئة غير أنّها تنزل على حناجر الكبار كسيوف صدئة لا هي ذبحت ولا هي كفّت عن النّحر، غيض ورعب وهرولة وتصادم النّفوس المشتّتة سيطر على أهل الدّائرة.

تسمع صوت طفل غرّ: يمّة بردان أنا... يمّة جيعان أنا... وتسمع لعجوز في الغابرين ترتعد: « اتركونا نحن المسنّين فلا نثقل ركبكم نحو المجهول فقد ترحمنا ذئاب الفيافي وكواسر جبال الأطلس من ذلّ آت، لا نريد موتة كريهة معمّدة بالصلبان، سنتلو القرآن حتى تلتفّ السّاق بالسّاق.

في ذاك اليوم الشاتي الحزين من ٢١ ديسمبر لسنة ١٨٤٧ اليوم الرّهيب، والشهر الكئيب، والسنة الكبيسة توجّهت الدائرة من نهر الملويّة نحو وادي

كيس ثمّ قمّة كربوس بعد أن أخطر «لامورسيير» بالاستسلام، فأرسل وحدتين مكوّنتين من عشرين جنديّا يرتدون برانس بيضاء لملاقاة الأمير عبد القادر عند الحدود الجزائريّة المغربيّة، وكان هؤلاء الصبايحيّة بقيادة الملازمين «بوقراويّة وإبراهيم» مبعوثيْ الجنرال الفرنسي «لاموريسيير»، كان الأمير في مواجهتهما رفيع الهامّة ينتهك الأفق بعينين ثابتتين، بينما كان ملازما الصبايحيّة يطرقان الوحل بقدميهما، وعلى وجهيهما سحنة كالحة وحياة بلا نبض؛ غير ارتجاج ضمير ميّت مشرب بسكرة العبوديّة.

قال الأمير وهو يخترق عيونهما الغارقة في وحل أرجلهما: سنستسلم ونكفّ عن مقاومة المحتلّ بعد كلّ هذه السنوات المليئة بالانتصارات المكللة بخياناتكم، سنستسلم ولن يكون هذا الوطن لكم بل للمحتلّ.... وهذه الأرض العظيمة لن تستقيم بلا مطر، حدّقوا بسمائها المنفرجة، ستمطر يوما سترجمكم بثوّار وطيور كواسر ترديكم في العدم.

سنسلم آنيًا أرضنا، ولكن انتظروا سيولًا هرهارة جبّارة، وأنهرًا من دماء المخلصين التوّاقين للحريّة، لمزارعنا الخضراء وشاهقات القمم، وصحراء التبر السائب وبحرنا الممتدّ وماضينا الكبير ومستقبلنا الأكبر.

كان يتكلّم دون توقّف، والأعاصير من حوله تؤزّ المكان أزّا، أمطار صاخبة، ورعد مجنون يقصف فلا يدع الأنفاس تهدأ، والليل البهيم قد سربل المكان بستار من السواد المحكم، سماء بلا نجوم مدلهمّة، وفي الأفق قمر منحدر نحو حتفه تجلده الظلمة.

ولمّا كان صمت الملازمين مطبقًا قال الأمير وهو ينهي اللّقاء: «هذان المبعوثان يمثّلاني، سيبلّغان لامورسيير بأنّي أطلب الأمان لنفسي ومرافقيّ، وأمدّهما بورقة بيضاء عليها ختمه إذ لم تسمح الرّيح ولا الليل ولا المطر بكتابة أيّ شيء عليها....

فعل ذلك ثمّ استدار إلى إخوانه ولم يتمكّن من النّظر في أعينهم لفرط تأثّره.

حين تسلّم «لامورسيير» ورقة استسلام الأمير تنفّس الصعداء، فقد أزيح عن كتفيه همّ حرب ضروس دامت أكثر من سبع عشرة سنة أكلت من الفرنسيين المئات ومن الجزائريين الآلاف، علم حينها أنّ الاحتلال قد ثبّت وبأيدي خونة الأرض قبل آلة المحتلّ، التفت آنذاك نحو الرّائد «بازان» وهو يقول بلهجة الفرح المنتصر: «هات ختمك، وهذا سيفي المنحني سأرسلهما للأمير ليعلم موافقتنا على الوعد بالأمان له ولمرافقيه».

ما إن تلقّى الأمير الوعد بالأمان حتى كتب: «أوافق على مغادرة التراب الجزائري شرط أن يسمح لي بالتوجّه نحو الإسكندرية أو عكّا، ولا أظنّكم تخيّبون طلبي البسيط».

وما إن زُفّ خبر استسلام الأمير للمارشال «الدوق دومال» ابن «لويس فيليب» ملك فرنسا؛ وقد خلف المارشال» بيجو» على الجزائر؛ حتى صفّق وانتفض استبشارًا، وكان الدوق قابعا في مدينة «الغزوات « ينتظر قطع آخر شرايين المقاومة، قال له ناقل الخبر: «إنّ الأمير يطلب السماح له بالتوجه نحو الشرق: الإسكندرية أو عكا.

فصادق الدوق دومال على الوعد الذي قطعه «لامورسيير» بالسماح بذلك معبّرا عن أمنيته بموافقة الملك الفرنسي أيضا.

فجرًا وكان مختلفا، ضوء ضئيل باهت يتوارى خلف سحب داكنة تغطي كلّ سماء الجزائر؛ فتبدو كجبل ملقى في كون من الضباب المطر يزخّ قربا قربا والريح العابثة لا تستكين، تصفّر للرعد الصائح بالويل، ذئاب الأطلس تعوي بكاء الثكالى.

في ذاك الفجر الماطر الحزين وقف الأمير أمام حصانه «رضوخ»، مرّر يديه على جبينه الأغرّ، ربّت على ظهره، مشى خطوات وئيدة والحصان خلفه يحمحم، ترنّح الأمير وهو يخاطب فارسًا لم يفارقه: «هذا حصاني رضوخ خذوه للمارشال دومال من أجل ترسيم رمز الاستسلام النّهائي، ثم تنحّى جانبا وانكب على الأرض يقبل تربتها ويلهج بصوت خافت لا يسمع، وكان الفجر قد ازداد قتامة وغطى أديم الأرض واستولى على السماء...وبلغ ترقب الترحيل منتهاه، حتى كانت صبيحة ٢٤ من ديسمبر ١٨٤٧ حين أقلّ الأمير ومرافقوه على متن الباخرة «سالون» باتجاه وهران.

قال الأمير لمرافقيه وهم في الباخرة: قيل لي سنبقى أيامًا بوهران، ثم نتوجه نحو الشرق كما وعدوني.

كان الأمير يحاول أن يبعد عنه التوجّس فقد خبر نكثهم كثيرًا، وظلّ مكدّر القلب، يلازمه وخز بلا انقطاع، وكان يجاهد قسمات وجهه الكئيبة حتى ينشر أمنا في نفوس أفزعها الخوف من حوله.

ليلة واحدة قضاها الأمير في وهران...ليكون قرار المغادرة مبكرًا، فجرًا جاءه الأمر، فجرا كان السلب: «هات سيفك وخيلك لن تحتاجها بعد اليوم، سترحلون أيها الأمير، وكان صوت «أحمد الصقال» قائد منطقة تلمسان ينادي مزهوًا: «جمالكم وبغالكم وأحصنتكم وما تملك دائرتكم؛ سنبيعها لسلطات الميناء».

البارجة الحربية الفرنسية تغادر ميناء» الغزوات «، وبينما كان يُنتظر وصولها شرقًا إذ بها ترسو بميناء طولون الحربي، وإذا بحاكم طولون يقف أمام الأمير ليقول له: إني مأمور بإنزالك هنا في برج لاملاغ الحربي حتى تأتي الأوامر الجديدة من باريس.

فتأسف الأمير لهذه الخيانة، وقال في رسالة وجهها إلى الملك الفرنسي: «لو كنا نعلم أن الحال سيؤول إلى ما إليه آل، لم نترك القتال حتى تنقضي منا الآجال».

كان الأمر صاعقة قد عصفت بالأمير الذي طالما حلم بالعودة إلى الوطن، وكان اختيار الاسكندرية ممرّ الحجيج الجزائريين أملًا باهتًا يخالج سرّا ظلّ بين طيات قلبه كنزًا للمستقبل.

كانت البارجة «لاسمودي» تنفث في الميناء صوتًا منكرًا، وكان الأمير مع عائلته وأطفاله ورفقائه يُجرّون من على متنها نحو المعتقلات الفرنسية. صاح الأمير فيهم كأسد جريح: هل هذا كان عهدكم، أين دوقكم وجنرالكم، بل أين كلمة فرنسا؟ هل تحنثون؟ هل تغدرون بأسير منزوع السلاح؟ هل تحوّلوننا إلى معتقلاتكم؟ فرنسا المحتلة، فرنسا المخادعة، فرنسا الواعدة الكذوب...

كانت ليلة سماع المقطع الخامس عشر مؤذية، هبّت ريح عاتية، ركبت ذيلها سحب دكناء ممطرة فتحوّل الدفء الربيعيّ إلى صقيع شتوي مباغت، في ذاك المساء لاحظ سامر تغيّرًا في سحنة العم الطاهر؛ حيث علت وجهه حمرة واتسعت عيناه كما لم يحدث أبدًا، بدا نشيطا، انتقل بين الغرف، جسّ أمتعتها وتفقّد أشياءه القديمة ثم قال: سأكتفي الليلة بنقيع الأعشاب الدافئ مع قليل من العسل، حتى الدواء لا أحتاجه، أنا بخير، بأفضل حال منذ أشهر، وأنتظر أن تسمعني مقطع المصير.

وما هي إلاّ لحظات حتى تمدّد على سريره وظلّ يستمع متفاعلًا تارة، مبديًا حزنه وتعاطفه أخرى، حتى شارف المقطع على نهايته وإذا بسحنة العم الطاهر قد تغيّرت، استبدّ به ضيق تنفّس فظيع، علاه شخير مباغت،

وجحظت عيناه، واربدّت شفتاه؛ فسارع سامر يدعو الطبيب القريب، وما إن عاد حتى وجده قد أسلم الرّوح لخالقها.

كانت الليلة مؤذية، انهار سامر وهو يغمر جثمان العم الطاهر وقد عجز عن العويل، هبّ الجيران لخبر وفاة الجار الطيب الودود وأقبل الأستاذ الجزيري على عجل.

مضت على سامر أسابيع حزينة طلّق فيها الحياة وتاه في أزقّة مدينة ظنّ أنّها كفّرت عن ماضيها معه وأنّها احتضنت وحدته، فإذا هي في نظره كتلة من سراب آخر يعيده إلى سرابه الأوّل، جال في الضواحي يبحث عن ردهات من السعادة الهاربة كان قضاها مع العم الطاهر، حتى دعاه الأستاذ رافع الجزيري يوما مؤنّبًا: أراك تبالغ يا سامر، فالموت حقّ ونكرانه عبث، ثب إلى نفسك وعملك.

أجهش سامر باكيًا وهو يقول: من سيهتمّ لما أكتب؟ العم الطاهر أحياني، بعث فيّ روحًا، واستمع لتسجيلاتي لآخر لحظة من حياته.

ربّت الأستاذ على كتف سامر قائلا: نحن لا نكتب للأشخاص، عملنا شهادة في وجه النسيان، لن يذهب بحثك سدىً، سنكمله سويّا، وقد انضمّت إلينا مُتخرّجة حديثا من قسم التاريخ، متطوّعة قد تستفيد لوجودها، وتبسّم في خبث عند منصرفه.

المقطع السابع عشر:

فرنسا ١٨٤٨ الثورة ثانية: ربيع الشعوب.

كان البركان في فرنسا قد بلغ مداه، أعناق ثورة ثانية تطاولت حتى بلغت أعالي القصر الملكي، تكتلت الطبقات الثائرة، انضمّ الفقراء إلى البورجوازية الصناعية التي نبذها الملك لويس فيليب واكتفى بالبورجوازية المالية من مُلاّك الأراضي، وتغنّى الكادحون المسحوقون بأغاني الثورة وشعاراتها التي نمّقها المفكرون والكتاب، وشاع بين أيدي المثقفين والعوام روايات الواقع المرّ، وقريبًا من الجنوب الفرنسي ثار أهل صقلية على حكم «البوربون»، وتناثرت شظايا الثورة في أنحاء أوروبا.

في هذا التاريخ الملتهب غرة جانفي ١٨٤٨ حلّت بفرنسا البارجة «لاسمودي» بعد رحلة دامت خمسة أيام؛ لتبدأ رحلة التشتيت القسري للأمير ومرافقيه بين طولون، وشبه جزيرة لازرات، وفور لامالاغ، وسجن بو.

من البارجة «لاسمودي « كان الأمير يجيل نظره في الميناء الحربي لمدينة «طولون» وقد حدّتها التلال المشجرة من الأعلى وعلتها ظلال الحصون القديمة المطلّة على الجبل والبحر، ومن هناك تراءى الساحل البحري المجاور للجداول المظللة بأشجار الصنوبر الجميلة المنحدرات العالية المعروفة بلونها الأحمر الجذّاب، المضائق الصغيرة والمياه الفيروزية الشفافة المتلألئة على المنحدرات.

«طولون» تلك المدينة الفرنسية الجنوبية الرائقة المطلّة على البحر الأبيض المتوسط، بدت رغم جمالها سجنًا كبيرًا في عيني الأمير وهو يُقاد مع جزء من أسرته إلى حصن «لامالاغ»؛ الحصن الذي حوّلوه إلى سجن

دون تهيئة مسبقة، كان على علوّ شاهق سجن رهيب، بارد، رطب، ممراته الضيقة سيّئة الإضاءة... في هذا السجن كانت نساء الأمير يبكين وهنّ يعانقن «للاّ زهرة» الصامدة، وفيه مرض الصغار وأصيبوا بأمراض الرّبو، وفيه ارتقت الأرواح بعيدة غريبة عن منابتها.

لم يصمت الأمير وظلّ يطالب بحريّته، راسل شخصيات داخل فرنسا وخارجها، توافد عليه المسؤولون حتى أنّه خاطب الجنرال «دوماس» مبعوث رئيس الحكومة «فرانسوا غيزو» ردّا على قوله:عليك أن تنسى الوعود المقطوعة لك».

فقال له الأمير: إذا كان بإمكانك أن تأتيني من قبل ملكك بكل ثروات فرنسا مجمّعة أموالاً ومجوهرات تضعها في ذيل هذا البُرنس لرميتها حالا في هذا البحر الذي يلطم جدران سجني، ولا أعود عن المطالبة بتنفيذ العهد الذي قُطع لي علانية، هذا العهد الذي سأحمله إلى قبري، إنني ضيفكم، فاجعلوني أسيركم إن أردتم؛ لكن الخزي والعار سيلحق بكم لا بي».

استقرّ الأمير بسجنه، ولكنّ الأوضاع بفرنسا لم تستقرّ بعد أن نمت موجات الاستياء الشعبي، وتضاعف أعداد الفقراء والمهمّشين واشتعلت الأسعار، ولم يعد حتى الخبز في المتناول، بينما يرفل الإقطاعيون والبورجوازية في نعيم الحياة.

وكانت مقولات الديمقراطية والليبرالية والقومية والاشتراكية قد أخذت تشق طريقها إلى الأذهان، ونادت طبقات عدّة بضرورة الإصلاح وتقييد سلطات الحكم والكنيسة، غير أنّ الملك لويس فيليب قد أصمّ أذنيه عن حركة الإصلاح، وأوقد بصنيعه شرارة الثورة.

ولم يحلّ شهر فيفري حتى أسقط الملك لويس فيليب وفرّ إلى انجلترا.

كان الأمير في ذلك الخضمّ المتلاطم في فرنسا معتكفًا في سجنه؛ حتى فوجئ بزيارة الرسّام الفرنسي «أوراس فارنيي» في مهمّة سريّة من قبل الملك لويس فيليب قبل سقوطه.

قال «أوراس» للسجانين وهو يهمّ بدخول السجن: جئت مرسلًا من ملك فرنسا لويس فيليب حتى أقابل الأمير وأرسم له بورتريه.

تبادل الحراس بينهم حوارًا على عجل، حيث نطق أحدهم متأفّفا: لم نفتأ نستقبل المثقفين في هذا السجن بعد أن كان نسيا منسيا، بارحنا منذ أيّام الشاعر «ألفونسو دي لامارتين» وكان يُبدي تعاطفا كبيرا مع «عبد القادر»، وقد شتم في حضورنا «فكتور هوجو» قائلا: «لقد نعت الأمير بقاطع الطريق وبأنّ يديه ملطختان بدماء الأبرياء، ولكن ماذا يفعل هذا الأمير هنا عندكم بين جدران سجن كئيب؟ بل ماذا تفعل فرنسا هناك وراء البحار؟ هل فعلا حملت لشعب الجزائر نعم الحضارة؟ الحرية ليست حكرًا على شعب دون شعب؟ وغادر مغضبًا.

لّما أدخل الرسّام على الأمير أدّى له التحيّة ثمّ استأذن الحراس في مقابلة دون حراسة، وما إن اختلى الرسام بالأمير حتى أسرّ له: «لقد جئتك من قبل ملك فرنسا والذي بدا متردّدًا في موقفه من سجنك».

فقال الأمير: إذا كان الملك متردّدًا في ترحيلي إلى وجهتي المطلوبة حسب وعد ابنه لي والجنرال «لامورسيير»؛ لماذا تزورني؟

قال الرسام: في الظاهر هو رسم البورتريه، ولكن أردت توضيح موقف الملك؛ فهو لا يستطيع الوقوف ضدّ رغبة البرلمان الذي يمثل الشعب نظرا لحدود النظام الملكي الدستوري، وأنّ وزراءه جبناء لاتخاذ مثل هذا القرار؛ لذلك سيعمد شخصيًا إلى تطبيق الوعد، ولكن ننتظر ريثما تستقر

الأوضاع. وقد غدت فرنسا منذ أشهر على كفّ عفريت ونيران العصيان والثورة لم تنطفئ برغم القمع والعنف الذي رافق كل التحركات.

لم يمكث الرسام «أوراس» غير أيام معدودة عانى فيها من برودة السجن ورطوبته، حتى اهتزت فرنسا لسقوط الملك لويس فيليب وفراره في شهر فيفري ١٨٤٨، فعاد الرسام إلى باريس دون أن يخط خطًا واحدًا في البورتريه، ودون أن يكون هناك أمل في إطلاق المغدورين من قبل فرنسا.

ظلت الحكومة المنتخبة تدير شؤون فرنسا حتى شهر ديسمبر من سنة سقوط الملكيّة، حيث انتخب «لويس نابليون بونابرت» رئيسًا للجمهورية الثانية وقد آزره الفلاحون خاصّة، وكان يجرفه طموح تحويل فرنسا إلى إمبراطورية تذكر بعهد عمّه «نابليون بونابارت» الزاخر بالانتصارات والتوسع، فلم تنقض سوى ثلاث سنوات حتى علّق المجلس المنتخب، وأعلن قيام الإمبراطور ية الفرنسية الثانية.

واستحوذت عليه أفكار التقدم بالبلاد، وتحسين الأوضاع الاجتماعيّة في فرنسا، وتغيير وجه العاصمة كليّا؛ لتصبح أروع العواصم في أوروبا، ولم ينس في خضمّ هذه المشاغل أن يزور الأمير عبد القادر في سجنه، ويمهّد له سبيل مغادرة فرنسا.

كان ذلك اليوم الصباحي مختلفا حيث بدت الحركة في السجن غير عادية؛ قبل أن يحلّ موكب الإمبراطور نابليون الثالث على الأمير، فبشره بإطلاق سراحه وأهداه سيفا مرصّعا وقال له: لقد سلّمت سيفك لفرنسا، ولكن فرنسا لا تريد أن تخرج منها بدون سيف، ورتب له كلّ عام خمسة آلاف ليرة فرنسية، وأقام له مأدبة عشاء حضرها علية القوم والمثقفون،

لمسة اعتذار، وعي بما اقترف أسلافه ضدّ الفارس النبيل الأمير عبد القادر وتلميعا لصورة فرنسا الجديدة.

أربع سنوات قضاها الأمير متنقلا بين سجون فرنسية عدة، ورغم مشاقها ظلّ عالي الهمّة، مرفوع الرأس، ثابتًا لم يعرف الإحباط سبيله إلى قلبه المتقد حبّا للجزائر، مؤمنًا أنّ الظلم ظلمات، وأنّ الحريّة ستخترق كوّة السجن وتلجم يد السجان يومًا.

لم يدم مقام الأمير وأسرته طويلا «بالقسطنطينية» التي وصل إليها في شهر جانفي ١٨٥٣؛ حيث قابل السلطان عبد الحميد خان واستأذنه في التوجّه إلى بلاد المشرق. وقد اشتدّ وقع الزلازل في مدينة بورصة وتأذّى السكّان ما اضطرّ السلطان إلى السّماح بنقلة الأمير إلى دمشق الشام.

وصدرت الأوامر إلى «محمود نديم باشا» والي دمشق بالاستعداد لاستقبال الأمير وإعداد السكن اللاّئق به.

المقطع الثامن عشر:

تغريبة الأمير

ضمّ البحر بين أمواجه الأمير ومرافقيه مرّة أخرى في تغريبته عن وطنه الجزائر، وأرست السفينة المبحرة من القسطنطينية في ميناء بيروت، كان الوجوم المشوب بفرح الانعتاق يسري في نفوس المرحّلين، وسرعان ما علت وجوههم الغبطة حين رأوا جموع اللبنانيين المستقبلين لهم؛ وقد بالغوا في الترحيب بهم وإكرامهم، كيف لا وقد كان على رأسهم المقاوم الشرس والعالم الجليل الأمير عبد القادر؟

قال الأمير في جموع المستقبلين شاكرًا: لو كان بإمكاني لأقمت حينا عندكم بلبنان وآخر في دمشق، أخجلتموني بهذا الاستقبال المشرّف، نحن أمّة واحدة، وإنّه ليُحزنني إبعادي عن موطني، ولا أجد السلوان إلاّ بوجودي بين إخوتي وبني جلدتي.

مضى زمن قليل قبل أن يُعدّ مركب عربات تجرّها الخيول المطهّمة للسيّر نحو دمشق الفيحاء؛ حيث استقبل الأمير على مشارف المدينة استقبال القادة العظماء. وتفرّغ من حينه للتدريس في الجامع الأموي وفي دار الحديث، ليستمرّ لسنوات زار فيها بيت المقدس، والخليل ومزاراتها التاريخية، وأضرحة كل من القائد الكبير خالد بن الوليد في حمص، والخليفة العادل عمر بن عبد العزيز في دير سمعان قبل أن تندلع فتنة الشام ١٨٦٠ بين طائفة الموارنة المسيحيين وطائفة الدروز من المسلمين، وقد كان غطاؤها دينيا، وأسبابها العميقة كانت طبقية ذات أبعاد اجتماعية واقتصادية وسياسيّة.

اشتعلت الحرب الأهلية في جبل لبنان لتصل إلى شوارع دمشق، وسقط القتلى والجرحى بالآلاف، واستطاع الأمير عبد القادر أن يتفطن إلى دور

القوى الخارجيّة في إذكاء نار هذه الحرب، فكان وقوف فرنسا إلى جانب الموارنة بحجة حماية الأقليات الموارنة المسيحيين، ودعمت انجلترا الدروز، بينما كانت السلطة العثمانية تشهد بداية انهيارها وضعفها ممثلة في ولاّتها. علم الأمير أنّ تلك الحرب هي بوّابة التدخّل الأجنبي، وهو الذي عانى كما كلّ الجزائر ويلات الاحتلال الفرنسي وسجونه، كما كان متشبّعا بروح التسامح الذي تعلّمه من دينه، فهبّ لإيقاف المجازر مستعينا بمرافقيه من الجزائريين والعائلات الدمشقيّة العريقة، فاستقبلوا المسيحيين الموارنة الفارّين من جحيم القتل والتشريد، ومكنوهم من الحماية رغم أعدادهم المؤلفة، وكفوا شرّ فتنة أغرقت بلاد الشام في الدماء، كان الفارّون من الرهبان والراهبات والقناصل الأجانب قد وجدوا الطرق مؤمنة إلى بيروت وخارج بلاد الشام، وكان وقوف الأمير حازمًا ضدّ الفتنة الطائفيّة بين أبناء البلد الواحد، فأوقف المعتدين من المتشدّدين عند حدّهم مذكّرًا بقيم الإسلام الحقيقيّة المنافية للتعصّب حتى لو صدر عن أبناء دينه.

فكفّت حينها فرنسا يدها وقد كانت تستعدّ لإرسال كتائب عسكريّة للتدخل بذريعة حماية المسيحيين. وانتصر استشراف الأمير على دهاء فرنسا وجشعها حتى قال المؤرخ تشرشل متحدثا عن الأمير: «يا له من قدر عجيب وفريد من نوعه، عربي مسلم من سلالة النبيّ محمد يحمي ويصون عروش المسيح، ويخمد هيجان أوروبا المسيحيّة وغضبها».

وحين خمدت نار الفتنة وذهبت ريحها التي كانت تنفخ فيها فرنسا وانجلترا؛ تمهيدًا لاحتلال لن يتأخر، ووعود لتوطين لليهود ستجد الأرضية قد مُهّدت من سنوات سابقة، جلس الأمير بتواضع العظماء يواصل رسالته في التدريس والتأسيس لوعي تحتاجه الأمّة، وإذا الوفود الأوروبية قد شرعت بالتوافد لشكر الأمير علىً موقفه النبيل، وتهافتت الإشادات الدوليّة، ووصلته هدايا وأوسمة؛ فقدمت روسيا الصليب الأكبر للنسر الأبيض، وأرسلت فرنسا

الوشاح الأكبر لجوقة الشرف والرمز المعدني، ومنحته السلطة العثمانية وسام المجيديّة من الدرجة الأولى، وغيرها من الأوسمة من مختلف أنحاء العالم، ليسطع نجم الأمير عبد القادر في سماء العالم بتسامحه ونبله وإنسانيّته.

نظر الأستاذ إلى سامر وهو يقول: هل حصلت على جواب سؤال طرحته عليّ قبل الانطلاق في هذا العمل الجبّار؟ أذكر أنّ موقفك يومها كان مذبذبًا حول حقيقة الأمير عبد القادر.

فقال سامر: صحيح كنت خالي الذهن من المعلومة، ومتى توفّرت ومحّصت الأخبار وصلت للحقيقة، فالأمير لم ينتسب للمحافل الماسونيّة كما روّج لذلك بعض المؤرّخين، وكما أذاع ذلك بعض الكتاب أمثال جرجي زيدان الذي ألّف روايات تاريخيّة عدّة؛ ولكن جانب الخيال فيها، واختلاق الوقائع والأخبار بلغ من التشويه المقصود مبلغًا شنيعًا، فقد يكون لانتمائه العقائدي أثر جليّ فيما كتب، وهذا ليس موضوعنا أستاذي، غير أنّ الافتراء الذي لحق بشخص الأمير قام على أسباب هشّة قابلة للدّحض خارج نظريّة المؤامرة، فالمروّجون لانتماء الأمير للماسونيّة استغلّوا وجود تلك الأوسمة والنياشين التي أرسلت له إبّان إطفائه نار الحرب الطائفية بين الموارنة والدروز، واعتبروا أنّ ما قام به من إنقاذ لخمسة عشر ألف مسيحي كان بالتنسيق مع فرنسا وبأوامر من قنصلها في دمشق، كما أنّهم استغلّوا واقعة عودة الأمير من بلاد الحجاز ومروره بالإسكندريّة؛ حيث استقبله القائمون على محفل الإهرام الماسوني التابع للشرق السّامي الفرنسي لشكره على ما قام به، فاعتبروا أنّ مشارب الأمير قد وافقت مبادئ الماسونيّة من كلّ الوجوه، دون أن يفرّقوا عمدًا بين أن تستقبل لتشكر على صنيع نبيل، وبين انتماء حقيقي للمحفل الماسوني أو غيره.

ثمّ هل من تفسير لسبب إعلان الحركة الماسونيّة لترّهة انتمائه إلى محافلها بعد وفاته سنة ١٨٨٣ مباشرة؟

لقد احتفوا به في هذا التاريخ، وزعموا أنّ هناك نصوصًا ماسونيّة موثّقة تثبت انتماء الأمير للحركة الماسونيّة، ولكنّ هذه النّصوص لم تر النّور إلى اليوم، إنّ تاريخ هذا الافتراء اختير بعد الوفاة بعناية؛ فيستحيل الردّ من الأمير أوّلا، وحتى يؤسسوا لقبول شعبي بهذه المحافل لدى عامّة النّاس الذين اتخذوا من الأمير رمزًا وقدوة، إنّه الخبث الاستعماري في أرذل صوره، ألا تشاطرني الرأي أستاذ؟ عدا العلاقة المتينة التي شرعت تبنى منذ ذلك التاريخ بين الماوسونيّة والحركة الصهيونية، فقد انتشرت هذه المحافل في الشرق كما في شمال إفريقيا انتشارًا كبيرًا؛ وكانت تشتغل في كنف السريّة، فقط سأكتفي بذكر بعضها في تونس؛ مثل محفل أطفال قرطاج، ومحفل المثابرة، ومحفل أطفال مارس بسكيكدة، ومحفل نجمة الساحل بقسنطينة بالجزائر، وغيرها العشرات.

بتّ مقتنعًا أنّ هؤلاء لا يريدون أن يكون لنا قدوات ورموز نُطلع الأجيال على سيرهم؛ حتى يستوحوا منهم القيم النبيلة.

كان الأستاذ يتابع تحليل سامر بكلّ انتباه وتماه وإعجاب قبل أن يختم بقوله: هدفي من جعلك تبحث عن الإجابة بمفردك قد تحقّق جزئيّا، غير أنّك في بحثك حول ليون روش وعلاقته بالاستعمار الفرنسي توقّفت عند الجزائر، ألا ترى أنّه مثّل يد فرنسا في بلدان مجاورة؟ قال ذلك وأنهى حواره مع سامر.

حدّق سامر في الأستاذ وظلّ يعيد طرح السؤال بينه وبين نفسه وهو يردّد: ما مطلب الأستاذ هذه المرّة؟ وهل أظلّ أنقّب صفحات التاريخ بحثًا عن أذرع هذا الأخطبوط الملعون «ليون روش»، ومدى مساهمته في توطين أشرس استعمار على وجه الأرض، قُطع ذيله ومازالت جذوره تتمدّد في أرضنا وما نستنشق من نسمات؟

المقطع التاسع عشر:

الجاسوس.

بات سامر ليلته مسهّدًا، يستحضر اسم ليون روش حينًا، ويذكر نورا الطالبة الملحقة بمركز البحوث حديثًا أحيانا وهو يكلّم نفسه: «هل يُدرجها معه في بحثه؟ هل تكون مثله فتحمل همّا يتعلّق بالأوطان ركبه منذ دلف إلى هذا المركز؟ قد تكون مهتمّة بمشاغل أخرى لا يدريها.

صباحا ولّما جلس سامر إلى نور بادرها قائلًا: أتمّ بحثًا عن شخصيّة تاريخيّة.

قاطعته قائلة: اهتمامي منصبّ حول التاريخ المعاصر والرّاهن.

تبسّم سامر وهو يومئ برأسه: سياقنا التاريخيّ واحد، هل قرأت عن ليون روش؟

هزّت رأسها نافية ثمّ قالت متخابثة: ولكنّ البحث «يجيب»، وختمت: «ماذا لو وضّحت لي الخطوط الكبرى حتى أتمكّن من المواكبة».

نطّ سامر مستبشرًا: نعم إليك كلّ ما كتبت، خذي وقتك للاطلاع، ثمّ نتفق على خطّة عمل لو استهوتك المسألة.

مضى أسبوع قبل أن تعود نور عابسة الوجه وتتجه نحو سامر لتقول له: لقد أوغلت في الحديث عن الأمير عبد القادر، ولم تأت على ذكر تونس إلاّ عبر أسطر يتيمة في علاقة بتعاون الباي مع الاحتلال الفرنسيّ أثناء غزو الجزائر، في حين أنّ فرنسا لم تكن لتترك حدودها الشرقيّة ولا الغربيّة دون سيطرة.

استبشر سامر وهو يعتقد أنّ الطالبة نور اندمجت كلّيا مع البحث، وأنّها ستكون عونا له فيما تورّط، فقال لها: في الحقيقة كنت أنوي التوقّف عند

انتهاء حياة الأمير خاصّة، وأنّه تزامن مع نهاية حياة العمّ الطاهر الذي واكب عملي إنصاتًا ونقاشًا لولا ما طرحه الأستاذ في آخر لقاء بيننا.

أردفت نور: إنّ تتبّع أعمال ليون روش، واتصالاته، ومواقفه سيقودنا حتمًا إلى تونس، فقد اطلعت على وثيقة ترجع إلى ما قبل ترحيل الأمير عبد القادر ونفيه؛ تفيد أنّ ليون روش قد ساورته فكرة هدفها الأهمّ كيفيّة التمهيد لاحتلال تونس، وقد أطلع عليها المقيم العام بالجزائر وطار بها إلى فرنسا بحثًا عن التأثير في مواقع القرار، وقد وجدها مهيّأة فعاد بضوء أخضر، وكان يكرّر لكلّ المسؤولين الفرنسيين بالجزائر: أعتبر أنّ الأمير عبد القادر والثوّار قد انتهوا، الخناق خانق، ونصرنا سيكون باتّا؛ لذا أستأذنكم في تسهيل إقامتي بتونس لأستخبر أمر تلك الإيّالة.

ولم يمض شهر من طلب الإذن حتى كان ليون روش يؤم شطر تونس ويستوطن عاصمتها.

كانت رحلة ليون روش إلى تونس من الشرق الجزائري عبر الشمال الغربي التونسي، حيث شرعت الخيول تقطع الطرق الغابيّة والمسالك الجبليّة، وبدت عن بعد خيم الرّعاة وقطعانهم؛ وهم يتأهّبون للتوغّل داخل الغابات والأماكن الوعرة كلّما زار الغرباء مناطقهم، كلّهم في نظرهم محالّ مجبى وعساكر الباي النّاهبة لما يملكون.

نظر ليون روش لمرافقيه قائلًا: ما الذي يفصل الجزائر عن تونس غير هذه المسافة التي قطعنا؟ فهل من مبرّر لبقاء هذه الإيّالة المنهكة خارج سلطتنا، حماية حدودنا شرقًا وغربًا بات ضرورة ملحّة؛ خاصّة بوجود بعض المناوشات الحدوديّة من حين لآخر.

كان الطريق إلى تونس ممهّدا؛ إذ لم تجد القافلة حاميةً أو جندًا أو حرسًا، فحتى الذين تعوّدوا الإغارة وقطع الطرق لم يجرؤوا على الأسلحة المشرعة لمرافقيّ ليون روش. وكانت مظاهر الفرقة بادية، تشتت السكّان يوحي بوضع اجتماعي مفكّك تحكمه مملكة المركز وما يحيط بها من حواشي القبائل والعروش والدواوير.

لمّا وصل ليون روش إلى تونس هبّ لاستقباله القنصل الفرنسي وبعض الجالية من التجّار بعد أن هيّأوا له الإقامة، فلم يكد ينفض عنه غبار السّفر حتى تحرّك في كلّ الاتجاهات ينقّب عن وضع الإيّالة ورؤوس الحكم بها.

قال ليون روش للقنصل «دي لاجو» ومعاونيه: مطلوب منّا أن نلمّ بما يجري وكيف تسير الأمور هنا داخل القصر وهناك في المناطق النّائية، لا تنسوا أن توافوني بأعمال القناصل الأوروبيّة والسلطة العليّة، حدّدوا لي لقاء مع رؤوس الجالية اليهوديّة أيضا.

ومضى يصل ليله بنهاره لا يفتأ ينقّب، يتواصل ويربط العلاقات حتى تمكّن من معرفة حقيقة الوضع السياسي والاقتصادي الذي كان يخيّم على الإيالة التونسيّة في أعقاب حكم المشير أحمد باشا باي، وشرع يرسل إلى فرنسا والمقيم الفرنسي بالجزائر الرّسائل تباعا.

كتب بإسهاب: إنّ وضع الإيالة التونسيّة يختلف على ما كان عليه وضع الجزائر عندما غزتها قوّاتنا، لقد اكتسبت العائلة الحسينيّة الحاكمة منذ عقود تجربة في الحكم وحقّقت نوعًا من الاستقلاليّة، لقد وجدنا نوعًا من الشعور بالانتماء والخصوصيّة، ولا يخفى عليكم المحاولات الإصلاحيّة التي سعى إليها المشير»أحمد باشا باي» متأثّرا بزيارته لفرنسا؛ بعد أن وقف على مظاهر النهضة والتقدّم في وطننا، فقد حاول استنساخ بعض

الآليات؛ وأهمّها محاولة تعصير التعليم والصناعة والإدارة عن طريق ما عاين في فرنسا، وما استجلب من التنظيمات الخيريّة العثمانيّة .

واستطرد: ولعلّه من الخطأ أنّنا كنّا قد أطلعناه على صناعة الأسلحة وغيرها؛ فقد أسّس المدرسة الحربية التي ساعدت في تخريج الضباط، وأرست نواة جيش بمشاة وخيّالة ومدفعيّة بحريّة، نعم ساعدته أوروبا وتركيا بالأساتذة والخبرات. ألم نفكّر في خطر امتلاكه لقوّة تقدر على الوقوف أمامنا؟

لقد تبيّن للمشير أحمد باشا باي أن الخطر المهدّد لحكمه سيكون قادما من البحر؛ فاشترى أسطولًا كبيرًا وباخرة «الحسينيّة»، بل وشيّد دارًا للصناعة «ترسخانة» لصناعة السفن والأسلحة، وأعدّ مستودعات للذّخيرة... فعلًا فكّر ومستشاريه في الخطر الدّاهم من البحر. فهل فكّرنا في سوء ما قمنا به من خلال تقويته وفي نيّتنا أن نحتلّ تونس؟

يا سادتي، لقد بنى مدينة كاملة على النّمط العصري أطلق عليها اسم «المحمّديّة»، ونقل إليها مركز الحكم في قصر قلّده على نمط «قصر فرساي» الذي انبهر به أثناء زيارته إلى باريس، أي أنّنا أطلقنا يديه أكثر من اللاّزم، وقد يتعبنا أثناء التدخّل في تونس لولا أنه عجز عن إتمام إصلاحاته التي كلّفته أموالا طائلة وحال البلاد من الضعف والتشتت وكثرة الضرائب جعله لا يبلغ أهدافه، فتراجع عن كثير من المنجزات المبرمجة. وقد عبّر أحد المقرّبين من الباي عن ذلك بالقول: «إنّ طباع ملوك المغرب تميل إلى الفائدة السريعة الحاصلة من غير التفات إلى المستقبل، بخلاف أمم الإفرنج فإنّهم يصرفون الأموال لفائدة يمكن حصولها بعد سنين».

المهمّ كفانا الربّ شرّ منجزاته.

وقد أكّد لي القنصل «دي لاجو» تدخّله عن طريق جاليتنا وأصحاب المال للضغط وإفشال الكثير من مخططاته.عدا أنّ إصلاحاته بقيت مركزيّة لم تتجاوز حاضرة تونس، وظلّت الأطراف والجهات على بدائيّتها وتخلّفها، فإنّنا سنكون في مواجهة دولة بكلّ مقوّماتها.

لقد أحاط نفسه بجملة من المستشارين المتنوّرين ذوي ولاءات وطنيّة؛ وهذا خطر على مصالحنا، وعلى رأسهم أحمد بن أبي الضياف ذي الولاء القبلي الحسيني؛ فقد رافق المشير في رحلته إلى فرنسا حيث وقف على حجم تقدّم الحضارة الغربيّة، وانبهر بأسبابها وأكّد على قيمتي العدل والأمن في نصحه للباي بوصفه «كاتب سرّه» فإن قارعونا بقيمنا، وقيم ثوراتنا التنويريّة غابت عنّا حجج الردّ وما يبقى غير السّلاح، وهل فرنسا مستعدّة لحرب ضروس والحال في أوروبا لا تسرّ وليس لنا دعمها الكافي؟

لقد عثرنا على وثيقة سريّة تؤلّب الباي ضدّنا وتكشف أنّ هناك عقولًا مستنيرة تحيط به وترفع عن بصيرته ما استغلق؛ فقد كتب له هذا المسمّى أحمد بن أبي الضياف: «لقد فتح لكم قنصل الفرنسيس أبواب المطامع، وخيّل لكم مهاوي الضرر والهلاك في موالاة الدولة العليّة، وأطمعكم بأنّ دولة فرنسا تحميكم بعساكرها وقواتها، ووصفكم بأنّكم مستقلّون في هذه المملكة، إلى غير ذلك من الغرور»، وهو نفس الموقف الذي اتخذه الديبلوماسي من أب إيطالي «جوزاف رافو» والذي أبدى ولاءً عجيبًا في خدمة البايات ومصلحة تونس؛ فقد أكّد للباي ما ذهب إليه أحمد بن أبي الضياف بقوله: «يا سيدي لا تطمع أنّ الفرنسيس يعينونك بإطلاق مدفع واحد؛ لأنّ العقلاء لا يتجشمون الحروب إلا لدفع مضرّة أو جلب منفعة، وأيّ نفع للفرنسيس في حرب مع الدولة العثمانيّة؟...فلا نطمع أنفسنا».

فالمشير أحمد باشا باي يرغب في الانفصال حقيقة عن الدولة العليّة لولا أمثال هؤلاء المعترضين، فقد بلغ بجوزاف رافو أن زار باريس وأقنع الملك لويس فيليب بلباقته وحنكته، ونجح في الضغط على القنصل دي لاجو وأجبره على الكفّ عن تزيين الانفصال عن الدولة العليّة، وهذا الديبلوماسي تمكن من نسج علاقات مع رجال الحكم في فرنسا؛ وهو ما ساعد على زيارة أحمد باي لباريس واحتفي به كملك.

علمًا وأنّ هذا الجوزاف رافو من أصول إيطاليّة، وقد يكون يشتغل لحساب إيطاليا حتى يمكّنها من تونس. فإذا لم تكن مواقفنا وأهدافنا متجانسة هنا وهناك في فرنسا أو في الجزائر، فإنّنا قد لا نوفّق في تحقيق ما نصبو إليه؛ وعليه أقترح أن نشتغل على هذا الانفصال بين الإيّالة التونسيّة والدولة العليّة بما سيضعف العثمانيين بسقوط ممالكها الواحدة تلو الأخرى، ويجعلنا نستفرد بتونس خاصّة وأنّ الباب العالي يكلّف الإيّالة ضرائب مشطّة حتى أصبحوا يستجدون العثمانيين في رسائل من قبيل: «والمأمول النظر لهذا القطر بعين الرحمة، وهذا المال في خزائن الدولة لا يزيد، وثقله على هذا القطر شديد، فارحم أيّها المولى ضراعتنا، ولا تفرق بما لا نطيق جمعنا»، وعليه وجب استغلال هذا الحيف، وتنمية مشاعر الكراهية والتأليب على الدولة العليّة، كما وجب التخلّص من أمثال هؤلاء المصُلحين وإبعادهم عن البايات، وهناك جوانب أخرى يمكن الاشتغال عليها على المستوى الاجتماعي والديني؛ فتونس لا تختلف كثيرا عن الجزائر من حيث انتشار الطرق الصوفيّة وخاصّة «التيجانية»، ولي صداقات وعلاقات واسعة مع أقطابها، دون تجاهل الجانب الاقتصادي ودخول الإيالة في دوّامة من عدم التوازن بين صادراتها وارداتها

وستلتجئ إلى الاقتراض، وبما أنّ عائلات يهوديّة نافذة تسيطر على المال وتجارة الذّهب؛ فقد عقدت صلات معها ونسعى لخطط جهنّميّة توقع الإيّالة حتى تكون لنا لقمة سائغة.

ويضيف مؤكّدًا: «لا بدّ أن تُعامل فرنسا البايات كحكّام مستقلّين عن الدولة العثمانيّة، ولا بأس من الإبقاء على ولائهم الديني المطلق للسلطان؛ حتى لا نثير حفيظة الرعيّة رغم تذمّرها من الضرائب المجحفة المسلّطة عليهم من العثمانيين».

ولا أعتقد أن تقوم القائمة للاقتصاد في الإيّالة بحكم هيمنة رجال الأعمال الأوروبيين المستفيدين من الامتيازات القنصليّة؛ فأصبحت التجارة الخارجيّة بأيديهم، وكدّسوا أرباحًا على حساب إفلاس التجّار المحلّيين، وهل يمكن لصناعتهم البدائيّة أن تصمد أمام منتجات ثورتنا الصناعيّة؟

وحتى أنقل لكم بأمانة، ليس لنا أن نغيّب الجانب الاجتماعي في عناصره غير المتجانسة من بدو، وبربر، وأتراك، وزنوج، ويهود، وأندلسيين، وجالية أوروبيّة قد تعاظم شأنها ووزنها، حتى أنّ القبائل قد انقسمت إلى صفّ موال للحسينيين وقد اُعتمد عليه في استخلاص المجابي ولهم من الامتيازات الشيء الكثير، والباقي يكاد يكون هامشيّا، أعتقد جازمًا أنّ عدم التجانس، والحيف، وكثرة الضرائب لو أحسنّا إدارتها يمكننا أن نفتّت هذه الإيّالة وبقليل من الخسائر فيسهل ضمّها إلى الجزائر.

بعد عمليّة التقصّي والوقوف على واقع الإيّالة حمل أبحاثه وقد عزم على العودة إلى الجزائر قبل أن يوغل الشتاء في الشمال وتشتدّ الثلوج وتصعب الرّحلة.

قال ليون روش لمرافقيه وهم يهمّون بقطع جبال خمير وقد التحفت بأردية بيضاء: مرأى الجبال المغمورة بالثلج يلقي بي في الماضي فأغرق في الذكرى،

فتتقاذفني بين طيّاتها ويتملّكني دوّار كان يلمّ بي وأنا واقف باتجاه جبال الألب البيضاء الباردة في شتاءات طفولتي... ثمّ انتابته تنهيدة بفزع شهقات الموت، ولم ينبس بكلمة حتى اجتازوا أراضي الشمال، ووطئوا حدود الجزائر حيث ترابط بعض القبائل في خيمها وحولها المواشي، وما إن علموا أنّ القافلة لفرنسيين حتى لازمتهم الريبة وطواهم الخوف، ولم يكن منهم غير نظرات بائسة حذرة رافقت القافلة وهي تبتعد عن مضاربهم رويدا رويدا.

اتكأ أحد مرافقي ليون روش على صديق له في القافلة موشوشًا: ما بال ليون قد أطلق تلك التنهيدة المميتة وصمت؟

فقال صاموئيل: لم تكن طفولة ليون عاديّة؛ عاش الوحدة والجوع، وأجبر على ترك الجامعة، ماتت أمّه بعد ولادته ببضعة أسابيع، واضطرّ إلى القدوم إلى الجزائر بعد أن غزوناها، وشهد عدّة تقلّبات، أحيانا يبدو سويّ السّلوك، شديد الفطنة والحنكة، وأخرى يدخل في حالة نفسيّة تقارب الهستيريا، قيل لي إنّه اعتنق الإسلام حتى يتمكّن من النفاذ إلى جيش الأمير عبد القادر ونجح في مهمّته فاكتسب مكانة، وقيل إنّه أحبّ فتاة جزائريّة حتى الفناء فيها وشهد جثتها المحترقة فحقد على الأمير، وأقسم أن يوقعه بلا شفقة وها هو على ما ترى وختم: «احتفظ بما قلته لنفسك فهو ذو سطوة وحقد كبيرين، وسيكون له شأن في الحكم والسياسة قد نحتاجه في ترقية أو إلحاق لو عيّن في الحقل الديبلوماسيّ.

وما إن وصلت قافلة ليون روش إلى الجزائر حتى دُعي لمقابلة المقيم العام في جلسة طالت، ليتوجّه بعدها إلى فرنسا مباشرة.

وهناك اعتزل النّاس في فترة مراجعة وتأمّل، وقد انتابته نوبة من النّدم المفاجئ قد تكون مرتبطة بمساوئ عمله التجسّسي المليء بالمؤامرات على

الجزائريين وغيرهم؛ فقرّر ودون سابق استعداد الانتماء إلى سلك الرهبنة، فذهب إلى روما وانضمّ إلى اليسوعيين، إلاّ أنّ الفرنسيين لم يقبلوا بذلك وأقنعوا البابا «جريجوري الثامن عشر» بعدم قبوله، ليُرسل بعدها إلى المغرب كقنصل وسط معارضة شديدة لهذا التعيين من قبل أهل اليمين وحجّتهم «اعتناقه الإسلام وزواجه من جزائريّة، لقد قيل له عند تعيينه: يا ليون ستباشر عملك الديبلوماسي بالمغرب، وقد اخترناك لعمق معرفتك بالشمال الإفريقي وفاعليّتك في إرساء دعائمنا بالجزائر، ومشاركتك في حربنا ضدّ المغرب حين وقف سندًا للأمير عبد القادر، وقد لمسنا قدراتك في ضغطك على سلطان المغرب عندما أمضى معاهدة طنجة صاغرًا، نريد منك الآن أن تسبر أغوار هذه السلطنة وأن تقيم علاقات عميقة بها، فأمرها يعنينا ويوطّد وجودنا على تلك الأراضي.

المقطع العشرون:

المنقلب.

عاد ليون روش إلى عدوة المغرب؛ وقد ترك فرنسا عشيّة هروب الملك لويس فيليب، وتولّي الجمعيّة التأسيسيّة شأن البلاد، وترأس ألفونس ماري لويس لامارتين الحكومة قبل إجراء انتخابات لا تُعرف نتائجها بحكم الانقسام الحادّ بين الفرنسيين وتنوّع مشاربهم؛ بين يسار قد بدأ يتشبّع بمقولات المنظرّين ويروم تطبيقها على أرض الواقع، ويمين يشدّ بالنواجذ على النّظام الملكي وامتيازاته، وثوّار من العمّال والفقراء يطمحون إلى تحسين عيشهم بعد أن مسّهم الفقر حتى أكلوا ما لا يؤكل.

وما إن انتخب لويس نابليون حتى أعلن قيام الجمهوريّة الثانية، واستبشر الفرنسيون بخطبه ووعوده التي بدأت ترى النور في مدينة باريس العصريّة والجذّابة، ولم تمض بضع سنوات حتى انقلب نابليون على الجمهوريّة لصالح الحكم الإمبراطور ي.

تبسّمت نور بسخريّة حين استمعت لما قرأ سامر في هذا الفصل وهي تقول: لا يكاد أحدهم يتسلّم السلطة حتى ينقلب، ألهذا الحدّ يكون الكرسيّ مراوغًا غدّارًا متفصّيًا من وعوده راميا بإرادة الشعوب المسكينة عرض الحائط، لو تدري يا سامر مدى ندمي لتخصّصي في مادة التاريخ لما ينتابني من آلام وأنا أغوص في ثناياه، فالتاريخ وحده الفاضح الكاشف لكلّ الأكاذيب، وإن استمات الأقوياء في طمسه وتطويعه تجده يتسرّب من أيّ فجوة، تارة من رسم أو صورة، وأخرى من نحت أو أغنية أو رواية، التاريخ ليس ذاك السّاكن في طيّات كتبه؛ هو في تنهيد البحّارة والملح يشوي

وجوههم الكالحة، وهو في مواويل الحصّادة وعرق مناجلهم، و في أنّات المنبوذين والمضطهدين ينبشون بأظافرهم قصّة رحيلهم الآتي في الزنازين العاتمة، التاريخ هو الهواء والطّين ورمل الصحاري الرّاجفة والشطآن الغارقة، يظلّ شاهدًا على العصور الفانية والآنية؛ لن يثنيه الأباطرة ولا الكهّان ولا الطغاة عن تعريتهم.

نظر سامر لنور بعين الإعجاب وهو يردّ: كم صادق ما تقولين. دعينا نبحث فيما أنجز نابليون الثالث حتى يكون حكمنا عليه منصفًا.

تأفّفت نور قائلة: علينا ألاّ نوغل كثيرًا، فلويس نابليون بونابرت بعد أن انقلب على الجمعيّة الوطنيّة واستفرد بالحكم وأقام استفتاء خوّل له «تأييدًا شعبيًّا مطلقًا»؛ شرع في استعادة الإمبراطور يّة بسلطات دكتاتوريّة، باشر في إصلاحات هيكليّة كبناء سكك الحديد لتكون باريس محورها؛ فحصل نموّ ديمغرافيّ رهيب بالمدينة نتيجة للنزوح، ونشطت التجارة والسياحة؛ فتحوّلت باريس إلى تحفة فنيّة غارقة بالبشر والمصانع ورؤوس الأموال التي تبحث دائما عن مثل هذه المناخات المواتية، وتكدّست المنتجات حتى لم تعد لها الأسواق المناسبة.

أمّا الشعب ففقد حرّيته واعتمد على رحمة الإمبراطور ، فقد وضع نابليون الثالث في أذهانهم أنّ العدالة الاجتماعيّة لا تعني الحريّة؛ فجمّد البرلمان والاقتراع العام والصحافة والتعليم والمنظمات مع ما رافق ذلك من قمع وحرمان من الوظيفة، كلّ ذلك تحت «قانون السلامة العامّة».

قاطع سامر نورا متسائلًا: بمعنى أنّ سياسته المحلّية كانت ناجحة من حيث المنجزات وفشلت في تحقيق الكرامة لشعب أنجب ثورات متعاقبة؟

ردّت نور: لنقل ذلك، ولكن على مستوى السياسة الدوليّة فقد كانت أعماله كارثيّة؛ باعتبار ما شنّ من حروب في أوروبا وخارجها في البلدان التي استعمرتها فرنسا في شمال إفريقيا وجنوب شرق آسيا؛ ما سيجرّ عليه ويلات الحرب مع بروسيا لاحقًا، ويندحر حكمه كسابقيه.

وأردفت: دعنا من نابليون الثالث الآن، فذكره لن يخبو لأنّ بصمته في تاريخ العالم لها ذكر، وعلينا تتبع الثعلب.

ضحك سامر وهو يقول: الثعلب – الجاسوس، فالرّجل جمع مساوئ الإثنين معا. لقد رحل مع فريق متكامل من المستشرقين والإثنوغرافيين وضباط المخابرات الفرنسيّة تحت مسمّى البعثة الديبلوماسيّة إلى المغرب؛ بعد أن تعلّمت فرنسا من هزائمها في احتلال مناطق بأمريكا، وصارت لا تدخل البلد إلاّ بعد دراسته من حيث عاداته وتقاليده ودينه وتنوّعه العرقي والقبلي؛ انسجامًا مع قانون تخطيط النظام الكولونيالي، فقد تشكّل لقوى الاحتلال رؤية أوضح وتنظيم أفضل استقته من تجاربها؛ وأحدثها التجربة الجزائريّة.

وما إن حلّ ليون روش وفريقه بالمغرب؛ وكانت حينها أخبار هزيمة الأمير عبد القادر قد ألقت بظلالها على المغاربة بين متعاطف وناقم على فرنسا، وصامت يرجو السّلامة، بينما سرت حالة من الفزع في السلطان وأرباب المخزن؛ حتى شرع القنصل العام يركّز وجوده، ويبحث عن دعائم ثابتة لفرنسا وسط تكالب أوروبي على المنطقة، وتنازع جحيميّ للاستيطان بها بين كلّ من فرنسا وإسبانيا وألمانيا وانجلترا.

قال ليون روش لأحد ضبّاطه: والحال أنّ الوضع كما ترى، اضطرابات وثورات في كلّ الجهات، عجز واضح لنفوذ المخزن، وعدم قدرة على

تسيير إدارة البلاد بشكل طبيعي؛ فعلينا القيام بأمرين هامّين بداية، الأوّل: هو إظهار التعاطف مع السلطان واحتواؤه وجعله يثق بنا وبقدرتنا على إعانته في السيطرة على الوضع؛ حتى نتغلغل داخل المخزن ويصبح لنا القول الفصل، أمّا الأمر الثاني: فهو المساعدة على إشعال المزيد من الفتن والقلاقل واستغلال التمايز الحاصل بين القبائل والعرقين البربري والعربي، علينا نشر التبشيريين الذين رافقوا بعثتنا ومحاولة إدخال المسيحيّة خاصّة لدى البربر؛ واللعب على انتمائهم للمسيحيّة السّابق للإسلام، وأنّهم عرق أبيض والأقرب إلينا ولديننا، ألم يكن القدّيس أغسطينوس بربريًّا؟

هزّ الضابط رأسه موافقًا وهو يضيف: صحيح سيدي القنصل العام، فالولوج للحياة الحميميّة للشعب المغربي يساعد في اختراقنا لهذا البلد، ولكن ألم تلاحظوا أنّ الإسبان قد سبقونا وأسّسوا لهم مناطق نفوذ خاصّة في شماله وجنوبه.

ضحك ليون روش بكلّ خبث وهو يردّ: ويكون لنا الباقي، المغرب شاسع، وشرقه على حدودنا الجزائريّة ما يسهّل علينا الأمر، بل ويعطينا أولويّة امتلاكه؛ وهذا لا يعني أنّ الإسبان سيفرّطون فيه، فموقع المغرب الاستراتيجي على البحر الإبيض المتوسّط ومضيقه الحيوي وهو المطلّ على المحيط الأطلسي طريقنا إلى أمريكا ومستعمراتنا.... وأكّد وهو يضرب بيده على المكتب: سنقارع الإسبان والألمان حتى يكون لنا فيه نصيب شرط أن نعمل على ذلك ونحسن التدبير والمناورة، وختم: «وإن تقاسمنا أرضه وخيراته بيننا لا ضير.

أردفت نور معلّقة: ماذا قصد ليون روش بالتغلغل في المخزن ودوائره؟ هل يعني أنّ فرنسا لم تكن حينها تنوي غزو المغرب عسكريًّا وقد سبق لها أنّ حققت عليه الغلبة القاصمة في معركة إيسلي؟

قال سامر: فعلًا لم تكن فرنسا ترغب في مزيد من الحروب المكلفة والتنازع مع الدول الأوروبيّة الطامعة مثلها في استغلال المستعمرات، بل ستحاول حكم المغرب بطريقة غير مباشرة بواسطة الإبقاء على السلطة التقليديّة في وظائفها ومراقبتها عن كثب، ثمّ التدخّل النّاعم.

هزّت نور رأسها موافقة: فعلًا، فقد حافظت فرنسا على سلطة المخزن و بسلطانه، وأعدّت تنظيمًا حوّل السلطة إلى يد الفرنسيين، وهذا ثابت تاريخيّا.

تماهى سامر قائلًا: وهو كذلك، وليس على عهد ليون؛ لأنّ المغرب إلى ذلك الحين مازال يحافظ على استقلاله الهشّ وإن اجتمعت حوله الدول الأوروبيّة تخطط لنهشه، بعد أن ساهم ليون روش وأمثاله في تمهيد الأرضيّة حتى يكون الاحتلال قدر هذه البلدان.

لم يدّخر ليون روش جهدًا في الكيد والإسهام في زعزعة أمن المغرب، وتواصل مع الثوّار واعدًا إيّاهم بتسليمهم السلطة في حال سقوط المخزن، وشجّع المخزن على التداين من البنوك الأوروبيّة بفوائض تعجيزيّة وتكبيله باتفاقيّات مذلّة واعدًا إيّاه بإنقاذ البلاد ممّا تردّت فيه من فقر واهتراء البنية وتدهور الأوضاع... هي نفس السياسة التي مورست في الإيّالة التونسيّة قبل الاحتلال.

وأضاف: كانت هذه السياسة الجهنّميّة رغم أنّ بقاء ليون روش بالمغرب لم يدم طويلًا، إذ سرعان ما طُلب منه الانتقال وبنفس الخطة إلى «ترياست» في إيطاليا حتى يسبر نواياها في ليبيا وماذا حقّقت، فعين فرنسا الجشعة لم يغمض لها جفن لا تفتأ تبحث عن المداخل والثغرات الممكنة للنّفاذ إلى خارطة المستعمرات التي رسمتها، لكنّ ليون روش أطلق صيحة فزع من إيطاليا في رسالة مختصرة أكّد فيها على تغلغل إيطاليا الفعلي في ليبيا، وأنّ

الوضع لا يحتاج إلى مزيد من المراقبة عن بعد، وأنصح ببعثة خاصّة على أرض الواقع، فلا تكن الثروات والسّواحل الممتدّة بيد إيطاليا وحدها.

فلم تلبث فرنسا أن أوفدت لليون روش فريقًا وطلبت رحيله الفوريّ إلى ليبيا.

كان سامر منكبّا على الوثائق يسرد الوقائع، وكانت نور تتابع وتنضّد بعض المخطوطات، ولمّا شعرت بالضّجر قالت متأفّفة: هل ندفن زهر عمرنا بين الكتب والأبحاث؟ لقد سئمت هذا، ولا رغبة اليوم لي في البقاء هنا.

رفع سامر رأسه عن الوثيقة التي أخذت جلّ تركيزه وهو يقول متلعثما: لا بالتأكيد، ماذا تقترحين يا نور؟ هل نخرج لنزهة؟

نطّت نور فرحًا وسارعت تستعدّ وهي تحدّث نفسها: «لم أرَ في حياتي صندوقًا مغلقًا، وغامضا مثل هذا السّامر، لم يحدْ يومًا عن البحث، ولكم حاولت النّفاذ إلى ما يجول برأسه أو قلبه طوال أشهر؛ ولكنّه ظلّ مثل صخرة جلمود حتى ملأتني الشكوك تجاه مشاعره.

قال سامر وهو يوصد باب مركز الأبحاث: خروجنا اليوم في هذه الأمسية الرّبيعيّة المشمسة سيجبرنا على العمل عشيّة الجمعة المخصّص للرّاحة.

صاحت نور: ليكن...اشتقت للتمشّي واستقبال بشائر الرّبيع، لم أعتقد وأنا ألتحق بالمركز أن أحرم من أماسي المدينة وهواء بحرها وكلّ أجوائها السّاحرة، حتى صرت أفكّر في القطع معكم.

فردّ سامر منفعلا: لا... لا مستحيل، وصمت وقد علت وجهه ملاح من الخجل والغضب.

تبسّمت نور بداخلها بعد أن أحسّت بأنّ حبائلها طفقت تلتفّ حوله، هي لا تنكر إعجابها به من الوهلة الأولى، فقد كان وسيمًا ومؤدّبًا وشديد

الخجل، أحسّت نحوه بمشاعر جنينيّة، وانتظرت أيّ خطوة يخطوها للكشف عن خبايا مشاعره نحوها ولكنّه لم يفعل، لم تظفر منه بعبارة ذات دلالة أو نظرة ذات مغزى فاكتفت بالترقّب.

في الأثناء حاول سامر تدارك ما انفلت منه ولكنّ عاد الخجل يكبّله وهو يقول: أقصد المركز بحاجة إلى أبحاثك وقد تعوّدنا على العمل سويّا، ثمّ ختم بجملة مبتورة: لقد اعتدنا عليكِ وكفى.

غير أنّ نورا لم ترحم خجله ولا تورّطه فتمادت تستصدر موقفًا واضحًا أو شعورًا فاضحًا فقالت: المتطوّعون كثر، ورغبتهم في إثراء تجربتهم كبيرة، أليس أفضل من البطالة المقيتة؟

لم يتماسك سامر وشدّ على كتف نور بنوع من العنف وهو يقول: ولكنّي أريدك أنت لا غيرك.

نظرت نور في عينيه فالتقت الأعين في نظرة مطوّلة كان منها الألق والبريق ورسالة أشدّ عمقا من أيّ عبارة.

كان سامر ونور قد وصلا حينها إلى شاطئ الكرنيش حيث جلسا على الصّخور في مواجهة البحر الأزرق الهادئ، وكانت الأمواج الرّقيقة تلامس الصّخور تحت أرجلهما بلطف؛ وكأنّما تمهّد للقاء حميميّ يؤسّس لعلاقة حبّ هادر، ظلّ الشابان صامتين لبرهة، سامر يحاول القفز على خجله ليمتلك زمام البدايات، ونور تكبت مشاعر دفينة من الانفلات كي تلعب دور المحبوبة يُطلب قلبها فتُفاجأ.

وما هي لحظات حتى استجمع سامر كلّ طاقته ليقول: اعذري تسرّعي يا نور، كان يجب التمهيد لهذه المشاعر الجارفة نحوك، وكان يجب جسّ نبضك ومعرفة إن كنت مرتبطة ولم أفعل.

انفرجت أسارير نور وكشفت شفتاها عن ابتسامة جميلة وهي تردّ: ليس عليك الاعتذار يا سامر، فلكلّ شيء أوان.

فقال وقد شرع ارتباكه يتبدّد شيئا فشيئا: معنى ذلك أنّه يمكننا أن نكون معًا؟ أجيبيني فقد تعلّقت بك منذ قدومك ولكنّ رواسب قديمة وقفت حاجزًا أمام مكاشفتك، وطالما قسوت على قلبي وأحطّت عواطفي بأسلاك من الصّبر والألم حتى لا أظلمها ثانية أو أحرجك.

التفتت نور نحو سامر وهي تغمره بعين العطف والعشق وهي تقول: لا أخفيك يا سامر سرّا، فما انتابك تجاهي كان له صداه داخلي؛ ولكنّي خجلت من المبادرة، فأنا البنت وأنت الرّجل الشرقيّ...

فانطلقت منهما ضحكة رنّانة أخذتها الأمواج في تلابيبها، وطار بها رذاذ البحر عربون قصّة حبّ وليد أشهدا عليه البحر، وباركته النّوارس وهي تحلّق في حبور من حولهما.

بات سامر ليلته أرقًا وعادته الذكريات المدفونة لتقف أمام عينيه بكلّ تفاصيلها، حبيبته الأولى التي ما إن تعب حتى تنكّرت له فذرت الملح على الجرح، ولم تنته سنة مرضه إلاّ بارتباطها بأحد زملائه وأعلنا خطوبتهما، أمّه «آه يا زكيّة كم أشتاقك، أريد ضمّك إليّ وأنطلق في نوبة بكاء ظلّ رهين قلبي، اختفيت من حياتي في لمحة البرق وفي صدرك لوعة فشلي في الامتحان، ماذا لو فهمت أنّ الحياة لا تختزل في شهادة؟ ماذا لو بقيت معي تمسحين جبيني المتعب نلعن الشهائد معا في بلد داسها بكلّ عنف وأبقى على ما سواها من علاقات ومال؟ ماذا لو التقيت عمّ الطاهر؟ وباغتته ضحكة مفاجئة أخرجته من تيهه وهو يردف: «ماذا لو رأيت حبيبتي نور

وباركت حبّنا، ابنك يا زكيّة عادته الحياة وانبثقت من قلبه المشاعر بعد كلّ السّواد الذي كبّله، فكيف لا تكونين معي وتفرحين معي؟

صباحًا كان يقصد مركز الأبحاث في خفّة غير عاديّة وأجنحة من المشاعر اللّذيذة تطير به، وما إن دلف إلى الدّاخل حتى وجد نورا قد سبقته وقد تأنّقت وباح وجهها بجمال هادئ، بدت منكبّة تقلّب الوثائق وتسجّل الملاحظات.

قالت نور: عمت صباحًا يا سامر، أحاول استكمال ما ينقصنا عن ليبيا أثناء تعيين ليون روش قنصلًا بها حتى تكتمل معلوماتنا قبل بحث شأن تونس، وهو لعمري شأن كبير.

سعد سامر لاهتمام نور بالبحث وقال ممازحًا: أراك تقبلين على البحث بروح مختلفة ماذا حصل؟

ضحكت نور وهي تردّ: لا شيء سوى أنّ حبيبي استيقظ من سباته وعبّر عن مشاعره، ليتحوّل هذا المركز لمكان يرشح سعادة ويبعث على العمل والإبداع، ما رأيك؟

الفصل الواحد والعشرون:
تكالب الذئاب.

قال سامر: الوضع في ليبيا اختلف تاريخيّا عن بقيّة ممالك شمال إفريقيا؛ حيث كان انفصالها عن السلطة العثمانيّة مبكّرًا حين استقلّ بها «أحمد باشا القرة مانلي» وأسس حكم الأسرة القرمانليّة الوراثي، ولمّا بان خطر أوروبا، واحتلّت فرنسا الجزائر؛ أعادت الدولة العثمانيّة سيطرتها على طرابلس وقضت على الأسرة القرمانليّة.

فقاطعت نور سامرًا مستغربة: يعني أنّ السلطة العثمانيّة لم تفكّر في توابعها إلاّ حين داهمها الهلاك؟

ردّ سامر: لا تنسي الوضع الذي كانت تعيشه الدولة العثمانية، كانت تعيش مرحلة الانحسار والضعف، فذاك الجسد المترامي الأطراف، الممزوج قوميات وعرقيات وديانات لم يصمد طويلا أمام النّخر الدّاخلي والخارجي، وطبيعي أن تفرّط الدولة العثمانيّة في الممالك البعيدة التي لم يعد لها عليها سلطة وتكتفي بالأصل.

قالت نور: وتلك حكاية كبيرة، أختلف فيها مع بعض المؤرّخين الذين يعتبرون سقوط الدولة العثمانيّة كان خلال بدايات القرن السابع عشر.

قال سامر: وكيف ذلك؟ نوّريني، فأنت المختصّة وأنا المتطفّل.

ضحكت نور وهي تردّ: لقد أبليت وتمكّنت من تحويل وجهة تخصّصك، وأردفت: «أتدري يا سامر أنّ السلطان «با يزيد» كان زمن ما يسمّى بحرب الاسترداد في الأندلس قد غمر نفسه في نوع من العزلة الصوفيّة حتى سقطت

غرناطة آخر معاقل المسلمين وشرّد الأندلسيين، في حين كان المؤمّل أن تقوم الدولة العثمانيّة بحمايتهم باعتبارها القائمة على أمر المسلمين، ذاك مؤشر على بداية الضعف والذي لم يمكث أن استشرى كلّما تقدّمت عجلة التاريخ، كانت تفقد معظم ممتلكاتها وإن حاول بعض السلاطين القيام بعديد الإصلاحات لمواكبة ازدهار أوروبا، فألغى السلطان محمود الثاني طائفة الانكشاريّة التي هيمنت على السلطة إثر مجزرة رهيبة، وغير ذلك من التنظيمات والإصلاحات.

فقال سامر: اعتقدت أنّ العلاقة قد ساءت بين الدولة العثمانيّة وفرنسا إثر احتلال الأخيرة للجزائر وليس مع كلّ أوروبا.

أجابت نور: لا يا سامر، بل إنّ جلّ الدول الأوروبيّة قد اتفقت على الانقضاض على ما سمّوه بالرّجل المريض الذي ضعف داخليّا، وأصبحت الدولة تعيش أزمات حادّة ومصاعب ماليّة وثورات قوميّة عاتية في البلقان، والبوسنة والهرسك، والأفلان، والبغدان.

قاطع سامر نورا وهو يقول: على رسلك، دعيني أجاري ما تذكرين، فقط أريد التأكّد من أمرين طالما وردت الإشارة إليهما في كتب التاريخ يتعلّقان بقضيّة الأرمن ويهود الدونمة، هل فعلًا أقيمت المجازر في حق الأرمن وهي مسألة مازالت حيّة في تاريخنا المعاصر، وما كان دور يهود الدونمة في اختراق جهاز الدولة العثمانيّة؟

همهمت نور وهي تردّ: ألا تلاحظ كم ابتعدنا عن موضوعنا المتمثل فيما صنع ليون روش عند تعيينه قنصلًا بطرابلس؟

قال سامر: بتّ متأكّدًا أنّ التاريخ حلقات مترابطة ترابط الأسباب بالنتائج، وأنّ الجغرافيا تفرّق والتاريخ يضمّ الشتات، فما يحصل في أيّ عاصمة له نتائجه وصداه في بلدان أخرى، ألا تتفقين معي؟

قالت نور في عجلة: تريد إغراقي في مسائل يمكن أن تكون منطلقًا لأبحاث أكثر عمقًا، نعم ساهم مؤسس الحركة الصهيونيّة ثيودور هرتزل الصحفي واليهودي النمساوي في وضع أسس دولة لليهود والذين كانوا مشرّدين عبر العالم من ذلك الدولة العثمانيّة، ولأنّ أوروبا كانت بصدد تقسيم التركة العثمانيّة تمكّن هرتزل من الحصول على وعد. وإن تهاون السلطان عبد الحميد في التفريط في فلسطين فلأنّ وطأة أوروبا كانت شديدة والحرب على الدولة العثمانية كانت مفتّتة؛ فاليهود رُحّلوا مع مسلمي الأندلس منذ قرنين واستوطنوا الأستانة ومدينة سالونيك وغيرها، وروعيت عباداتهم، واعترف بالحاخام باشي رئيس الطائفة، ولكن متى وجدوا الفرصة سانحة للكيد كادوا، أمر جرى في الجزائر في قضيّة القمح وجرى بتونس في مسألة الديون والسرقات الكبرى، أنا لا أتجنّى ولكنّ التاريخ لا يكذب في مثل هذه المسائل.

والدولة العثمانية كانت تحت مطارق الثورات القوميّة حين ثار الأرمن؛ فأرسل العثمانيون جيشًا من الأكراد وحصل ما أطلقوا عليه «المجازر الحميديّة»، هل اكتفيت؟

قال سامر: ويعدّ نفي هذه المجازر مدخلًا لقراءة أخرى يؤمن بها الأتراك تتمثّل في ضرورة الحفاظ على أمن الدولة وكيانها متى أصبح مهدّدا، وكم هي كثيرة المجازر التي نُفذت بمثل هذه الحجّة في دول عدّة؛ ولكنّ لا تثار ضدّهم القضايا، ولا ينبش تاريخهم، ألم تطلعي على ما فعلت فرنسا بمقاومي الجزائر، فهل اعتذرت مجرّد الاعتذار؟ وهل في هذا العالم العدالة موزّعة بالتساوي؟

المهمّ يا نور ساهمت قضيّة الأرمن، وساهم اليهود، وغيرهم في تشويه الدولة العثمانيّة دون أن تنسيْ أنّ تخلّفها عن ركب الدول الأوروبيّة خاصّة في تحقيق ثورة صناعيّة قد عمّق مآسيها، فالأمم التي لا تواكب التطوّر تصبح لقمة سائغة في يد الأقوياء.

قالت نور: هل لنا إغلاق هذين القوسين والعودة إلى بحثنا؟

قال سامر: أحيانا نستفيد ممّا يوضع بين قوسين أكثر ممّا هو خارجها؛ ولذلك أوجد القدامى الحواشي، هات ما عندك عن ليون، فقد تجاوزتني في بحثك.

ضحكت نور وهي ترشف قهوتها: من اليوم لن أفيدك بمعلومة إلاّ بمقابل.

فغمر سامر حبيبته بعين من الإعجاب وهو يقول: اطلبي، فأنا رهنك.

قالت بدلال: الأمر غير مكلف، نذهب هذا المساء لشرب كأس شاي في بيتنا، فقد دعتك الوالدة منذ مدّة وعبّرت عن رفضك مرّات وحجّتك انتظار الخطوبة الرسميّة، ما رأيك؟

رفع سامر رأسه علامة القبول وهو يقول: لم يعد لي من حجّة، ولكن ليس قبل أن ننهي ما نحن بصدده.

طارت نور فرحًا وهي تحسّ أنّ سامرًا قد بات لها وحدها، وأنّ حبّه لم يعد خافيًا، فانغمست تقرأ ما أعدّت حول ليون روش في ليبيا:

ليبيا تعدّ على مرمى حجر من إيطاليا فكان حلول ليون روش بها على وجه السرعة، وما إن حطّ الرّحال حتى اصطدم بضعف السلطة العثمانية على ولاّتها الكثر الذين تعاقبوا على حكم ليبيا في جوّ من المؤامرات والعنف؛ لاقتناص السلطة حتى انخرم الأمن، وعمّ الانقسام البلاد بين القبائل والجهات، فكأنّ غرب ليبيا منفصل عن شرقها حيث كانت ليبيا

تشكيلة واسعة من الأعراق؛ فمن كراغلة إلى القريتليّة وهم أوروبيون من جزيرة كريت، وتبّو ذوي البشرات السوداء في جنوب شرق ليبيا، وقبائل عربية عدة، وأخرى بربرية كهوارة وزناتة وكتامة وصنهاجة، وما كان يفرقهم أكثر مما يجمعهم، بالإضافة إلى اليهود والمسيحيين أصحاب الديانات المختلفة والولاءات المتباينة. وقد جنى آخر «قارة مانلّي» الوالي يوسف باشا على ليبيا حربا شعواء مع أمريكا؛ بسبب جشعه في طلب المال على السفن المارّة من السواحل، وانغمس في الملذات والترف، والتجأ إلى الاستدانة من الدول الأوروبيّة؛ شأنه شأن أغلب الولاة الذين حكموا باسم السلطة العثمانية في ممالكها، حتى أنّ الوالي منهم كان يعيّن لأشهر ويعزل، وفيهم من حكم ليومين ما يذكرنا بزمن انهيار الدولة العبّاسيّة.

فتبسّم سامر ابتسامة حزينة وهو يؤكّد: صحيح هو «يلك محمود» قرأت ذلك ضمن طرائف الأخبار، ولكنّ الأمر مؤسف حقّا ويكشف عن الفوضى العارمة.

أردفت نور: وسط هذا الجوّ المحموم كانت الضرائب تتفاقم وكان السكّان يسحلون، ومن يعجز عن دفع ما عليه يحمل على ظهر الجمل، أو يُجرّ مكتوف الأيدي بذيل حصان ثمّ يساق إلى السّجن، ولمّا يفلت أحدهم ويفرّ من جنود الوالي؛ يقوم الجنود بإلزام جاره بدفع ما عليه من ضريبة، أفي الكون ظلم أقسى من هذا؟ فقد قيل إنّ أحد الولاّة واسمه «عثمان باشا الساقسلي» وكان من أكثر طغاة الأتراك، حيث لم يسمع جنوده بامرأة جميلة إلاّ واغتصبوها من زوجها، واعتداءاتهم على الأطفال أمام آبائهم لا تعدّ، ومن كان يرفض أو يصرخ لفضحهم كان يقتل في حينه، حتى وصل أمرهم إلى أكل لحم البشر تشفيًا.

فصاح سامر: معنى ذلك أنّ مراد بوبالة المعروف في تونس لم يكن شاذًا، بل ربّما تتلمذ على هؤلاء.

أنعمت نور وهي تكمل: حين وصل ليون روش إلى ليبيا كانت الحركة السنوسيّة قد تشكّلت وانتشرت زواياها في كامل أنحاء ليبيا؛ وهي حركة وسطيّة عملت على تنقية العقائد الدينيّة للسّكان من الخرافات، وحاولت إحداث نقلة على المستويات الفكريّة والاجتماعيّة للسّكان، وقد تفطّن مؤسسها محمد عليّ السنوسي إلى المكائد التي كانت تُعدّ من قبل أوروبا؛ فتبنّى مقاومة الأمير عبد القادر في الجزائر، وعزم على موافاته لولا تفطّن الاستخبارات الفرنسيّة لذلك، ومُنع من دخول الجزائر، ولكنّه استمات في إيصال الأسلحة والمؤن للمقاومة.

قال سامر: وماذا فعل في النّهاية ليون روش إزاء هذا الأمر الواقع؟

قالت نور: لقد كتب محبطًا يخبر فرنسا بأنّه قد حُصّل ما في الصّدور بالنّسبة للهيمنة الإيطالية على ليبيا، وأنّها قد سبقتنا على الأرض وبدا عزمها على الاحتلال واضحًا، فقامت بفتح المدارس في بنغازي وطرابلس لتعلّم الإيطالية، وأرسلت الإرساليات التبشيريّة، وافتتحت فروعًا لبنك روما، وتوزّع قناصلها في بنغازي وطرابلس، وانتهت عمليّا إمكانيّة الاستباق، فما علينا سوى تحسين شروط التفاوض في بقيّة المستعمرات كتونس والعمق الإفريقي.

علّق سامر قائلا: للمرّة الأولى يحسّ هذا الليون بالإحباط.

قالت نور: هكذا هي الدول الاستعماريّة إن فشلت في الخطة «أ « مرّت إلى غيرها، فهل تعتقد أنّ فرنسا ستسلم أمر ليبيا إلى إيطاليا دون مقابل؟

أردف سامر: الاحتلال عامّة يشبه في صنيعه المنشار ينشر ما يعترضه صعودا ونزولا ولا يفرّط في مصالحه أبدا، ثمّ قال: «هل يمكننا أن نتجاوز عناصر بحثنا ولو شفويّا وتمدّيننني بصنيع إيطاليا في ليبيا، فاطلاعي سواء في مناهجنا الدراسيّة الرثّة التي مارست معنا سياسة التعتيم التاريخي والوجودي فلم تربطنا بالوطن عبر تاريخ واقعيّ ولم تعّمق انتماءنا، ولم أتمكن من خلال أبحاثي لأنّي ركّزت على تونس، كلّ ذلك جعل معلوماتي شحيحة حول ليبيا زمن الاحتلال.

نظرت نور باتجاه سامر نظرة لم يفقه معناها وهي تقول: أنت طمّاع وجشع يا سامر تماما مثل الاستعمار، هل تريد أن تلمّ بكلّ المعطيات دفعة واحدة وأنت طالب الهندسة السّابق، بعد أن ملأوا رأسك بالنّظريات والأرقام والفرضيات، وتريد أن أكون المعلّمة؟ قم بنا إلى مطعم قريب، أحتاج سدّ رمقي.

قال سامر محرجًا: حين يكون الإنسان جشعا للمعلومة فلا بأس يا حبيبتي، المعلومة كالماء لا تُردّ.

قال سامر وهو يتلذّذ أكلة تونسيّة لاذعة: حول كأس الشاي في مقهى المرسى العتيق سنواصل حوارنا، ما رأيك؟

أنعمت برأسها وهما يغادران المطعم، وما إن جلست على الكرسيّ وراحت تتأمّل المراكب الراسية على دفتي المرسى مأخوذة بسحر الألوان الزاهية لواجهات ديار القصيبة حتى بادر سامر يستحثّها الحديث.

فقالت: أراك مصرّا على تنغيص جلستنا، فما وقع في ليبيا إبّان الاحتلال الإيطالي لا يكون الحديث عنه في مثل هذا المكان الحالم؛ لأنّ الذي حدث يتجاوز لؤم الكوابيس.

تنحنح سامر متجاوزًا وهو يقول: لا بأس، نفذي وعدك يا نور، ففي ذهني مقاربة أريد الاشتغال عليها تقوم على المقارنة بين الممارسات الاستعماريّة في المستعمرات والوقوف على الفروق، وأيّها كان الأفظع والأكثر محوًا لهويّة الشعوب؟

فقاطعت نورا سامرًا وهي تنتفض: هائل يا عزيزي، مقاربة طريفة نشتغل عليها سويّا، واسترسلت تسرد أحداثًا وممارسات وكأنّها حفظتها عن ظهر قلب، قالت وهي ترشف شايًا منكّهًا بالنعناع: «غزو ليبيا جاء بعد غزو الجزائر وتونس ومصر والسّودان وقبل المغرب بسنة واحدة. ولقد عبّر الإيطاليون عن موقف يدعو للسخريّة بقولهم لليبيين: جئنا نحرّركم من الحكم العثماني، ولم تستطع الدولة العثمانيّة أن تعترض لأنّها كانت في نزعها الأخير، فسرعان ما سلّمت ليبيا إلى إيطاليا إبّان اتفاقيّة من تلك الاتفاقيات المذلّة، وما أكثرها.

فلم يتأخّر الجنرال «كانيفا» في إعداد أسطول ضخم بارك رجال الدّين بحّارته في احتفالات تذكر بالحملات الصليبيّة؛ فقد وزّعت الصلبان هدايا من البابا.

قاطع سامر نورا مستغربًا: بهذه البساطة سلّمت الدولة العثمانية ليبيا؟

قالت نور وضحكة صفراء تعلوها: بجرّة فرمان سلطاني وُجّه إلى أهالي طرابلس جاء فيه: «إنّ حكومتنا العليّة عاجزة عن تأمين الحماية؛ إلاّ أنّها مهتمّة بازدهاركم في الحاضر والمستقبل...»

ثمّ همهمت ساخرة: «وجاء الغزاة لهذا الغرض، الازدهار مغلّف بفاشيّة رعناء عاثت بالليبيين رغم مقاومتهم، تماما كما عاث بهم فرسان مالطا بعد أنّ سلّمهم إيّاهم الغازي شارلكان في القرن السادس عشر».

علّق سامر: وهل الشعوب بضائع حتى تسلّم بين الأيدي؟ أم ترى هذا واقع الوطن العربي فحسب؟

ردّت نور متأفّفة: يا سامر، ما من استعمار على وجه الأرض إلاّ وأذلّ من استعمر، وعامل الشعوب كالبضائع أو الحيوانات، فما مارس الإيطاليون في ليبيا إلاّ هولوكوست بأتمّ معنى الكلمة مستغلاّ أمرين؛ حال التخلّف السائدة، وكثرة الخيرات والموارد الطبيعيّة التي تحتاجها إيطاليا لتغذية عجلتها الاقتصاديّة، وكان هذا تحت الأسلحة والمدافع المشهرة في وجوه أصحاب الأرض، ولمّا قاوموا لقوا الويلات في معسكرات الشرّ في ذاك الماضي المسكون بالرعب وأصوات الضحايا المتألّمة؛ فقد طبقوا نظام السخرة على المساجين المقاومين، وجعلوهم يفرغون حمولة السفن تحت وطأة السلاسل، وحمّلوهم مهمّة إزالة الرّمال المتحرّكة وحمل النّفايات، واستخدموا لشقّ الطرق مقابل حفنة من الشعير أو كسرة خبز جاف ملوّث، ومن يغمى عليه يُجلد حتى الموت ويدفن تحت الرّمال.

فما الفرق بين البشر والسوائم في نظر المحتلّين يا سامر؟

قال سامر وألم بادٍ في نبرته: ها أنّك تمتلكين خزّان معلومات أسود عن فترة الاستعمار.

ردّت نور: لذلك لم أشأ الخوض فيها، ولكن ماذا أصنع أمام تعنّتك؟ لقد بنوا معتقلات للعقاب الجماعي أحاطوها بالأسلاك تحت لهيب الصحراء اللاّفح، وعاملوا المعتقلين بوحشيّة لا توصف، وكانوا يذكّرونهم بأنّ ليبيا كان يجب أن تكون مسيحيّة «فمارمرقس» رسول المسيح ليبي، وفرسان مالطا حكموها بالحديد والنّار، واجتهدوا في نزع هويّة الشعب ولكنّهم لم يفلحوا، لم تخل الحروب من نزعاتها الدينيّة والأيديولوجيّة ماضيًا وحاضرًا.

قال سامر معلّقًا: ما ذكرته يرقى إلى الإبادة حقيقة، ولم نعرف عن المقاومة سوى ما كان في شخص المجاهد عمر المختار، وطريقة إعدامه العلنيّة الممسرحة والتي قصد الفاشيون من خلالها قتل روح المقاومة، هذا ما رسخ في مخيّلتنا.

فاستأنفت نور: محاكمات نورمبورغ التي عرّت نظام هتلر لم تسمع بوحشيّة إيطاليا، بل وقع التعتيم عليها في إطار دورها في الحرب الباردة ومقاومة الشيوعيّة فيما بعد، يا عزيزي لقد تحدّانا الغرب الأوروبي، واختصّ نفسه بمعايير في رؤية الشرّ تستثني ما نال المستعمرات من ثبور، فوقعت الشعوب المنكوبة تحت التحدّي الأوروبي وتحدّي دولة ما بعد الاستقلال ضمن صفقة كبرى استلهمت فاشية الاحتلال لصناعة فاشية محليّة.

استدار سامر نحو نور وهو يهمّ بدعوتها للمغادرة قائلًا: كفّي يا حبيبتي، فقد نالني من الوجع ما يكفي، علينا إتمام عملنا حول ليون روش.

المقطع الثاني والعشرون:
الانقلاب أبو الاستبداد.

كان صباح ذلك اليوم عاتمًا على غير عادة صباحات أواخر فصل الرّبيع في بنزرت، بعض السّحب السوداء تغطّي عين الشمس، وقشعريرة برد تسري في الأجساد حين دخل سامر إلى مركز البحوث فتفاجأ بالأستاذ نافع الجزيري قد سبقه، رآه قابعًا على أحد المكاتب.

فبادره بتحيّة صباحيّة حارّة، غير أنّ الردّ كان باردًا، ولمّا اقترب سامر لاحظ تغيّرًا في سحنة الأستاذ، وجه يميل إلى الصفرة ونحول بائن، وقبل أن يبادر بسؤاله عن حاله وغيبته الطويلة عن المركز قال الأستاذ نافع: بكّرت بالقدوم يا سامر؛ لأطلعك على أمور تتعلّق بوضع صحّي ألمّ بي وهو بصدد التطوّر، ويلزمني السّفر إلى فرنسا. وبناء عليه سيكون لك شرف إدارة المركز في غيابي، جئت لتسوية بعض الوثائق التي تخوّل لك ذلك.

لم يتمكّن سامر من إخفاء كبير تأثره، وتاهت من ذهنه الأسئلة وقد فوجئ بخبر هزّه هزّا. وقف الأستاذ وهو يدعو سامرًا للمغادرة قصد إتمام الإجراءات، ولمّا كانا بصدد الذهاب التحقت نور وهي تلوّح بوثائق بين يديها: «ها أنّي جئت بعمل شافٍ»، ولمّا لاحظت وجوم الأستاذ وحبيبها سامر خيّرت الصمت.

قال الأستاذ نافع: أعلم أنّك شعلة اجتهاد، وهذا المركز أمانة لديكما حتى أعود من سفري، ثمّ أطلق تنهيدة لم تفقه نور معناها، ولكنّها قالت بمرح: «إن شاء الله».

عاد سامر كئيبًا إلى المركز ولم يتأخّر عن إطلاع نور بأمر الأستاذ؛ فران عليهما لبرهة سحابة حزن وتوجّس، مرض الأستاذ خطير بالتأكيد، قالت نور: وإلاّ ما كان ليغادر فطبّنا متقدّم، ولكن ما مصير هذا المركز وقد أصبح له إشعاع؟

فردّ سامر: وكّلني أمره منذ حين، المسؤوليّة كبيرة يا نور، وعلينا الاشتغال ليلًا نهارًا.

همهمت نور: صحيح، ليكن هذا تحدّيا لنا كشابّين يناط بعهدتنا مسؤولية هذا المركز، ومسرّة نحدثها في نفس الأستاذ عند عودته.

علينا الرّجوع توّا إلى عملنا، فقد طال البحث فيما يتعلّق بليون روش، وحتى نضع تحرّكاته في إطارها؛ لا بدّ أن نحاط علما بوضع فرنسا عندئذ، وهذا يجرّنا مرّة أخرى إلى ذكر نابليون الثالث، فبعد أن انقلب على الجمهوريّة قام بالعديد من الإجراءات التي أعادت فرنسا إلى الحكم الفردي بعد ثورتين تنويريتين.

فعلّق سامر: معنى ذلك أنّ نجاح الثورات ليس محتّمًا، فما لم يفشل في مهده تقضي عليه الثورات المضادة ولو بعد سنوات.

أنعمت نور برأسها: بالضبط يا سامر، فالثورات الحقيقيّة تقوم على هدم شامل لكلّ الأسس السّابقة وبناء أخرى محلّها على قوانين وقواعد مختلفة دون محاولات الدمج بين القديم والجديد؛ لأنّ ذلك لن يستقيم، فالقديم المتغلغل في مفاصل الدولة سينقضّ على الجديد ولو بعد حين، وهذا ما وقع في عهد الملك لويس فيليب الذي قامت عليه ثورة ١٨٤٨، وهو نفسه صنيع نابليون الثالث بعد أن انتخبه الفرنسيون رئيسًا، إذ لم تمض سوى ثلاث سنوات حتى انقلب إلى إمبراطور ومسك بين يديه بكلّ السلط.

انفجر سامر ضاحكًا: أراك تتحدّثين عمّا حدث عندنا لولا اختلاف الأسماء.

ردّت نور: أنا أتحدّث كمختصّة دارسة للتاريخ الأوروبي المعاصر والرّاهن، وإن اشتبك كلامي بالشأن السياسي فلا خلفية لي غير الموضوعية العلمية.

وأردفت: المهمّ أنّ ما صنعه نابليون قد جرّ على فرنسا هزيمة نكراء في حربها مع بروسيا؛ ذلك أنّ التفرّد بالسلطة مفسدة مطلقة ولا يمكن للفرد مهما كانت قدراته أن ينجح. فهذا الإمبراطور «الثائر» مولع بماضي عمّه وأراد الخطو على طريقه، فقد سارع بالانقلاب على الجمعيّة الوطنيّة، وأجرى استفتاءات تعديليّة خُلقت أصواتها من فراغ، وأحدث دستورًا جديدًا أصبح بموجب ذلك نابليون رئيسًا لعشر سنوات مع غياب أيّة قيود لإعادة انتخابه، وحوّل الحكم وراثيًا، وانفرد بتسمية أعضاء مجلس الدولة والشيوخ والتشريعي الذي فقد كلّ حقوقه في اقتراح القوانين أو تعديلها أو التصويت على تفاصيل الميزانيّة... فأصبحت مبادئ الثورة من الماضي بتجميد كلّ القوى العامة من برلمان وصحافة، ومنع حريّة التعبير وتحرّك المعارضة، وعاقب بالحرمان من الوظيفة كلّ مناوئ، وخضعت الكتب للمراقبة....

استوقف سامر نورا وهو يقول: كفى يا حبيبتي، فقد ملأت القلب غمًّا فوق همّه، بعبارة لقد انقلب على كلّ ما ميّز فرنسا الأنوار والثورة ليعيدها إلى مربّعها الأوّل الحكم الدكتاتوري.

ضحكت نور رغم عبوس سامر وهي تستأنف غير مبالية: دارس التاريخ عليه أن يتسلّح بمشاعر حديديّة حتى لا ينخرط في النّواح لفرط ما تمرّ أمام عينيه مآسي البشريّة.

فعلّق سامر: صحيح لقد لامست هذه المشاعر الحديديّة؛ فأنت تسردين الوقائع المريعة وتمرّين دون حتى أن ترفعي نظرك نحوي أنا المتابع لكلّ حركة منك أو كلمة، لا عواطف ولا غزل، مالك أيّتها العزيزة، أأنا الصخرة الجلمود حذوك؟

أطلقت نور ضحكة مجلجلة وهي تردّ: لا عواطف زمن العمل. قلت لك سابقًا: إن نابليون الثالث قد جرّ على بلاده حربًا مذلّة مع بروسيا، فقد سعى إلى تعزيز شعبيته الهابطة داخل فرنسا بهذه الحرب، وتاريخها وحيثياتها لا تعنينا بصفة مباشرة في علاقة بليون روش الذي يبدو أنّ مهمّته لم تكن على ما يرام في ليبيا التي سبق وأن استشرت فيها مقدّمات الاحتلال الإيطالي؛ لذلك سيطلب منه الالتحاق بالقنصليّة الفرنسيّة في تونس.

فقال سامر: معنى ذلك أنّ الدول الأوروبيّة في هذه المرحلة التاريخيّة قد أصابها سعار جعلها تخوض حروبًا داخل أوروبا بغاية توسيع حدودها وأخرى خارجيّة على المستعمرات، ومازال ليون قادرًا على التأثيث لبلاده في المستعمرات كدأب كلّ الجواسيس؟

وأردف ساخرًا: أهلا وسهلا بثعلب الاحتلال، ولكن ألا ترين يا نوري ونوّاري أنّك ترفعينني إلى أعلى ثم تلقين بي في لجّ متلاطم من التواريخ والأحداث، على رسلك، فأنا في عالم الحبّ والتاريخ بلا ماضٍ.

ولم ينه كلامه حتى ثارت نور وهي تردّ: لا تستبلهني يا سامر، فقد سردت لي قصّة حبّك في الجامعة، والحكمة تقول نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى.... قبلت بأن أكون حبّا آخر في حياتك، فلا تثر الماضي أبدًا أمامي.

صفّق سامر بيديه وهو يقول: وهل ذكرت الماضي فيما نطقت، أردت أن أقول....

لكنّ نورا طلبت منه بحركة عجلى أن يتوقّف عن التبرير وهي تزمجر: لا تلمح، لا تذكر، لا تشر إلى أيّ شيء في علاقة بماضيك، فقد أصبحت مجنونة بك، ويشتدّ بي هذا الجنون لمّا أذكر أنّك كنت لغيري يومًا، أسمعت؟

يبدو أنّ كلام نور قد أرضى غروره فتمادى سامر قائلًا: غيرتي أصبحت من ليون روش الذي تولينه كلّ اهتمامك، أمّا عن الماضي فحمدًا لله أنّي فقدت الذاكرة لفترة ومحوته محوا من كياني، فلا تحزني يا صغيرتي.

صفقت نور وهي تبتسم: انتهى فاصل العشق، هل نعود للعمل؟ فليون روش قد أصبحت عظامه رمادًا، شغل محرّك بحثك واستخرج أسماء البايات الحسينيين الذين عاصرهم ذاك القنصل اللئيم في حكمهم لتونس .

فقال سامر: العلم في الرأس وليس في محرّك البحث، ليون روش التحق بتونس ١٨٥٥ وبقي قنصلا عاما إلى حدود ١٨٦٤، يعني في عهد المشير محمّد باي وخليفته محمّد الصادق باي إذا استثنينا تلك الزيارة السابقة وغير الرسمية في أواخر عهد المشير أحمد باشا باي، وواصل ضاحكًا: «هل أبليت في الإجابة؟

قالت نور: هذا صحيح، لكن علينا الوقوف على حال الإيالة التونسية في تلك الفترة، وما كان صنيع ليون روش عند حلوله بها.

هزّ سامر رأسه معبّرًا عن الرّفض قائلًا وهل سيتحوّل عملنا إلى درس في التاريخ، أقترح أن نبحث عن أسلوب مختلف كتحويل هذا الفضاء المتسع إلى خشبة مسرح؛ مغتنمين وجود اتفاقيّة الشراكة مع جمعيّة النّهضة التمثيليّة وركون الشباب إلى عطلة.

صفقت نور وهي تصرخ صرخة الفرح: رائع يا سامر، رائع، كم أحببت هذا المقترح، علينا أن نشركهم في العمل وفي كتابة النصّ حتى يتحمّسوا.

فقال سامر: لا أعتقد، هم طلبة هواة ولهم مشاغلهم، أرى أن نعدّ النّصوص أوّلًا، ما رأيك لو نتقاسم الأدوار؛ أحدنا يكتب مقدّمات تمهيديّة وخواتم ينطق بها ما يسمّى الحكواتي، والآخر ينكبّ على نصوص تقوم على حوار يؤدّى على الرّكح.

أعلنت نور موافقتها وهي جذلى قائلة: سنحتاج إلى أكثر من ركح تبعا لتعدّد الأحداث وتنوّع الشخوص، فاستعمالنا للفضاء المسرحي لن يكون تقليديّا، لتكن الأركاح متعدّدة ومختلفة أيضا في الأحجام والارتفاع، وطالما لسنا محترفين دعنا نبدع ما نراه مناسبا علّه يصبح تقليعة يوما ما.

ضحك سامر وهو يقول: أخلق شخصيّة الحكواتي وأنطقه بالمقدّمات والإحالات التاريخيّة، ولك كلّ الشخوص كي تبعثي أمواتها من مرقدها وتجعلينهم يعيشون أدوارهم كما لو كانوا معنا، أيعجبك هذا؟

الفصل الأوّل:

ركح الحكواتي.

الحكواتي يجلس على كرسيّه في ركح صغير بأحد الزوايا، شيخ وقور جالس في ركن قصيّ، يلبس برنسًا داكن اللّون وعلى رأسه شاشية فاقعة الحمرة، كان يضع مجلّدا على يمينه وحزمة أوراق صغيرة من تلك التي يكتب عليها رؤوس الأقلام للتذكّر، بسمل وحوقل ثمّ قال: كان يا ما كان في عصر ما قبل الراديو والتلفاز بالألوان، يحكم تونس باي ورث عن سلفه المشير أحمد باشا باي الحكم والصولجان. في صباه قرأ شيئا من القرآن، وتدرّب على الفروسية، ولم يُحمل على طرق التهذيب وأخلاق الكمال، وكان إلى الأميّة أقرب، وعُرف عن محمّد باي عصبيّة في المزاج، وانفعاليّة تجعله يصدر دون تروٍّ الجائر من الأحكام، وكان عديم الحكمة والعرفان، أنهكه الحكم والأسقام، في عهده تغلغل الفرنسيون والانجليز والطليان، فكان عهد الأمان...وكانت تونس خليطًا من الأجناس والألوان: بدو وأشباه بدو، وأتراك وزنوج ويهود، وجوار وغلمان، أندلسيين وأوروبيين، أعراق وأديان، وكان وزيرها الأكبر مصطفى خزندارعاصر الباي والباي والباي، وكانت الرعيّة تعيش قهر المجبى والفقر والطّواعين الفتّاكة بلا حسبان؛ نتيجة إصلاحات البايات وكثرة الاختلاسات والتطاول في البنيان.

وفي أوّل جويلية من سنة ١٨٥٥ تولّى هذا الباي الحكم بالتزامن مع قدوم القنصل الفرنسي ليون روش إلى الحاضرة، وقد أبهر الناس بلغته العربية الفصيحة نطقًا وبيانًا واستشهادًا بآي القرآن وأحاديث النبيّ، جال في أقطار المغرب وهبّ مع كلّ ريح، تلقّاه الباي في قصره فترامى من يومها

هذا القنصل على الامتزاج به ومداخلته على غير عادة القناصل، واستعمل الفضول في إبداء النصح ترغيبًا وترهيبًا، وكأنّما اشتمّ نقصًا وعاين ضعفًا؛ فمضى مخترقًا كلّ الحجب والأعراف.

ركح البايات:

(محمد باي، مصطفى خزندار، أحمد بن أبي الضياف، القنصل الفرنسي ليون روش والقنصل الإنجليزي رتشارد وود، الحاجب المرافق للباي)

(على كرسيّ فخم يجلس محمّد باي وهو يدير ظهره للجمهور، وبجانبه الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار بحجمه الضخم يقطع الركح جيئةً وذهابًا، ووجوم كبير يسيطر على الفضاء)

محمد باي: هلاّ جلست يا وزير، فقد عمّقت حيرتي.

مصطفى خزنة دار: من كان يدري أنّ تنفيذ الإعدام في ذاك اليهودي الفجّ سيجلب لنا هذا السّخط؟

محمد باي: هذا تدخّل سافر في سلطتنا.

أحمد بن أبي الضياف: بدأ ذلك منذ طالبكم ليون روش بتنقيص عدد الشهود المنتصبين بالحاضرة ولم تمنعوا تدخله فيما لا يعنيه، تلك كانت ذريعة لغيرها سيدي الباي، وقد طالبتنا الدول الغربيّة قبل ذلك بتحرير العبيد، وإنهاء رفع الصحف على القصب خلف جنائز المعتوقين.

مصطفى خزندار هازئًا: بينما ظلّت هذه الدول تقنص الأفارقة لبيعها في سوق النخاسة. ثمّ واصل محدّثًا نفسه: «طالما نصحتك بعدم التسرّع بإعدام العسكري الذي قتل اليهوديّ، ما أجّج الأحقاد بين المسلمين والأقليّة اليهوديّة وازددت غيّا وقتلت بطوس فاز اليهوديّ، وأنت تعلم

أنّه قائد كرّوسة نسيم شمامة، هب أنّه سبّ وشتم، ألم يكن سكران؟ أرني فعلك مع هؤلاء القناصل الذين أقاموا عليك القيامة؟

يدخل الحاجب سعدون وهو فزع: لقد حلّ ركب القنصل الفرنسي «ليون روش».

يستدير محمد باي في جلسته مواجهًا للجمهور، مستقبلًا القنصل الذي كان مرفوقًا بأحد مساعديه وقد طغى على المكان بحضوره اللاّفت، كان فارع الطول، مزهوّ المشية، في حركاته رعونة وشعور بالاستعلاء.

ليون روش: عمتم صباحًا حضرة الباي، واعذرونا على عدم تأجيل اللقاء كما طلبتم، فالحادث كان مروّعًا.

محمد باي وقد علت محيّاه أمارات غضب: إنّها أحكامنا، نطبّقها على من يتعدّى على شرعنا.

ليون روش: لم أجد بدّا من الكتابة إلى الإمبراطور نابيلون الثالث حول إعدام اليهودي، وقد ساءه الأمر وطالب بضرورة إحداث إصلاح يتضمن الأمان للتونسيين والوافدين، لم نعد جميعنا بمأمن من عقوبة الإعدام لو عنّ لكم ذلك.

محمد باي: منذ أيّام أعدمنا عسكريّا تونسيّا لقتله يهوديّا ولم نلمس مثل ردّة الفعل هذه، لماذا؟

ليون روش محوّلًا موضوع الحديث: إنّ محبّتي لك وللإيالة دفعتني لنصحك، وقد فاجأتني كثرة النّوازل التي صدرت أحكامها من لدنكم باستعجال ومن غير رويّة ولا إعمال فكر في الحقوق، أو لم توقّعوا حضرتكم على فرمان التنظيمات الخيريّة الوارد من الدولة العثمانيّة؟ فأين

أثره على الواقع وأنت تجلس للحكم في الجنايات بما تراه وحدك؟ فهل يعقل أن تبقى أمّة تدار في كلّ شؤونها برأس أوحد دون مشورة؟

منذ حلولي بينكم بلغني مقتل العسكري محمد السقّا قبل أن يعلم بذنبه، حتى أنّك لم تستمع منه لكلمة، ولم تعر تطارح وزيركم الأكبر لتقبيل رجليك طلبًا للشفاعة، ونفيت النسوة المتهمات إلى جزيرة قرقنة واستوليت على كسبهنّ، وما قولك في ذاك الصعلوك العربي الذي حمل لك رأسي رجل وامرأة مدعيا أنّه وجدهما معًا، وأنّ القتيلة كانت زوجته فاستحسنت صنيعه دون أن تتأكّد من أيّ معلومة حولهما، أو تلك المرأة التي جاءتك تشتكي قومًا اعتدوا على ابنها في جلسة دعارة؛ فإذا بك تأمر بقتله مع المدعى عليهم وأنت جالس في بستانك، وما استوليت عليه من أموال معاوني ابن عمك المشير أحمد باي وعزلك محمد المرابط وصالح شيبوب دون مكروه أتياه، وغير هذه النوازل كثير، حتى كان هذا اليهودي المسكين باطوز فاز.

محمد باي وقد امتلأ وجهه غضبًا: لقد نشرنا نازلته في المجلس الشرعي، وأخذنا برأي المالكيّة وقد رأوا أن ما اقترف اليهودي من المسائل التي توجب القتل بلا استتابة، ورفعوا الحكم إليّ فلم يكن لي غير الأمر بتنفيذه.

ليون روش: كنت متسرّعًا واعتمدت على مذهب المالكية المتشدّد، لم تعر كلام وزيركم الأكبر الذي نصحك بإصدار أيّ عقوبة غير القتل سترًا لهذه النازلة؛ وهو ما يطلبه الوقت من السياسة كما كان يفعل أسلافك، ولا اهتممت «بروسو» مترجمنا الأول الذي رام توقيف إبرام الحكم... سيدي الباي لقد لازمت الجلوس بالمحكمة وظننت أنّ ذلك هو معنى الملك، وليس لك من آلات الاجتهاد ما تستتر به؛ حتى أثرت فزع الوافدين على مملكتكم فضلا عن رعيّتكم، وها أنّ أهل أوروبا واليهود قد تغيّرت

قلوبهم وقاموا عليك في فرنسا مشتكين أمرك للإمبراطور وهم يرون إخوتهم في الديانة يقتلون هنا، ولا يستبعد أن يرسل سلطاننا أسطولا لاستجلاء الأمر وحماية رعايانا.

وأردف مؤكدًا: الإصلاح وحده يضمن حرمة التونسيين وغيرهم من الجاليات وقد غدوا يشكّلون أرقاما هائلة، وأرجو ألاّ نضطرّ إلى أساليب لا تليق بمملكتكم، وكلّما عجّلتم في إحداث الإصلاحات كان أفضل.

فأجاب الباي من حينه وأمارات ارتعاب قد وسمت نظراته: سنأمر قريبًا بتكوين مجلس للحكم في الجنايات وديوان للأحكام المتجريّة.

ليون روش مظهرًا التقانع: لا بدّ من قانون يكون ضامنًا لذلك، ونرجو أن يكون هذا كافيًا لإسكات الدول الضاجّة عليك.

لم يكد ليون روش ينه عبارته حتى عاد الحاجب سعدون لإخبار الباي بأنّ القنصل البريطاني «ريتشارد وود» يطلب الإذن بالدخول على الباي.

همهم محمد باي بما لا يفهم وأشار بيده علامة الإذن.

تظاهرالقنصل البريطاني بالتفاجؤ لوجود القنصل الفرنسي ولكنّه توجّه للباي بالتحيّة وبادر: جئناكم حضرة الباي؛ حتى نعلن لكم غضب مملكتنا ممّا يجري لديكم من أحكام فرديّة في شأن الرعايا...

محمد باي مقاطعًا: وتطالبون بإحداث إصلاحات، وهو موضوع ما نتطارح مع صديقنا القنصل ليون روش.

ريشارد وود مظهرًا الصرامة؛ وكان هذا القنصل عالي الهمّة فصيح اللّسان ثاقب الفكر محاجّا منصفا يتكلّم عربيّة سليمة، دخل ومعه مكتوب بادر بمدّه للباي وهو يقول: هل تلوّن يا حضرة الباي فتاوي الفقهاء حسب

غرضك، وهذا ما وقع في نازلة باطوز فاز، إنّ مطلبنا هو إحداث قانون يضمن الأمان لكلّ الرعايا والوافدين، وسنترك لك وقتًا تتفاوض فيه مع وزرائك ونصحائك ، فإنّ المطلوب منك واقع لا محالة ولو بعد حين، فبادر إلى إحداثه باختيارك، إذ لن يطول تمركز أساطيل الدول الحرّة الكبار على بحرك قصد الوقوف على مدى التزامك بوعدك، سيّما وأنّ دولتكم مأمورة من سلطانكم العثماني وقد وافاكم فرمانها في التنظيمات الخيرية وأجبتم بالامتثال، فهل يليق بحضرتكم أن تُنعت مملكتكم بسيرة غير مستقيمة؟

ليون روش: لنا تجربة رائدة في مثل هذه الإصلاحات التي تقيّد سلطة الحاكم، وتوكل أمر النظر في القضايا إلى قضاة ومجالس مختصّة ، أرجو أن نفيدكم.

صفّق محمد باي منهيًا اللّقاء وعصبيّة بائنة على كلّ حركاته وقد علم أنّهم يغصبونه على إحداث القانون.

أحمد بن أبي الضياف محاولا التخفيف من غضب الباي: إنّ القوم ناصحون غير غاصبين.

محمد باي مروّعًا: إنّما نخشى غصب الدولة العليّة، فانظر إذا لم تكن التنظيمات مخالفة لديننا.

أحمد بن أبي الضياف: إنّ الأمر صعب، ولا بدّ من معرفة ما ستلتزم به فهو سيغلّ يديك.

محمد باي مستدركًا: فلتغلّ يدي لأجل نفع الرعيّة، بادر يا كاتب سرّي بإنشاء مكتوب عهد الأمان.

يسدل الستار على شخصيات رُكح البايات ليسلّط الضوء على ركح الحكواتي وقد ازداد وجهه عبوسا، قلّب المجلّد ثمّ تنحنح وقال:

لمّا بلغ الباي دخول الأسطولين الفرنسي والبريطاني إلى ميناء حلق الوادي وكانا من العيار الثقيل، بواخر ومدافع وجنود في ذاك الصيف اللاّهب حرارة وأحداثًا، علم أنّ التهديد جدّ، وأنّ تدخّل هذه الدول ليس مجرّد وعيد؛ فنادى في أحمد بن أبي الضياف كاتب سرّه، وكبار موظفي الدولة، وممثلين عن الدول الأوروبيّة على اختلاف أديانهم ولغاتهم حتى يبدؤوا النظر في تحبير ما أسموه «عهد الأمان» الذي ساوى بين الجميع أمام القانون والضرائب، ونصّ على حريّة الاعتقاد الديني، وأعلن عنه أمام المجلس الشرعي وأعيان البلاد وقناصل الدول الأوروبية وكبير الأساقفة والرهبان وأحبار اليهود، حتى أنّ أحمد بن أبي الضياف أصيب بنوبة سعال مفاجئ وغصّة منعته من مواصلة القراءة التي أتمّها محمد الباجي المسعودي.

أرسلت النّسخ إلى البلدان الأوروبيّة وهنّأوا بعضهم البعض على ما فسح لهم من مجالات للاستثمار؛ ليجعل ذلك العهد من تونس ملاذًا للاقتصاد الأوروبي، ولتفتح الإيالة التونسيّة ذراعيها مرغمةً بقبول المزيد من الإملاءات والابتزاز، وتتهيّأ تدريجيّا لما لن تُحمد عقباه.

واشتدّت الأسقام بالباي، وعظم معها دور مصطفى خزندار، وتمكّن نسيم شمامة ومن ورائه الطائفة اليهوديّة من ماليّة البلاد نهبا ومضاربة؛ حتى تضخّمت مديونة الإيّالة للدّاخل والخارج.

عهد الأمان لم يمسّ جوهر الحكم ولو مسّا طفيفًا، واكتفى بتعزيز الامتيازات للأجانب.

تنهّد الحكواتي بكلّ جوارحه وتأبّط مجلّده وأدواته... وانسدل الستار.

المقطع الثالث والعشرون:
الفصل الثاني:

ركح الحكواتي

(رفع الستار مع موسيقى خافتة، وظهر على الرّكح القصيّ الحكواتي محافظًا على نفس الهيئة)

الحكواتي مذكّرا: حين تربّع محمّد باي على العرش الحسيني كان الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث قد استأثر بالحكم الفردي المطلق في فرنسا، واختار أدهى وأقذر قنصل عرفته الديبلوماسيّة الفرنسيّة زمنها في شمال إفريقيا وهو ليون روش الذي تزامن إيفاده لتونس مع تولّي محمد باي، فقيل له: «مهمّتك أن تسكن رأس الباي، كن أحد مستشاريه إن استطعت، وظف خبراتك التي اكتسبتها بالجزائر والمغرب وليبيا؛ فالطينة واحدة، وهيّء لنا التربة فنحن قادمون.

وكانت مدينة تونس قد بدأت تعيش اكتظاظًا غير مسبوق؛ لتوافد الجالية الأوروبية من التجار ورؤوس الأموال فاستقرّوا في باب بحر، واختنقت الأربطة، وغصّت الأرباض، وتجمّع البدو الرحّل خارج الأسوار، واختلط الحابل بالنّابل في الحفصيّة، وسيدي مردوم، وباب قرطاجنّة، وغيرها، فانتشرت الجرائم، وكثر قطّاع الطرق، وانفلت عقال المومسات والأفاقين في طبرنات المالطيين وخرب المدينة.

وسُمح لليهود باستغلال حومة «الجرابة» فرمّموها وسكنوها، وسبق أن كان لسيدي محرز يد في سكنى يهود القرانة داخل المدينة؛ فما كان إلاّ أن

تراكمت الأوساخ، وانتشرت الأوبئة مثل الكوليرا فحصدت الأرواح، زادها تعقيدًا الفتن والاقتتال الذي بقي جاثمًا بين الحسينيين؛ حتى انقسم التونسيون إلى حسينية، وباشيّة، وكان لضعف الباي وسقمه آثار سلبية استثمرها القناصل لمزيد بسط السيطرة والتغلغل داخل قصر باردو وفي أروقة القصبة.

وغاب صوت الحكواتي خلف الستار المسدل.

ركح البايات:

(وكان قليل الارتفاع مراعاة للوضع الصحي للباي، الباي ممدّد على ديوان، مصطفى خزنة دار، القنصل الفرنسي ليون روش)

محمد باي وقد ظهرت عليه أمارات السقم: ظنّنا أيّها القنصل المبجّل أنّنا قد نفّذنا مطلبكم وأصدرنا «عهد الأمان»، ففيم غضبكم؟

ليون روش منفجرًا ومعربدًا في وجه الباي: هل نسيتم أنّكم أرسلتم نسخة للامبراطور نابليون الثالث وأشهدتموني كممثل له؟ ثم رميتم بكلّ ذلك عرض الحائط وأعدمتم المغربي الذي قتل جنّان حدائقكم دون أن تسمعوا لدفاعه عن نفسه، أليس هذا تراجعا كليّا عن بنود العهد؟ من تحسب نفسك؟ أتسخر بالدول أم بالتزامك؟ وما ضرّك أن تتريّث بهذا المتهم في السجن إلى أن يقتل على نهج الحقّ؟ لا أضمن أنّ دولتي تسكت عن ذلك اعتبارًا لمقامها.

تربّع محمد باي بعناء شديد وقد أحسّ بإهانة كبرى لم يحسّها قبله أيّ باي حسيني وهو يقول: هذا هو القصاص، أعدمنا قاتلًا، فالقتل حدث تحت أشجار بستاني الذي فيه قصر مسكني، فهل نتساهل وهل نستهين بالجسارة علينا حتى نستهدف في شخصنا؟

ليون روش: وإن كان كذلك وجب الاستماع له، وتوفير محاكمة عادلة، لن نسكت على هذه الانتكاسة، وسوف ندعو ورثته لمقاضاتكم، ونشنّع على رجال الدولة والوزراء الذين يتواطؤون معكم في انتهاك عهد الأمان.

محمد باي وقد هزّته الصدمة: لقد قمنا بالعديد من الإصلاحات، وسوّينا بين كلّ متساكني الإيالة، وسمحنا لليهود بملكية العقارات والأراضي الفلاحية، بل وقبلنا بلبسهم الشاشية الحمراء. ألا ترى بعثنا لأوّل مشيخة وهي تعمل على نظافة المدينة وحماية السكان من العربدة والإجرام... فكيف نقبل بقتل جنّان حدائقنا ولا نعاقب القاتل؟

مصطفى خزنة دار متدخّلًا محاولًا كسر حدّة الحوار بين الباي وليون روش: سيّدي القنصل، لقد استحسن سيدي الباي مقترحكم حول ترميم الحنايا حتى نمكّن المدينة من التنعّم بالماء من زغوان، وما علينا سوى المرور للتنفيذ.

لمعت عينا ليون روش: هذا خبر جيّد، المهندس الفرنسي «كولان» على استعداد منذ مدّة. وقال مخاطبًا نفسه: هكذا يكون الاستباق وبهذا يتمدّد نفوذ الإمبراطور ية، ونحصّل قصب التجاوز على الانجليز ومن لفّ لفّهم من إيطاليين طامعين...

مصطفى خزنة دار متوجّهًا إلى الباي: مدينة تونس ستشهد حركة كبيرة وستصبح من المدن العظيمة، مثلها مثل مدن بلاد الغرب، لقد أكّد لي ذلك السيد ليون روش، وجلب الماء من زغوان وجقار إلى الحاضرة بلا كلفة.

محمد باي: لا أعتقد، فالتكلفة ستكون باهظة، وأنت الأدرى بوضع المالية يا وزيرنا.

ليون روش وقد جعل يتمسكن للباي كسمسار ملحاح: الحلول موجودة، يمكنكم الاقتراض، وما إن تزدهر المدينة وتنمو التجارة وتتوافد

رؤوس الأموال؛ حتى تتمكنوا من خلاص ديونكم، فالناس سيهرعون إلى شراء الأنابيب منه لدورهم، وسيكون لكم من ذلك ربح وفير أنتم في أشدّ الحاجة إليه.

محمد باي: مازلنا نعاني من آثار ما صنع المشير أحمد باشا باي، مشاريع مكلفة وأخرى غير منجزة أثقلت كاهلنا، وهؤلاء القبائل والعربان يتعنّتون في دفع الجباية، وهذا القحط الذي ران على الإيالة زاد الطين بلّة، ولكن طالما تضمنون لي نموّ العمران وجريان الأموال؛ فلن أمانع وسأمرّر ذلك عند رجال دولتي وأتجاوز عن ممانعة بعضهم.

ليون روش موغلًا في تكبيل الباي وتوجيهه: أليس اليهود من ضمن جاليتكم؟ لقد وفروا أموالًا طائلةً، فلماذا لا تقترضون منهم؟

محمد باي قاطعًا كلام القنصل: إنّهم مرابون، سيذبحوننا ذبحًا.

مصطفى خزنة دار: تهذيب المدينة وتطويرها بات أمرًا مطلوبًا، علاقاتي جيدة مع أثرياء اليهود ورؤوسهم، سأتدبر الأمر من بعد إذنكم، ثم همهم بينه وبين نفسه: «المشير أحمد باي ترك في الخزينة ما يقارب الإثني عشر مليونًا، أنفقتها سيدي الباي في شراء الجواري الحسان من مختلف البلدان، وأراك تقتّر في هذا الانجاز، يا للعجب».

وأخيرًا هزّ الباي رأسه موافقًا على مقترح ليون روش، وطلب أن ينقل إلى إقامته بعد أن بلغ به العياء مبلغه.

ليون روش مقتربًا من مصطفى خزنة دار بعد نقل الباي: سيكون بيننا لقاءات عدّة في قصرك بالحلفاوين، دع مشاريعنا في كنف السريّة حتى نباشرها، ولتكن جلساتنا بعيدة عن أعين القناصل، عليك تدبّر مبلغ سبعة

ملايين ونصف مليون فرنك تدفع للمهندس مكاتيب على آجال، والدولة تدفع ربا المكاتيب وتدفع ثمن الأنابيب حالاً، ولا تدع خبر الدين يؤثر سلبًا على الباي، فقد بلغه أمر جلب المياه وأبدى اعتراضًا هو وعامل الساحل قائلًا: إنّ جلب الماء من زغوان يستدعي مصروفًا كبيرًا، فأعطني عشره أصلح منه سائر الفساقي. ضع في أذهان هؤلاء أنّ القصد هو بيع الماء.

مصطفى خزنة دار متماهيًا مع ليون روش: ورتشارد وود القنصل البريطاني، ماذا نصنع معه؟

ليون روش: هو على رأسهم، ألا ترى أنّه يجتهد في جعل مملكتكم تابعة كليّا للدولة العثمانية، بينما أنتم جديرون بالاستقلال وأن تكونوا أسياد أنفسكم وأسياد مشاريعكم؟

تلعثم مصطفى خزنة دار وهو يقول: سوف نرى... وحاور نفسه: «علاقتي برتشارد وود جيّدة جدّا، كيف لي أن أغيّبه وخاصّة حين يتعلّق الأمر بالمشاريع الكبرى والقرارات الهامة؟ هو نفسه اقترح مشروع سكة الحديد، وقد نغنم منه عمولة خيالية، تبّا لهذا الرّوش، يكاد يخنقنا بمطالبه وإملاءاته.

حين أسدل الستار على ركح البايات، تسلّط الضوء على الحكواتي الذي بقي ثابتًا وبيديه المجلّد حتى سمع صياح واحد من الجمهور وهو يقول: تبّا لهؤلاء الجشعين، لم يتركوا وطننا يقوم على ساقيه، ولن يتركوه كما نرى الآن من تكالب وحبّ للسيطرة ورهن البلاد، ولكن العيب ليس فيهم؛ فهم يحتلون البلدان لتنعم شعوبهم وتزدهر أوطانهم، وحكامنا يفعلون العكس، يبيعون لمصالحهم الذاتية.

وأردف متابع آخر: لم يفتأ قناصل وسفراء فرنسا يضعون أنوفهم في كلّ كبيرة وصغيرة، أيريدون حمايتنا كما قال كاهننا؟ ألم تر ما صنع «الزيتوني دارفور»؟ حرث البلاد من شرقها إلى غربها، لبس الشاشية، أكل الملوخية والعصائد، تعرّف على المشاتل التونسيّة، علم مقدار ما تضخّ أنابيب نفطنا الذي لا نعرفه، راقص نساءنا، وحضر أفراحنا ونسي أتراحانا، ولم يذكر شهداءنا الذين أسقطتهم طائرات بلاده... إنّه يحمينا، إنّه يحمينا وكاهننا لا يخطئ.

حينها انتفض الحكواتي وقرّب إليه المصدح وقال بصوت مجهد: وبهذا أوقع هذا الباي الإيالة في ورطة بسيّئة هذا الماء وهو في مرض الهرم، وكانت هذه الصفقة السبب الذي جرّ إلى ما بعده من أسباب النقصان والخراب.

وظلّ ليون روش ساكنًا في رأس محمد باي، أوامر، وتوجيهات، ومطالب، واعتراضات؛ مستغلاّ سقم الباي وتوطد علاقته بمصطفى خزنة دار، وظلّت الحرب الباردة قائمة بين قناصل الدول الأوروبيّة، كلّ يسعى إلى تثبيت جذور بلده والحصول على الامتيازات الحصرية، وأشدّ سعار هذه الحرب كان بين رتشارد وود قنصل الانجليز وليون روش الذي بات حضوره في سرايا البايات طاغيًا، وحتى يتقي محمد باي لؤمه لم يكن ليعترض على مطالبه، وكثيرًا ما سعى إلى التودّد إليه بالهدايا القيّمة، فوهبه دار الكاملة بالمرسى لتصبح من ذلك التاريخ مقرّ إقامة المقيمين العامين ثمّ السفراء الفرنسيين... تنهّد الحكواتي وهو يردف: دار الكاملة وهي كما هي كاملة بناءً وزخرفًا وعراقة، تاريخًا وآثارًا... تمتدّ على أرض شاسعة، إنّها قطعة من الجنّة المسيّجة يحلم أبناء الوطن بمجرّد رؤياها في أيّامنا.

ثمّ تمادى ليون روش طالبًا من الباي السّماح له ببناء القنصلية الفرنسيّة في قلب تونس حيث تتفرّع شراييها النّابضة، وكان الباي حينها يعدّ

أنفاسه الباقية فاستجاب دون قيد؛ لتنطلق الأشغال وتظلّ قائمة لثلاث سنوات كاملة. ولم يزل القنصل الفرنسي يعدّ العدّة ويمهد الطريق لتغلغل فرنسيّ سوف يغوص عميقا.

مرّ صيف ذاك العام ثقيلًا؛ رطوبة خانقة، وحرارة عقبت جفافًا سدّ على الناس أنفاسهم وسرّع بتفشّي الأمراض، وعمّت الحاجة جلّ سكّان الإيالة وقد غلبهم التوجّس؛ لانتشار خبر مرض الباي وعجزه المتواصل عن متابعة شأن الحكم الذي بات في يد مصطفى خزندار وقناصل الدول الأوروبية الذين كان لهم سرعة الكواسر في الانقضاض على الفرائس، ولم يحلّ شهر سبتمبر بغباره وأتربته وجدبه حتى سمع السكان بوفاة المشير محمد باي، والاستعداد لتنصيب أخيه محمد الصادق باي.

المقطع الرابع والعشرون
الفصل الثالث:

(رُكح الحكواتي وكان عاتما على غير العادة، حذو المجلّد قنديل خافت وصوت أهازيج بدويّة مرافقة، ونحنحة الحكواتي تعلن عن انطلاق الحكي)

الحكواتي: كانت ليلة مبايعة محمد الصادق باي شنيعة، هبّت خلالها رياح عاصفة كادت تقتلع تونس من جذورها، تراكمت سحب سوداء حجبت الرؤيا، وانتشرت القناديل وانطفأت، انشقّت السّماء عن برق لامع متقطّع ورعود صمّت الآذان، واندلقت الأمطار عند الفجر وسالت المياه في الدروب حاملة الأتربة والأوساخ المتراكمة؛ حتى عجز المترجلون عن قطع سبلهم من الطمي، ولم يقدر على تلك الأكوام العالقة غير كاليس أو كرّيطة يسوقها سواق مالطيون ويركبها الأعيان وكبار التجّار؛ وكانوا يحثون السير نحو سرايا باردو لحضور حفل المبايعة.

استبشر سكان تونس بغسّالة المنادر وقد خلت ذاك الصيف من النوادر؛ بسبب جدب أكل الأخضر واليابس، وأسرّوا في أنفسهم بداية عهد جديد بشائره هلّت مع موسم واعد بالخصب، وباي آخر يستعدّ للجلوس على العرش.

كابدت شمس ذلك اليوم سحب ليلة ماطرة وانبلجت عند مطلع الصباح لتنشر أشعّتها الذهبيّة فاستضاءت المدينة، وكانت باردو عروسًا بهيّة حيث تجمّع حول السرايا عدّة أنفار جاءوا للفرجة، وآخرون من الفقراء والمتسولين الذين تعوّدوا على غنم بعض الدريهمات التي دأب البايات على التكرّم بها ونثرها في التجمّعات اللاهثة، الحافية، الراكضة خلف مواكبهم.

وكان الأعيان يلجون من باب جانبيّ لا يفتح إلاّ بعد إذن.

تزينت السرايا وانتظمت صفوف العساكر على اختلاف رتبهم من زواوة، ومخازنية، وضباط، وأمراء لايات.

انتصبت فرقة موسيقية في ناحية من صحن البرج بسرايا باردو، وكانت تستعدّ لعزف النشيد الحسيني؛ إعلانًا على بداية مراسم المبايعة.

غصّت «البيت الكبرى» في صحن البرج على ما جرت عليه العادة بالمدعوين من الوزراء، والأعيان، وأمراء العائلة الحسينيّة، ووجوه الحاضرة، والمجلس الشرعي، والقناصل؛ وكان من بينهم ليون روش القنصل الفرنسي الذي لم يسعه كرسيّه في ذلك اليوم، كان يصول ويجول، آمرًا ناهيًا، مخاطبًا الجميع بتعالٍ وفوقيّة لافتة، وما إن وقعت عيناه على مصطفى خزندار حتى أشار له بيده كي يوافيه قائلا:

ركح البايات:

(محمد الصادق باي، مصطفى خزنة دار، ليون روش)

ليون روش: أريد الدخول على الباي الآن، هناك أمر مستعجل يجب أن يسمعه مني على حدة.

مصطفى خزندار غير مرحّب: أطلب من سيادته الإذن أوّلا.

محمد الصادق باي داخل مقصورة جانبية بصدد الاستعداد للخروج: ماذا وراءك أيّها الوزير الأكبر؟

مصطفى خزندار: سيدي الباي، لقد طلب القنصل الفرنسي لقاءك قبل المبايعة؛ فجئت أستأذن له.

محمد الصادق باي وهو في أبهى حلّة: (بصدد تفقد نياشينه) ماذا وراءه هذا الملعون؟ كيف له أن يفعل ويستبق الوزراء والأعيان إليّ؟

مصطفى خزندار محرجًا: لم أسأله سيدي، ومن غير اللاّئق أن يستفرد بك قبل توليّك.

محمد الصادق باي: تراه يريد تذكيري بعهد الأمان ذاك العهد المشؤوم الذي سمح له بإهانة المرحوم المشير محمد باي وقلّص من صلاحياتنا وجرّأ علينا اليهود والنّصارى، لقد ذكرني بهذا العهد مصطفى صاحب الطابع حال رجوعي من المحلّة عشية وفاة أخي، وجعل ولايتي موقوفة عليه، وإنّي لن أخالف ما عاهد عليه المرحوم ولكن ليس بطريقة الغصب الذي أرى.

مصطفى خزندار: إذن أخبره برفضك سيدي الباي؟

محمد الصادق باي: افعل، افعل لن أقدّمه على الوزراء والأعيان وبقيّة القناصل، لست مرتاحًا له مطلقا.

ركح المبايعة:

(كان الركح فسيحًا، فخمًا، اصطفّ فيه المدعوون في انتظار حفل المبايعة، وماهي لحظات حتى أقبل محمد الصادق باي وتمّت المراسم، وكان من أهمّ مضامينها رسالة الالتزام بعهد الأمان لسائر السكان على الأعراض والأموال والأبدان).

ليون روش متوجّهًا نحو الباي في نهاية المراسم: سيدي الباي، لو كانت المسألة تنتظر لما طلبت مقابلتك منذ حين، الأمر مستعجل!

محمد الصادق باي عابسًا: عذرًا سيدي القنصل، هل الأمر بهذه الخطورة؟

ليون روش وقد علا وجهه تجهّم: أي نعم سيدي الباي، لقد تكرّر اعتداء بعض القبائل التونسيّة بالشمال الغربي على رعايانا القاطنين بالحدود الجزائريّة، ومنهم من سعى لتهريب الأسلحة داخل مستعمرتنا، وسعادة المقيم العام الفرنسي بالجزائر يطلب منكم المسارعة باتخاذ الإجراء الرّادع.

محمد الصادق باي متضايقًا: دع الأمر حتى نمسك بدفّة الحكم، إنّه يوم مبايعتي، فلم كلّ هذه العجلة؟

ليون روش: الأخبار القادمة إلينا من الجزائر تؤكّد على تفاقم الأمر، وأنّ أرواحًا قد تسفك.

مصطفى خزندار راغبًا في إنهاء الحوار وهو يكظم غيظًا كبيرًا: سوف ننظر في الأمر يا مسيو ليون قريبًا، لا تنزعج.

ليون روش مواصلًا احتجاجه: وما الإجراء المنتظر تجاه رجل بغداد الذي ظهر بجبل خمير وادعى أنّه الإمام المنتظر، وطفق يحرّض سكان الجبل على الفرنسيين بالجزائر ورغبته في الجهاد، نطلب إبعاده عن الحدود وعقابه، نراكم لم تمنعوه ولا منعتم المترامين عليه، إمّا تتحرّك، أو تدخل قواتنا لتأديبه وأتباعه.

محمد الصادق باي: بل نجلبه ونأمر بقتله.

وينزل الستار على الركح الفسيح.

(عودة إلى ركح الحكواتي وفي خلفيته وضعت لافتة ضخمة وواضحة احتوت خارطة قديمة لشمال إفريقيا، ضمت كل من: ليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب)

الحكواتي وقد بدا مكدّرًا: كان يا ما كان، في سالف العهد والأزمان، ما سمّي بلاد المغرب تضمّ كلّ هذه البلدان وأشار بيده إلى الخريطة المعلّقة،

بينها تاريخ عريق ودماء وأنساب، مرّت عليها حضارات وسلاطين وحكام، غزتها الروم وعدد من الأقوام، فانتصرت حينًا وانهزمت أحيانًا، فيها البربر والعرب، بيض وسودان، حتى إذا داهمها الانفصال؛ غدت لقمًا سائغة لكلّ مقتحم وعاد، ودبّت بينها عداوات بلا حسبان، فغدت مسرحًا لكلّ قرصان، ونكبت أندلس الأخت القريبة وهيمن أرباب الصلبان، وصارت خصومة الهيمنة مع بني عثمان الذين سادوا لقرون من الأزمان، قبل أن تدبّ الفتن والظغائن، فتقدمت جحافل الغرب والاستعمار، ووقعت الجزائر بين فكّي فرنسا، كتائب من العساكر والمعمّرين والرهبان، استيطان وإبادة وتهجير، واعتداءات من كلّ أشكال وألوان.

حتى إذا استتب لها المقام موسومًا بالطغيان؛ نظرت بعين الشراهة لتونس وخططت للعدوان.

وأردف الحكواتي: بعيدًا عن بث الأحقاد وسياسة فرّق تسدّ التي اعتمدتها فرنسا داخل الجزائر وما جاورها، كانت القبائل التونسية المتاخمة لنظيرتها الجزائريّة في علاقة قربى وتصاهر وتزاور، حتى وقع شاب يافع من سدرة إحدى فروع قبائل خمير في عشق صبيّة من قبيلة نهد.

كان الفصل ربيعًا عامها، وكانت غابات البلّوط الواسعة تغطّي أديم المنطقة الحدوديّة بين تونس من شمالها الغربي والجزائر من شمالها الشرقي، أشجار باسقة متلاحمة وأعشاب عانقتها؛ فسدّت خلالها المسالك، وكانت الجبال تشكّل قلاعًا طبيعيّة تحمي المكان من كلّ غريب ومقتحم، إلاّ أهل القبائل الحدوديّة فقد خبروا الممرّات السريّة والثنايا والمسارب التي تشقّ الجبال والغابات؛ ليحققوا التواصل وتبادل البضائع فيما بينهم، قد تحدث بين بعضهم البعض مناوشات، ولكنّها تظلّ معزولة أمام حالة التآزر التي

أبداها التونسيون في السنين الأخيرة إثر احتلال الجزائر من قبل فرنسا، فقد فتحوا بيوتهم لإيواء الثوّار المطاردين ودعموهم.

وفي ذلك الفجر الرّبيعيّ المزهر كان الهادي الوشتاتي يقطع على فرسه طريقا شائكة، وهو عازم على الوصول إلى عدوة الجزائر قبل الظلام؛ حتى يلاقي صديقه الجزائري ليسلّمه بعض الأسلحة والبارود الذي تحتاجه مقاومة الاحتلال، وقد استأنفتها بعض القبائل بعد قضاء المستعمر الفرنسي على ثورة الأمير عبد القادر.

ما إن وصل الهادي الوشتاتي إلى المكان المعهود حتى لمح عن بعد صديقه العربي بوزيّان في حالة ترقّب، صاح كلاهما وقد تلاقت الأعين: نحن هنا، نحن هنا، وهي كلمة السرّ بينهما، تعانقا طويلًا ثم قال العربي بوزيّان:

قلقت عليك، الطريق وعرة ولا تخلو من مفاجآت، فبعد تفطّن عسس الاحتلال إلى شحنة بارود على ظهور الأحمرة؛ باتوا يمشطون الحدود ويضيقون على القوافل والرّعاة، كيف وضعكم في تونس؟

قال الهادي: طمئنّي عن وريدة أوّلًا، أمّا عن وضعنا فهو يسوء يومًا عن يوم، أنتم تعانون سلطة محتلّة، ونحن نرزح تحت سلطة باي، ومماليك، ومجبى.

ضحك العربي بوزيّان وهو يستأنف: رأيت حبيبتك وريدة منذ أسبوع تجلب الماء من الوادي القريب من مضارب القبيلة، وقد سألتني بخفر عنك؟ قلت لها وأنا أتصنّع الجديّة: «لقد أمسك به جنود فرنسيون وهو يحاول الوصول إلينا، فشهقت شهقة كادت توقع الجرّة من يديها، فبادرت إلى طمأنتها وإعلامها بقرب حضورك.

صاح الهادي الوشتاتي: هيّا بنا نتسلّل إلى مضاربكم، فالظلمة قد طغت وعلينا إخفاء هذه الحمولة قبل إيصالها إلى قبيلة الصبايحيّة والتي لم تفتأ تكيل للمحتلّ الضربات.

أردف العربي بوزيّان: لا يكفي أنّهم احتلّوا الأرض، بل أصبحوا يجبروننا على خوض حروبهم ضدّ أعدائهم، هل سمعت بحرب فرنسا مع الألمان؟

الهادي الوشتاتي مجيبًا: لا أدري، وكلّ ما أعلمه أنّ الفرنسيين جاؤوا لنهب خيراتنا، وأنّ احتلال تونس لن يتأخّر.

العربي بوزيّان: أرى أن نحمل هذه الأسلحة والبارود مباشرة إلى قبيلة الصبايحية؛ مغتنمين هذه الظلمة الحالكة وهذا الصقيع الذي لن يشجع الحراس على دوريات التمشيط، وبعدها نتفرغ إلى شؤوننا، آه، نسيت أن أخبرك أن شياهنا المشتركة قد أنجبت خرفانًا رائعة.

لم يبد الهادي الوشتاتي ممانعة، وسار الصديقان يقطعان الطريق إلى مضارب قبيلة الصبايحية، وما إن بلغا نصف المسافة حتى بوغتا بجلبة وحركة، وسمعا طلقات نارية تُطلق عشوائيًا؛ فعلما أنّهما قد وقعا في كمين دوريّة لجنود الاحتلال، حاولا التراجع والفرار، غير أنّ الدوريّة سرعان ما طوّقتهما وأوقعتهما في الأسر واحتجزت حمولة الفرس، ليخضعا إلى المساءلة والتعنيف ووجها إلى سجن سوق هراس في اليوم الموالي.

سوق هراس، صاح العربي بوزيّان: سجنها فظيع، لا أحد دخله وتمكّن من المغادرة، ضعنا يا الهادي ولا نجاة لنا، ستخنقنا رطوبة جدرانه و يفقدنا الظلام أبصارنا، يا الله نجّنا، ولا أحد من الأهل سيعلم بمصيرنا ضعنا يا الهادي.

كان الهادي في حال من الذهول والصدمة فلم ينبس ببنت شفة، بينما ظلّت سيارة الجيب العسكرية تطوي الطريق طيّا، وكان الصديقان يراقبان هروب الغابات من حولهما بخضرتها وأشجارها المتعالقة كأنّما تودّعهما وهي على عجل من أمرها، ولمّا رأى العربي بوزيان جبال بني صالح السّامقة قال بصوت متهدّج، سنجتاز وادي مجردة الذي ربط بين بلدينا بحبل من ماء يا صديقي، ونحن نقترب الآن من سوق هراس تلك العروس المحاطة بالجبال المكسوة بالغابات، لقد جعل المحتلّ من مدينة الأسود كما سمّاها أسلافنا البربر سجنًا كبيرًا؛ عقابًا لها بعد أن أضحت تمثل القاعدة الشرقية للثورة الجزائرية.

المقطع الخامس والعشرون:

الفصل الرّابع:

الغويان أو المقصلة الجافة:

(ركح الحكواتي «وقد بدا الحكواتي متأثرا وهو يتحدث عن مستعمرة الغويان البلد الذي أرعب ذكره الحضورقال:)

كان الهادي الوشتاتي مايزال تحت الصدمة وهو يستمع إلى الأمر بالتغريب المؤبّد له ولصديقه إثر صدور حكم مستعجل من المقيم العام الفرنسي بالجزائر. نظر الهادي في عيني العربي بوزيّان وهو يتمتم كلامًا متقطّعًا: «هل سنموت؟ ماذا يعني هذا الحكم؟

قال العربي بوزيان والحزن يرجّ صوته رجّا: الأدهى من المؤبّد هو التغريب، سينقلوننا خارج الجزائر، ويقطعون كلّ أمل لنا في العودة والموت في بلادنا، لقد نفوا الكثير من الثوار ولم يعودوا أبدًا، ولا نعلم حتى إلى أين أخذوهم، وقد بدأت موجات التهجير بعد انتفاضة سوق هراس حينما رفضت قبيلة واسعة الانتشار وهي «عرش الصبايحية» الأوامر لمّا قرر وزير الحربية الفرنسية تجنيدهم في الحرب ضد بروسيا، فحمل رجالها السلاح وثاروا، فحكم على المتخلفين والثوار بالنفي وأردف: «سمعنا أنّ المنافي في جزر نائية جدًا استعمرتها فرنسا وعمّرتها بالعبيد من إفريقيا، وبنت فيها المعتقلات والسجون.

ردّ الهادي الوشتاتي بصوت مذبوح: هل أصبح الموت في الوطن أمنية؟ أيّ فظاعة يمارسها هذا المحتلّ الغاشم؟

لم يُترك المسجونان مع بعضهما وفصلا كلّ في زنزانة بانتظار الترحيل.

مرّ قرابة الشهر أو أكثر على السجينين وهما في عتمة مطبقة لا يصيبان إلاّ بعض اللّقم الجافة وجرعات معدودات من ماء آسن؛ حتى خار الجسدان وأضحيا ينتظران يوم الترحيل بفارغ الصبر.

استبشر الهادي الوشتاتي لمّا أقبل عليه حارس الزنزانة ذات فجر يأمره بالاستعداد للخروج، لقد ذهب في ظنّه أنّه سيلاقي صديقه وأنّهما سيغرّبان معا، ولكن حين أركبوه الفرقاطة تفرّس في الوجوه كلّها فلم ير غير عبوس ولوعة وصمت قاتل يلفّ المساجين المصفّدين، ولم يكن من ضمنهم العربي بوزيّان؛ فاعتصره ألم وذهبت به الظنون: «أيكون قد أعدم؟ هل انهار وفاضت روحه وهو النّحيل جسده؟ بقيت أسئلته معلّقة بعد أن أنهاها أحد الحرّاس آمرا: «خذ مكانك، واجلس».

نظر فلا مكان يخصّه، الأجساد المنهكة مكوّمة فوق بعضها البعض وكأنّها الخرفان يوم السّوق تُحمل على الكرّيطة للبيع، لم ينتظر طويلًا حتى دفعه الحارس فوجد نفسه فوق بطن خاو لسجين اشتدّ سعاله، فبقي الهادي ينتفض ويهتزّ كلّما داهمت نوبات السّعال الرّجل، فزاد أن عمّق حالة السّجين المصاب بكبت أنفاسه مكرهًا.

اغتنم الهادي الوشتاتي فرصة انشغال الحارس ليسأل: «أين بقيّة المحكومين مثلنا، لي صديق نال نفس حكمي ولم أره؟

أجابه أحدهم: لقد قسّمونا يا أخي، ويظهر أن وجهاتنا مختلفة، لقد دأبوا على ذلك حتى لا نمثل ثقلا، إنّهم يحتاطون لكلّ شيء.

تحرّكت الفرقاطة قبل الغروب، وسرعان ما أظلمت فلم يتمكّن المساجين من معرفة الاتجاه، فركنوا إلى الانطواء وسرحت بهم الأخيلة السوداء لتنسج أشرطة حياتهم الماضية، يذكرون الأهل والأولاد والزوجات والأمهات والوطن المستباح، حتى قال أحدهم بصوت خفيض: «في الطابق السفلي للفرقاطة رأيت ما يناهز الخمسين نفرًا من ذوي البشرة السوداء، وبينهم أطفال ونساء يبدو أنّهم يأخذوننا معهم إلى مستعمراتهم ما وراء البحار التي حدثني عنها بعض البحّارة».

فقال الهادي الوشتاتي: ماذا يعني ما وراء البحار؟ اعتقدت أنّهم سينفوننا بفرنسا أليس كذلك؟ أجيبوني أكاد أجنّ.

ولكنّ الصمت المريب قد أطبق، والظلمة الحالكة قد تعمّقت، ولم يبق غير أزيز الفرقاطة والأمواج تخبط جنباتها خبطا، مع ما يتناهى إلى مسامعهم من قهقهات الطاقم وهم يعاقرون الخمر ويتبادلون المُلح. صباحًا صمّت آذانهم أصوات استغاثة تتأتى من الطابق السفلى وهي تصرخ بفرنسية مائلة: «لقد مات الرّجل، نبّهنا السجّان إلى حرارته الكاوية، ولم تلبث الجلبة طويلًا، إذ سرعان ما خمدت الأصوات تحت وابل من التهديد والضرب، وسمع المساجين انتفاض الأمواج المجانبة للفرقاطة وهي تتلقّى بوحشيّة ما ألقي في أحشائها فران صمت الجنائز وفزع الموت على النفوس، فلم يسمع غير آهات لاهثة، محشرجة.

لا يذكر الهادي الوشتاتي كم بقيت الفرقاطة في عرض البحرأو المحيط الذي كاد يغمرهم بأمواج كالجبال، فقد كانت تنتابه حالات الإغماء ودوار البحر، حتى إذا ظهرت اليابسة وتفقد المساجين من حوله وجد أنّ العدد قد تناقص، وأنّ البحر عرف ولائم عدّة.

كانت هبات ريح حارّة آتية من اليابسة قد تمكّنت من اختراق رذاذ الموج المصّاعد، ولفحت الوجوه لفحًا ذكّر الهادي بلهيب الحطب تحت القدر؛ لمّا كان يرابط إلى جانب أمّه في انتظار لقمة بعد أن يطوّح به الجوع. صاح: «هل يأخذوننا إلى جهنّم، ما هذه النّار التي نسير نحوها؟».

وكز الحارس الهادي بمؤخرة البندقيّة: أن اصمت، هذه الشمس الاستوائية في الغويان التي ستقضون فيها بقيّة عمركم وقهقه، فكشف عن فم كريه وشماتة ترجمتها نظراته المليئة كراهية ثمّ استأنف: «خذوا أمتعتكم الرثة واستعدّوا للنّزول».

ظلّ الهادي شاخصًا وهو يحدّث نفسه: «أنا ابن الجبال السامقة والغابات الوارفة والسّماء الماطرة يُلقى بي في أتون دائم الاستعار، كيف لي أن أعيش هنا في هذا الجحيم؟ أيّ ذنب اقترفت غير شوق جارف لرؤية وريدة حبيبة القلب؟ أيّ ذنب اقترفت غير شهامة أبت عليّ رؤية إخوتي الجزائريين يذبحون دون أن أمدّ يد العون؟

في الوقت الذي كان الهادي الوشتاتي يُرحّل مع المساجين إلى المعتقل بالغويان؛ كان صديقه العربي بوزيان قد استقرّ بعد بجزيرة سانت مارغريت بأحد أكثر السّجون حماية وبرودة وعزلة. فيه حشر جزائريون وفرنسيون ممن عارضوا مختلف النظم الحاكمة، وملل أخرى لم يتعرّف عليها.

وأردف الحكواتي: هكذا أنهى الاحتلال صداقة الهادي الوشتاتي والعربي بوزيان التي دامت سنوات؛ فألقى الأول بجزيرة بالمحيط الأطلسي، والثاني بأرخبيل ليرنس بالريفيرا الفرنسيّة.

قال أحد المشاهدين معلّقًا: أهذه فرنسا الأنوار والثورات؟ أيّ مفارقات تلك التي تقلب المفاهيم رأسا على عقب؛ فتجيز فرنسا لنفسها

ممارسات مستبدة، أشعلت من أجل تجاوزها الثورات، ونصبت المقاصل، وقدمت شلالات من الدماء في سبيل الحرية ؟

ثمّ تهيّأ الحكواتي لمغادرة الرّكح تحت طلبات المشاهدين وهم يصرخون: «نريد معرفة الحكاية، نريد معرفة النّهاية، وهل نجا الهادي الوشتاتي من الغويان؟

ولكنّه قال مودّعا: لن تستغرق الغويان كلّ جهدي، الآن لا بدّ من العودة إلى الوطن بحثًا عن الأسباب وصولًا إلى النتائج، أنتم تعيشون حاضرًا رُسمت خطوطه المهتزّة منذ سنين ولم تسألوا كيف؟ أو لماذا؟

الفصل الخامس:

ركح البايات: (محمد الصادق باي، مصطفى خزندار)

محمد الصادق باي: ماذا وراءك أيها الوزير الأكبر؟

مصطفى خزنة دار: ليون روش سيدي الباي يصرّ على إدخال التلغراف من الجزائر إلى تونس، وكلّ المصاريف موضوعة على عاتقنا، فما هو رأي سيادتكم؟

محمد الصادق باي: سبق وأن رفضنا الأمر، وقد أكد لنا أحمد بن أبي الضياف حصول مصروف زائد لا داعي له، لن نحتاج التلغراف، ونحن نعاني مديونية أخذت تتفاقم.

مصطفى خزنة دار: نسوّف القنصل إذن إلى حين، رغم إصراره وقوله: لقد وافق عليه المرحوم محمد باي، وما علينا سوي التنفيذ.

محمد الصادق باي: أجّل الخوض في هذا الأمر، ولست أرى الداعي من هذا التلغراف غير نوايا مبيّتة يضمرها هذا الثعلب ليون روش، من سيستفيد من أسلاك الحديد والأعواد المغروسة في قفار الفيافي تتحكك عليها الوحوش والسوائم عدا أفراد الوافدين؟

واسترسل في غير موضوع التلغراف: هل تمّ إعلام أفراد الأسرة الحسينيّة بأنّنا لن نسدّد ديونهم وأنّ مصاريفهم وسفرياتهم وسهرهم في فرنسا وقمارهم قد يفلسنا عمّا قريب؟ احجروا عليهم، ولا تدعوهم يتصرّفون بحريّة ولو في ذواتهم.

واحتدّ صوته: لن أسدّد فرنكا واحدا... مفهوم؟

مصطفى خزنة دار متماهيًا: أمرك ينفذ، ولكن ماذا نفعل بكرسي العرش وأثاث السرايا؛ وقد طلبت تغييره بكرسيّ يوضع على درجتين، وتنميقه بالذهب وتغطيته بالحرير، ومثله في بيت الباشا والبيت الكبير؟

محمد الصادق باي: ذاك عرشنا يا وزيرنا، وتلك أبهتنا في أعين القناصل والوزراء والأعيان والوفود، مثلها مثل القوانين التي أصدرناها بخصوص تنظيم العسكر؛ حتى نكون كبارًا في نظر الآخرين.

مصطفى خزنة دار: كلّ الإصلاحات التي أمرت بها تمت، الخدمة العسكرية أضحت إجبارية، وها أنّ الجنرالات يشرفون على هيكلة الجيش، وقد أصبح جهاز الشرطة جاهزا.

محمد الصادق باي: جيّد، لا تنس أمرنا بحذف خطة الداي ليصبح لنا ولاة.

مصطفى خزندار: غدًا يتمّ تدشين قنصليّة فرنسا، فماذا تقترح لهذه المناسبة؟ علمًا وأنّ المشيخة قد أطلقت عمال الكنس في محيط القنصليّة وقد أزالوا الأوساخ وهدموا تلك الأكواخ المنتشرة، وأغلق أعوان الضبطية الطبرنات، تمّ تنظيف المكان وتوارى المتسكعون.... لقد تغير المنظر الخارجي لباب بحر، سوف تُسرّ لما سترى سيدي الباي.

محمد الصادق باي مزهوَا: جيد، جيد، سوف تعيش الإيالة أزهى سنينها في حكمي، آه لولا هذا الجدب وتلك الديون لجعلنا من تونس مدينة تضاهي باريس، وأردف: «سأنتظر غدًا القنصل الفرنسي لنركب نفس الكروسة وننطلق للتدشين، أعدّ ما تعوّدنا منحه لرعايانا في مثل هذه المناسبات ولا تطلق يدك يا وزيرنا الأكبر، فالخزنة باتت خاوية.

مصطفى خزنة دار وهو ينعم برأسه ويستعد للمغادرة: لقد جلبنا بعض الغلمان إلى السرايا، فهل تريد رؤيتهم الليلة؟

محمد الصادق باي: لتكن سهرة مميزة احتفالًا بالتدشين.

وعاد الحكواتي إلى ركحه ليلبي مطلب المتابعين السائلين عن قصة الهادي الوشتاتي.

المقطع السادس والعشرون:

الفصل السادس:

جزيرة الشيطان:

ركح الحكواتي: (وهو لا ينفكّ يباغت الحضور بالحكي عن الغويان وجزرها)

كانت الأمواج على ساحل المحيط الأطلسي هادرة، وكانت الشمس متوثبة ترسل بأشعة نيرانيّة كأنّما أفلتها الجحيم من محبسه، فلا تلبث أن تقع على الرؤوس كسياط ملتهبة، وكان الجوّ خانقًا ومثقلًا بالمجهول لمّا رست فرقاطة المنفيين في أحد الموانئ البدائية المهجورة، وكان الهادي الوشتاتي قد انتابته نوبة من الحمّى أفقدته وعيه؛ فكان يردّد اسم العربي و وريدة و ينادي أمّه بصوت مبحوح، فلم يلبث العسكري أن انهال عليه بمزيد من الضرب والشتيمة وهو يصرخ: انزل، انزل إلى البرّ، ولا تؤخّر عودتنا بجنونك المزعوم أو نلقي بك إلى أسماك القرش.

جذب أحد المنفيين الهادي الوشتاتي وأرغمه على النزول فلا ينفّذ العسكري الحاقد وعيده. مشى الهادي على حجارة ملتهبة بلا هدى في كوكبة المنفيين المصفّدين، وما إن يتعثر أحدهم أو تعيقه الكثبان والأعشاب المتوحشة؛ حتى تنهال عليه أيدي العساكر دون رحمة.

عرّج العسكريون بالمنفيين إلى دغل مترامي الأطراف تشابكت أشجاره حتى بدا مظلمًا، ولكنّه خفّف عنهم سطوة الشمس. وما إن أوغلوا مشيا وزحفا حتى ضاقت أنفاسهم، صاح أحدهم: «الماء، الماء»، فصرخ به العسكريّ: «لا ماء قبل الوصول إلى المعتقل».

ثمّ خيّم صمت مؤذٍ على نفوس بائسة مغلوبة مصفّدة مقتلعة من تربتها، يرومون الإلقاء بها في هذه الأرض المشتعلة الخانقة، ولا ذنب لها غير تعلّقها بمنبتها ومنابع جبالها الشمّ وصحاريها ووديانها وسهولها الخضر وبحارها المتلاطمة، كيف لهذه النفوس أن تهدأ؟ كيف لها أن تعوي وتنفث رفضها وقهرها وإحساسها بغبن أمات فيها الانتماء إلى عالم البشر، فأضحت تساق كالسّوائم؟

سقط في الدغل بعض المنفيين بلا حراك؛ فأميطت الجثث عن الطريق، وحثا العساكر عليها بعض التراب، وتواصلت الرحلة وكأنّ شيئا لم يقع.

وقال أحد المسلحين المرافقين: هؤلاء الأوغاد، فقدنا نصفهم في الطريق، ألم يقدروا على الصمود حتى بلوغ هذا المعتقل مشيرًا بيده، فإذا هم أمام بناء قائم داخل الدغل تحيطه أسوار وطيئة خلفها حرّاس مسلّحون. وانفتحت بوابة حديدية صدئة، وأخذ حارسها يعدّ المنفيين متفرّسًا في وجوههم الكالحة، وما إن أنهى المهمّة حتى قال ساخرًا: أهلا بكم في جزيرة الشيطان، وأردف موجهًا الخطاب إلى قائد الجند: «وأين أخذتم الزنوج؟

فأجاب: إلى «كاين» حيث يحتاجهم بعض المعمّرين الفرنسيين.

ثمّ جعل صاحب البوّابة يصفّف المنفيين بانتظار قدوم لجنة من الجنود؛ للقيام ببحث حولهم، وترسيم معلومات شخصية، وإيداعها ملفّات خاصّة، ثم خطب فيهم القائد قائلًا: أودّ إخباركم بأنّ حياتكم ستنتهي هنا، فأنتم محكومون بالتغريب المؤبّد، فلا تجعلوا وجودكم جحيمًا، أدعوكم للتأقلم مع واقعكم وتنفيذ الأوامر دون أدنى تلكؤ، جنيتم على أنفسكم وأجرمتم في حقّ فرنسا العظيمة، وما يفصلكم عن الجزائر بحار ومحيطات، فلا تحلموا حتى باجتيازها ثانية. انظروا مليّا لهذا المعتقل تروا

أن أسواره وطيئة وليست محصّنة، فلسنا بحاجة إلى ذلك، إذ لدينا اثنين من أندر الحراس هما: الغابة، والبحر، وإذا لم تأكلكم أسماك القرش، فسيلتهم عظامكم النّمل الرّصاصي الموجود بغابات الغويان المحيطة بنا، فلا تجرّبوا الهروب لأنّكم ستتوسّلون العودة إلينا، وأنهى: «سيطلعكم السجانون على نظام المعتقل، احفظوه كما أسمائكم.

أقعى الهادي الوشتاتي في ركن من زنزانة جماعيّة جمعت رهطًا من السجناء؛ وجوه سمراء، وأخرى داكنة السواد، ووجوه ذات ملامح أوروبيّة حوّل معتقل جزيرة الشيطان بياضها إلى لون ترابي؛ لولا تلك العيون الزرقاء الصامدة بداهة، لما اختلفت عن باقي الوجوه الفاقدة لأيّ حيويّة أو حياة.

لم يكن الهادي الوشتاتي يعلم من الفرنسية غير بعض العبارات؛ فلم يفهم ما كان يدور حوله، ولا تمكّن من الإجابة عن أسئلة المعتقلين، فكان يرفع الرأس علامة الإيجاب، أو أنّه يلجأ إلى الجزائري الوحيد الذي وضع في نفس زنزانته كي يفسّر له المطلوب.

لم يدم مكوث الهادي الوشتاتي كثيرًا حتى فتح باب الزنزانة، وأمر حارسها المعتقلين بالخروج لحصّة العمل المسائيّة، فالمعتقلون يخضعون لنظام دراكوني صارم يقوم عليه جهاز حراسة خاص يستخدمهم في الأشغال العمومية الأكثر مشقة، باكرًا يخرج المعتقلون للعمل، وعندما تلتهب الشمس يعودون لنظام العزلة والصمت حتى ينقشع اللّهيب فتكون الحصّة المسائيّة، وهم بين؛ بناء طرق، وتقطيع خشب، ومدّ مياه الريّ، وكلّ عمل يحتاجه المعمّرون الفرنسيون.

تشبّث الهادي الوشتاتي برفيقه الجزائري وقد رآه يهمّ بالوقوف إذعانًا للأوامر وهو يسأل: هل نحن معنيان بالعمل منذ وصولنا؟

فأسعفه الحارس بضربة على مستوى الظهر وهو يرطن: هل بدأت التمرّد من ساعتك؟ قم، واستقم، وحيّ العلم الفرنسي، ثم التحق بالبقيّة.

كانت القوارب بانتظارهم أسفل المنحدرات الصخريّة الناتئة لتنقلهم من جزيرة الشيطان، قطع المعتقلون بعض الأميال قبل أن يصلوا إلى مستعمرة قيد الإنجاز داخل غابات الغويان، وهم مطالبون بشقّ طرقها وبناء مجمّعات سكنيّة للفرنسيين الذين أغرتهم دولتهم بالثروات الطائلة ومناجم الذهب والمعادن المختلفة في الغويان، فتوافدوا واستوطن الكثير منهم.

انكبّ الهادي الوشتاتي على معوله يقلع الحجارة ويزيل الأتربة كما طلب منه، غير أنّه لم يصمد كثيرًا؛ فقد كانت قدماه تنزّان دمًا، وكساه العرق، وتسارعت نبضاته، وسقط على المعول، فصاح به الحارس: «يبدو أنّك ستتعبنا، كفّ عن التمثيل وإلاّ رمينا بك إلى ضباع الدغل، هرع عبد الحميد بوعلام المنفيّ الجزائري إلى الهادي الوشتاتي يريد إسعافه، ولكنّه تلقّى ضربة من الحارس كادت تقصم ظهره وصرخ به: « عد إلى عملك أيّها الكلب المسعور، فصاح عبد الحميد مقهورًا: «حرام والله، حرام أيّها الظلمة...

فاقترب أحد المساجين وكان كبير السنّ، نحيف الجسم في عينيه بأس وقهر غير خاف، ووشوش في أذن عبد الحميد بوعلام: «الأخ جزائري؟

عبد الحميد بوعلام: أي نعم، ومن أنت؟

أجاب: أنا ابن بلدك جزائري محكوم بالتغريب المؤبّد، ضاع عمري في هذه الجزيرة المشؤومة.

عبد الحميد بوعلام: لم أرك معنا في الزنزانة، ما اسمك يا أخي؟

اسمي: إبراهيم التلمساني، محبوس منذ أمد في زنزانة انفراديّة، معاقب لتمرّدي.

لم يدم الحوار طويلًا بين عبد الحميد بوعلام وابراهيم التلمساني، إذ سرعان ما انتبه الحارس الذي كان مشغولا بحالة الهادي الوشتاتي، وكان يصرخ ويهدّد حتى استفاق المسكين من غيبوبته وقد دلقوا عليه دلوا من الماء، وحين لاحظ الحارس التقارب بين الجزائرييْن قال موجّهًا الخطاب لإبراهيم التلمساني: ليس عليك الاختلاط بهؤلاء وخرق النظام، لم تنته عقوبتك بعد، بل سأمدّدها جرّاء ما فعلت الآن.

رغم الوضع القاسي شعر عبد الحميد بوعلام بنوع من الطمأنينة لم يشعر بها منذ أن ركب الفرقاطة، وأخذ يراوده بعض أمل، قال وهو يخاطب نفسه: «ألا يمكن التفكير في الإفلات من هؤلاء الأوغاد الظلمة؟ لماذا لا نخطط لذلك؟ ها قد أصبحنا ثلاثة في نفس الزنزانة.

أظلمت الدنيا، وأظلمت عيون المعتقلين وهم منكبّون في أعمالهم الشاقة، فأطلق الحارس الصفّارة إعلانًا عن انتهاء الأشغال والعودة إلى المعتقل بجزيرة الشيطان.

وكان المعتقلون في ثنيّة العودة يسمعون أصوات الحيوانات المفترسة المنتشرة في الدغل وقلوبهم واجفة، وكثيرًا ما هاجمت الحيّات أرجلهم الدّامية وقد أدمى البعوض المتوحش أطرافهم، ولكنّهم يواصلون سيرهم؛ رغبة في الارتماء والرّاحة، وسدّ الرّمق بلقمة تكفّ عنهم تضوّر البطون، غير أنّها لن تمنعهم من سوء التغذية والموت البطيء.

اقترب عبد الحميد بوعلام من الهادي الوشتاتي وهو يقول له بصوت خفيض: تعرّفت اليوم على أخ جزائري يقضّي عقوبة بزنزانة فرديّة

وسيلتحق بنا عند انتهاء العزل، سنشكّل فريقا وسنبحث معا عن حلّ ينجينا، فعليك بالتماسك وأن تثق بالله، لا تستفّزهم فتجرّ نفسك للعقوبة، ما ضاع حق وراءه طالب.

وماهي إلاّ دقائق حتى ألقي للمعتقلين قطع من الخبز الجاف، وأوان صغيرة بها بعض الشحم للتّأدّم.

قال عبد الحميد لأحد المساجين حذوه وهو يريه الآنية: ما هذا؟

قال المسجون وقد بدا منهكًا عليه أمارات شحوب: إنّه شحم الخنزير بدل الزيت.

فصرخ عبد الحميد: أيّها السفلة تريدون منّا أن نأكل ما حرّم ديننا، لماذا كلّ هذا الحقد وكلّ هذا الاستهتار؟

قال المسجون: يتبعون نظامًا صارمًا فيما يقدّمون إلينا، فهذا الخبز الجاف الذي لم يعجبك نحرم منه عندما تسلّط علينا عقوبة، ونكتفي ببعض البقول الجافة والمواد النباتية، وأحيانا يتكرمون علينا عند الرّضى بقليل من الخمر الأحمر أو السكر والقهوة، ولكن أغلب تأدّمنا يكون بشحم الخنزير وحفنات من الأرز.

قال عبد الحميد بوعلام وقد أنس للسّجين: ولماذا يبقون على قيدنا ونحن داخل زنزانة؟

أجاب السجين موشوشا خوفا من الوشاة المزروعين داخل الزنازين: لقد هرب بعض المعتقلين في ما مضى.

عبد الحميد بوعلام: من أيّ البلاد أنت؟ ولماذا اعتقلت؟

السجين: أدعى كلود، أنا فرنسيّ ولا تستغرب وجودي معكم، أنا من المعارضين لحكم الإمبراطور لويس نابليون الثالث؛ فحكموا عليّ كما الكثير

بالتغريب المؤبّد، حُملت مثلكم في سفينة مقيّدا وموضوعا في قفص، وألقي في البحر من مات منّا، حسبنا أنْ ذكرنا اسم لويس نابليون بكلمة شرّ بعد أن اغتصب السلطة، لستم وحدكم من تعانون الظلم، الكثير من الفرنسيين كانوا هنا حتى الموت، مثل: أنصار روبسبيير الذين لم يعدموا فوقع نفيهم في الغويان وظلّ رفات بعضهم ملقى للكواسر، لقد وقفنا على الجماجم والعظام في تنقّلنا داخل جزيرة الشيطان لّما كنّا مطالبين بتوسيع المعتقل على عهد نابليون الثالث، فالثورات تأكل أبناءها كما يقال، وهذه الجزيرة سيّئة السمعة ضمت المئات من المنفيين والمدانيين من كلّ رهط ولون.

عبد الحميد بوعلام: ألم تفكّر في الخروج من هذا الجحيم؟

كلود: لا ندري إن كان الذين حاولوا الهرب قد نجوا، المخاطر أكثر ممّا تعتقد، حاول التأقلم مع وضعك لأنّ الموت واحد بالنّهاية هنا داخل هذا المعتقل أو خارجه، أمّا أنا فقد بلغت من اليأس مبلغًا جعلني أنتظر حتفي، حلمت في البداية بانزياح المظلمة، فكّرت في عائلتي وجرفني الشوق إلى أبنائي، تخيّلت صورهم وهم يكبرون حتى اندثرت ملامحهم تدريجيّا بمرور السنين التي انقضت، وأنا في هذا المعتقل أعامل بوحشيّة كما تعاملون، والميزة الوحيدة التي أرادوا تمتيعي بها؛ نظرًا لحسن سلوكي أن أحصل على مقسم أرض لأعمّره وأتزوّج امرأة من السكان الأصليين، ولكن شرط أن أظلّ تحت الإقامة الجبريّة وممنوعًا من العودة إلى فرنسا، فرفضت لأنّ الحرّية عندي لا تقبل القسمة، ولأنّ لي زوجة أحبّها وأولادًا تمنّيت رؤيتهم يكبرون برعايتي، فيستحيل أن أبني أسرة أخرى أدعها تعيش الويل، أيّ عيش في هذا السجن الكبير؟

عبد الحميد بوعلام: الظلم لا يُحتمل... بلادك يا كلود، احتلّتنا وقتلت أبناءنا وحكمت عليهم بالنفي، فأي قهر أشدّ من هذا؟ ألستم من بعثتم

للعالم بالأمل في التحرّر والتمتع بالحقوق في ثوراتكم، فلماذا تعتدي دولتكم على شعوب ما اعتبرتها مستعمرات؟

ما إن همّ كلود باستئناف الحوار حتى سُمعت ضجّة وبعض هرج في الزنزانة المجاورة، ارتاع عبد الحميد وهو يقول: «ما الذي يجري، هل يروّعون المعتقلين المصفّدين في قلب الليل؟

همس كلود: اهدأ والزم قانون الصمت فقد يؤدّبوننا بالعزل.... المرجح هو وفاة معتقل، وهم بصدد إخراجه لإلقائه في البحر.

صاح عبد الحميد مقهورًا: هنا لا يكرمون الميّت حتى بالدفن؟

كلود: المعتقل يضمّ أجناسا عدّة، وديانات مختلفة، وكثر عدد الموتى، فأوجدوا هذه الطريقة للجميع، ومن سيعترض؟ من يقف في وجه الطغاة؟

قضّى المعتقلون ليلهم مرعوبين، يتخيّلون مصيرهم وكيف سيلقى بهم واحدا واحدا كمآدب لأسماك القرش ذات موت، ومرّت أشهر من المعاناة على الهادي الوشتاتي الذي أبدى انضباطًا مطلقًا لقوانين المعتقل؛ علّه يتمكّن من الحصول على امتياز الخروج منه وإن تحت الإقامة الجبريّة، فقد أكّد لصديقيه إبراهيم التلمساني وعبد الحميد بوعلام من وجود أمل في الهروب ولو بنسبة ضئيلة جدا.

فقال له إبراهيم التلمساني ذات مرّة يائسًا: بأمّ عيني رأيت من حاول الهرب وعاد يستجدي الرجوع إلى المعتقل، فنحن نعيش في مقصلة جافة كما أطلق عليها، الموت فيها يأتي بطيئا وجافا تماما كشعاع الشمس، لا مقاصل، ولا رصاص، ولا دماء، فقط تغمض عينيك وأنت في أتمّ سعادتك لتضمّه بعنف راضيا مرضيا بمغادرة جحيم جزيرة الشيطان إلى عالم أرحب، نحن في مركز للموت بالهواء الطلق، نحتمل الشمس المجنونة فوق رؤوسنا،

ونروي الأدغال بعرقنا ودمعنا، ويستقبلنا البحر باردين كالصخر حين نموت، متى تقتنع؟ أوتظنّني لا أملك حماسك أو شجاعتك؟ بي رغبة في الفرار، بي شوق لأطلق ساقيّ وحنجرتي للرّيح؛ كي أصرخ ملء الدنيا وأدين هذا القهر، وألعن هذا الكبت، ولكن يجب أن تعلم أنّ من تمكّن من الفارين وتحدّي المناخ الحارّ فتكت به الأمراض الاستوائية، أو أبيد من قبل السكان الأصليين العدائيين، الناقمين على كلّ الغرباء.

وبدا عبد الحميد أيضا متوجسًا مما رُوي له عن محاولات الفارين؛ فانطفأت جذوة الأمل في الهرب بعد أن كان أوّل المتحمّسين له، وقال مقتنعا: لو قُدّر لي الخروج والحصول على أرض سأتزوّج واحدة من السكان الأصليين وأبني حياة جديدة هنا، أليست النّساء هنّ النّساء؟

قال إبراهيم التلمساني مقهقهًا: النّساء هنّ النّساء، ممكن لمن يقبل بالوضع، فالفرنسيون يشجعون على مثل هذه الحلول خاصة مع معتقلي بلاد المغرب؛ فهم جديون وقادرون على التأقلم مع تطرف المناخ، منتجون ولا ينفقون كثيرًا، ولقد مرّروا علينا ذات مرة منشورًا من وزارة المستعمرات يحثنا على ذلك، ونفر قليل استجاب، والباقون رفضوا لعدم رغبتهم بالزواج؛ خوفًا من الاختلاف في العقليات، وكما ترون ظل المنفيون العرب في شبه عزلة لشعورهم بغرابة هذا الوسط عن دينهم وعاداتهم، نحن المنفيين والمدانين سنظل في نظر المعمّرين مواطنين من درجة رابعة نخدمهم ويخدمهم أبناؤنا وأحفادنا، فهل يعقل أن نورّث خلفنا عبودية وذلاّ، فلنمت ونقطع هذه السلسلة المهينة.

الهادي الوشتاتي: أمّا عنّي، فسأمضي في أيّ حلّ يخرجني مبدئيّا من هذا المعتقل وإن كان نحو سجن أكبر، ثمّ أبحث عن الخطوات اللاّحقة، وما دمتما لن تشاركا معي، أرجو أن يظلّ كلامنا سرّا دفينا حتى أتمكّن من المغادرة.

كان حلم الهادي الوشتاتي بالعودة إلى تونس يفوق الكون بأسره، ولم يقبل مطلقًا سرديّة التغريب المؤبّد؛ فقد نحتت طبيعة الشمال الغربي الوعرة في شخصه قدرة على الثبات، ونقشت غاباتها وجبالها في ذاكرته صورة يستحيل معها القبول بالعيش بعيدا عن تلك المرابع، وظلّ حبّ وريدة يجرفه نحو أمل حقيقي في الهرب من الجحيم إلى جنّة عشقها، يبيت لياليه رغم قسوة الحياة يستحضر لقاءه المرتقب مع الحبيبة، يقضّي لياليه ينمّق قصائد الهيام التي سيلقيها أمامها وهو جاث على ركبتيه، فما يلبث أن يعلو صوته في أعقاب الليل دون أن يشعر وهو يهذي: «وريدة قلبي، ودمي المنساب في هذه الشرايين، لا عيش لي إلاّ بذكرك، ولا موت لي إلاّ بين أحضانك، وإن حاولوا تمريغ هذا الجسد فقدرتي على الانبعاث أستمدّها من بسمتك اللؤلئيّة، ولو قتلوني أصير طائر فينيق، فتلملم الرّوح الجسد وتطير إليك في رحلة البحار العالية والمحيطات، ومعي أكاليل الغار والزيزفون؛ لأحط في مرابضكم وأستدعي الأسلاف الراقدين في مغاور جبال خمير كي يباركوا بهجة اللّقاء، ويمارسوا طقوسهم القديمة لتؤبّد ما بيننا فيطردوا أرواح الشرّ، سنحتفل مع السّاحرة العاشقة وبيدها جديلة السنابل تبرّكا بالخصب، سنخصب زرعنا وفيه يرتع أطفالنا وأنت معي حيثما حللت ترْعينني بنظراتك العميقة الهائمة، من قال إنّ المعتقلات يمكنها أن تمنع روحينا من التلاقي، في ظلمتي أراك، وعند ضربات معولي في هذه الجزيرة النّائية أسمع لضحكاتك تتهامس في أذني، وصوتك يأتيني مع تغاريد عنادل الغابات التي تحيط بنا من كلّ صوب كالقدر...

يكون هذيان الهادي في الزنزانة كأغنية ملاّح تائه خلف عروس الشطآن يسمع لها المعتقلون دون أن يعوا مغزاها، وحدهما عبد الحميد

بوعلام وإبراهيم التلمساني ينتبهان لما يقول، وأحيانا ينخرطان في بكاء حتى العويل أسىً على حالهما وحال الهادي الذي لا يلبث أن يصاب بالجنون كما خمّنا مثل الكثير من المعتقلين، ولن يتأخّر القائمون على السجن عن تسريحه إلى قدره حيث الغابات والأودية والكواسر والقنّاصون من السكان الأصليين، فيصير كأن لم يكن.

كانت الأشهر تمرّ فالسنوات؛ والرّتابة المغرقة في الأعمال الشاقة، والجوع، وتفشي الأمراض الاستوائيّة من ملاريا وحمّى صفراء، كلّ ذلك قد أنهك المعتقلين، وأتى على العديد من الأرواح، فالتجأت سلطات المستعمرات إلى إغراء بعضهم والسّماح لهم بتكوين عائلات خاصّة حتى تحدّ من انتشار الأوبئة، ولتناقص أعداد العبيد المرحلين من مراكز تجارة العبيد بالسنغال والبنين وغيرها، بعد إقرار فرنسا إلغاء عقوبة العبودية احتاج المعمرون للأيدي العاملة، واحتاجت فرنسا أن تعمر الغويان قليلة السكان، متناثرة المستعمرات، فاغتنم الهادي الوشتاتي هذة الفرصة وجرّ معه عبد الحميد بوعلام فقدّما طلبا لمغادرة المعتقل والتمتع بامتياز أرض ريفيّة، ولم يتمكّنا من إغواء ابراهيم التلمساني بعد أن بلغ به التعب والعجز مبلغًا قتلا فيه الأمل.

لقد استطاع وصول المعمّرين الفرنسيين إلى الغويان أن يحدث تغييرا على المستوى الديمغرافي وانتشار السكان بها، فبينما استحوذ الوافدون من الأوروبيين على السواحل ومحيط الأنهار الكبيرة والأراضي الخصبة؛ هرب السكان الأصليون لغايات دفاعية إلى داخل الأدغال، فأسسوا تجمعات خاصة بقبائل الكالينا والأرواك والإمريليون وشعوب الوايامبي، وفرّ العبيد إلى الغابات المطيرة وقاموا بإنشاء مجتمعات تشبه مجتمعاتهم في

إفريقيا أطلق عليهم «المارون»، حيث أقاموا منطقة عازلة بين الأوروبيين والسكان الأصليين.

قال عبد الحميد للهادي الوشتاتي وهما ينتظران مغادرة المعتقل: سننضبط كلّيا لنظام ما يسمى المراقبة الإدارية، وعلينا أن نثبت وجودنا يوميا للسلط، أليس هذا عائقا كبيرا ضدّ ما نخطط له؟ ولتضع في ذهنك أنّ فشلنا في الهروب سيجرّنا إلى عقاب أشدّ.

قال الهادي الوشتاتي: ما يدفعنا للهرب أقوى ممّا يعرقلنا، الصبر مفتاح الفرج، ولا أعتقد في صرامة هذه الإجراءات في مستعمرة مترامية الأطراف مع نقص في العسس والعساكر، دعنا يا أخي، ولا تحبطنا منذ الخطوات الأولى.

تنحنح الحكواتي، أخذ جرعة هواء وماء، وتلفّت يمنة ويسرة وهو يرى المتابعين في صمت كأنّ على رؤوسهم الطير، وما إن قال: «كان يا ما كان؛ حتى انفلت صوت هادر من الحضور: «لا تصمت، لا تترك أعناقنا مشرئبّة وتمضي، أكمل لنا مغامرة المنفييْن بالله عليك.

فقال الحكواتي صارمًا: «الحياة مغامرة، وكلٌّ يغامر لسبب ما أو بشيء ما، حتى تصبح المغامرة مقامرة، ولا أمرّ من المقامرة بالأوطان».

المقطع السابع والعشرون:
الفصل السّابع:

ركح الحكواتي: (وقد انطلق في الحكي دون مقدمات)

انتصب الحجّام الأعور داخل دكّانه بسوق البلاط يسوّي العصابة على عينه اليمنى؛ التي فُقأت أثناء شجار منذ صغره، فدرج النّاس على مناداته بالصبيّ الأعور؛ ليصبح بعد أن ورث الحلاقة عن أبيه، الحجام الأعور على العادة السارية في تسمية بعضهم بعاهات خلقية، وكان الحجّام يومها وعلى غير العادة شديد الحماس واللّباقة مع صبيّه مصطفى بن إسماعيل؛ الولد الذي جيء له به من قبل أحد الضبّاط، وأوصاه أن يعلّمه الصنعة، بعد أن أخرجه من الحجز إثر عمليّة نشل قام بها في باب سويقة؛ مقابل أن يزوره من حين لآخر لتلبية شهوته الشاذة.

نظر الحجّام إلى مصطفى وهو يقول: سيزورنا الليلة شخصيات هامة ليواكبوا حفل تدشين قنصليّة فرنسا في باب بحر صباح الغد، وما عليك سوى الاستجابة إلى ما يطلبون، اقلع عن الثرثرة وسوقيّ الكلام، وكن لبقًا واحرس على نظافتك، وتعطر بذاك العطر وأشار بيده إلى قارورة لم يرها مصطفى قبلئذ تبدو غالية الثمن.

وأردف: المقصورة مهيّأة، وما عليك سوى إسعاد هؤلاء الزوّار؛ حتى يعودوا لنا مرّات ومرّات، وقهقه بصوت مبحوح: «سنجني الليلة أموالاً كثيرة، وأعدك في المقابل أن أسمح لك بالذهاب غدًا لرؤية موكب سيدنا محمد الصادق باي أثناء التدشين.

نطّ مصطفى فرحًا، وما لبث أن تعكّر مزاجه وهو يقول لمعلّمه: قد يتعرّف عليّ أحدهم ويعيدني إلى الحبس جرّاء تلك السرقات.

مرّر الحجام يده على رأس مصطفى عابثًا بذاك الشعر الأسود المسترسل على جبينه: أنت الآن في حمايتي، ولي معرفة بكثير من الضباط النافذين، فقط التزم بما قلت لك.

مرّت ليلة حمراء داخل المقصورة، وخرج بعض الرّجال المنتشين يدندنون بأغانٍ ماجنة وقد راح عنهم وقارهم، واغتبط الحجّام الأعور بما جنى، ولكنّ ذهن الصبيّ مصطفى ظلّ مشدودًا إلى وعد معلّمه بالمشاركة في استقبال موكب الباي؛ فلم ينم ليلته وقام رغم الإنهاك متحاملًا على نفسه، أغلق باب الدكّان وهام في الطريق إلى باب بحر حتى يكون في مقدّمة المتفرّجين، ودون سابق موعد التقى ثلّة من أصدقائه، الذين كانوا يتسكّعون سويّا وينشلون سويّا، ويشربون بقايا طاسات الخمر بالخمارات بعد خلوّها من مرتاديها، وكانوا يمشطون الطرقات بحثًا عن أعقاب السجائر لالتهامها بشراهة، يجوبون الطرق والأربطة وباب بحر، ومتى فاجأهم النوم ناموا متوسّدين الأرض وأعتاب البيوت ملتحفين بالسماء صيفا، وكثيرًا ما لجأوا إلى الزوايا والمساجد أو خمارات المالطيين ليقضوا ليلة شتوية قاسية؛ مقابل خدمات لطالبي اللذة، أو تنظيف الأمكنة والأواني.

ملأت ضحكات الأصدقاء المكان والذي بدأ يغصّ بالوافدين، وقد انبهروا لما رأوا من نظافة ومظاهر الزينة والأعلام الحسينية والرايات الفرنسية على جانبي الطريق الذي بدا متسعا بعد أن أخليت من حوله الأكواخ والبناءات العشوائيّة، انتظم أعوان الضبطيّة وطفقوا يبعدون الناس مفسحين المجال لمرور الموكب، كان الناس خليطًا نصارى، ويهودًا، ومالطيين، وإيطاليين، وأهل المدينة.

انبهر الصبي مصطفى بن إسماعيل لمظاهر الأبّهة، فالتفت إلى صديقه علالة بالزاي وهو يقول: هذه هي الحياة وليست تلك التي نعيش، نحن كلاب السوق، ينهرنا كلّ مارّ ويشتمنا كلّ زبون بعد قضاء مأربه، أنظر يا علالة، ها أنّ موكب الباي قد ظهر عن بعد، تعال نقترب أكثر حتى نصيب مما يلقي الباي من نقود. وهو يجرّ صديقه ليتخطّى الحشود اصطدم برجل طويل القامة عريض المنكبين وسيم المحيّا صاحب أبّهة وفخامة، فراح مصطفى يعتذر على غير عادته، فاستوقفه الرّجل وأمعن فيه النظر ثمّ أطلقه دون تعليق،

وما إن تقدّم الموكب حتى ظهرت كرّوسة الباي السوداء المكشوفة بكرسيّها الجلدي الفاخر، حيث جلس الباي وعلى صدره كلّ ما يملك من النياشين، وإلى جانبه القنصل الفرنسي ليون روش رافع الرأس زهوًا وانتصارًا، واتجهت الكرّوسة صوب ساحة القنصليّة التي ستغيّر قلب المدينة وتكون منطلق البناءات الأوروبية الحديثة.

كانت الأصوات ترتفع من حين لآخر بالدعاء للباي: «الله ينصر سيدنا، الله ينصر سيدنا»، فيلقي الباي عن يمينه وعن شماله ببعض القطع النقدية؛ فيهبّ خلفها العشرات في ازدحام وشدّ وسبّ، واستطاع ليلتها مصطفى وصديقه علالة التقاط البعض منها، وخطّطا للتوجه بها مساء إلى خمّارة «موتلاّ» لاحتساء بعض الكؤوس، هما الليلة ليسا في حاجة إلى شرب بقايا الخمر المتروك، هما الليلة سيدا نفسيهما، قال ذلك علاّلة بالزّاي وهو ينتشل صديقه مصطفى من ذهاب عقله تجاه ما رأى صباحًا من أبّهة وحياة أخرى لا علاقة لها بما يعيشه، ووكزه قائلا: هل جننت، لا تعُد للتفكير في الباي ومن يحيطون به نحن، خُلقنا لهذه الأمكنة ولعيشنا اللئيم هذا.

وبينما هما يتحاوران قريبا من الخمارة إذ لمح مصطفى ذاك الرجل الذي اصطدم به صباحًا، رآه جالسًا في المدخل يحتسي

الكؤوس بشراهة وينظر صوبه، علم الصبيّ حينها أنّه وقع في نفس الرّجل موقعا حسنا ولا يلبث أن يناديه، لخلوة، فقال في نفسه: «لا يهمّ، لا فرق عندي بين الصيّاد والفريسة، قد ينظر لي على أنّي طريدة تزجي وقته وتشبع نهمه، وأراه فريسة بدوره يمكن استغلالها والانتفاع من ماله، أذكر هذا – على صغري – من حكم أمّي اليهوديّة التي أسلمت بسبب قصّة حبّ فريدة، فهربت من بنزرت إلى هذه المدينة الكريهة صونا لحبّها، ولكنّ النّاس ظلّوا ينادونني بابن اليهوديّة.

ولا أعتقد أنّ دماء اليهود التي في شراييني قد تنجلي لمجرّد إسلام منّانة، التي لم تنتظر طويلًا حتى أكبر، وغادرت هذه الحياة مع والدي، وتركاني أتخبّط بين أذرع الرّجال وأرجلهم.

لم يخب توقّع مصطفى، فلم تنته الليلة إلاّ والصبيّ جالس في كرّوسة تتجه نحو باردو.

قال مصطفى مستفسرًا: هل نغادر المدينة إلى مكان بعيد؟ سوف ينتقم منّي معلّمي الحجّام عند رجوعي، فالدكّان سيبقى مغلقا.

تبسّم غازي الأرناؤوطي وهو يربّت على ظهر الصبيّ، مرسلًا يده نحو وجهه المشرق ذي العينين السوداوين: إن كنت تقصد الحجّام الأعور فهو لا يرفض لي طلبًا، ولن تعود إلى دكّانه ثانية، ستلبث معي، لقد حالفك الحظّ، فلا تفكر في غير حياتك الجديدة.

بدا على وجه الصبيّ بوادر ارتياح وهما يلجان بناية ضخمة وشاسعة.

قال غازي الأرناؤوطي: هذه سرايا سيدنا الباي؛ وهي تضمّ جناحه الخاصّ، وجناح الحريم، إلى جانب بيوت الضباط، والعسس، وغيرهم، ستقيم معي في سرايا الباي يا مصطفى، ستكون بمثابة ولد لي، سأعلّمك ما لم تعلم، وسأوصلك إلى أعلى المراتب، اتبع نصحي.

لم يكن غازي الأرناؤوطي سوى مستكتب في سرايا الباي، ولد لأب شركسي خدم البايات حتى وفاته، فألحق ابنه غازي بالسرايا موظّفًا، وكانت له حياة خاصة غامضة، لم يعرف له أسرة أو بنين، ورُمي بميوله للغلمان؛ فكان يغادر السرايا للمدينة لهذا الغرض.

لعب مصطفى بن إسماعيل دور الغلام، فعمّق تعلّق الأرناؤوطي به، وراح يعلّمه أصول الكتابة والقراءة وطرق التواصل حتى تهذّب، وصار مصطفى يختلط شيئا فشيئا مع خدم السرايا وبعض العسس، فتخطّي مكتب غازي الأرناؤوطي إلى بعض الزوايا والغرف والمطابخ داخل السرايا، وفي قلبه رغبة جامحة للتغلغل والنفاذ إلى مخدع الباي وقد علم بسهراته وغلمانه الكثر.

لم يمض على تدشين قنصلية فرنسا بضع أيّام حتى كان ليون روش في زيارة للباي.

ويرفع الحكواتي المصدح من أمامه ليعم ركحه الظلام.

الفصل: الثامن:

ركح البايات: (محمد الصادق باي، ليون روش، أحمد بن أبي الضياف...)

محمد الصادق باي باشّا في وجه ليون روش يدفعه التزلّف والخوف: أهلا بقنصل الإمبرطورية الفرانسويّة العظيمة.

ليون روش رادّا التحيّة بحزم: أزوركم لأنّي لم أتوضّح ردّكم على رسالتي حول تطبيق قوانين عهد الأمان على رعايانا، فما القصد من قولكم: «إنّ نظر السلطنة الفخيمة اقتضى أنّ رعاياها تبقى تحت حماية الشروط ؟».

محمد الصادق باي: ألستم معنا في أنّ هذا القانون هو أعظم ما تحقّق في مملكتنا؟ والذي هو من نصائح دولتكم العظيمة، ولحمايته نصبنا «المجلس الأكبر» و«مجلس التحقيق» حتى يتحقق من خلالهما الأمان لسائر من في المملكة، وقد أعرب لنا إمبراطوركم العظيم أثناء زيارتنا له في الجزائر عن تقديره لعهد الأمان، وحثنا على تنزيله على أرض الواقع مثل البلدان العامرة.

وأردف: ولمّا وقفنا على تعسّر الحكم على الوافدين من رعايا أوروبا في قضاياهم مع سكّان الإيالة؛ نصبنا مجلسا وقتيّا لمباشرة النوازل من هذا القبيل تحت رعاية وزارة الأمور البرّانيّة، وكلّفنا العالم أحمد بن أبي الضياف بترأسه.. قال ذلك وهو يشير إلى كاتب سرّه ابن أبي الضياف الجالس على يمينه.

ليون روش غير راض: الاطمئنان لقانون الأمان لا يمكنه أن يحصل إلاّ بعد وقوع التجريب مدّة من الزمان... ودولة الإمبراطور مُلزمة بانتظار هذه المدة للتحقق من وجود ضمانة لحقوق رعاياها وهم خارج وطنهم. وهذا ما أحوج دولة جناب الإمبراطور إلى إبقاء الحكم في رعاياها بيد

قناصلها إلى أن يُجرّب سلوك المجالس التونسيّة، فهل يعقل أن تحرموا رعايانا من الفوائد الممنوحة لهم في القانون الجديد إلاّ بشرط الدخول تحت الأحكام التونسيّة؟

محمّد الصادق باي: إنّ القصد من هذا القانون نفع المملكة وكلّ سكّانها دون تمييز.

أحمد بن أبي الضياف في سرّه: ليس في عبارة القنصل غير الامتنان، والاستعداد للاستيلاء على هذا الصقع الضعيف حسّا ومعنى دون مشقة الجيوش كما في الجزائر، وإنّما بالترغيب والترهيب.

بعد صمت عاد ليون روش ليقول: لقد سقط تطبيقكم للقانون في أوّل نازلة. ألم تشنقوا الحمّال الذي أُدعي عليه بحمله المرأة على حماره للنصراني، وقطعتم رأس الأخير، وطيف بالمرأة مع الحمّال في أسواق الحاضرة قبل تغريقها في البحيرة؟

المرأة لم تعترف ولا قامت عليها شهادة، والنصراني لم يقرّ، ولا قامت عليه شهادة، وهو ليس بمسلم، فكيف يقام عليه الحدّ والحمّال رجل مستأجر، أليس هذا الدليل القاطع على ضرورة ترك فض نوازل رعايانا بأيدينا؟

محمّد الصادق باي متلعثمًا: سيكون ردّي لكم عبر مكتوب أرسله بعد مشورة.

علّق الحكواتي في ركنه المظلم: لم يكن عهد الأمان بآمن، وظلّت نزعة الحكم المطلق متأصّلة؛ حتى أنّ الباي لا يرى لقتل النّفس حرمة، فاضطرّ القناصل إلى حماية رعاياهم، فصاروا يطلبون الحكم على أهل البلاد كما يريدون ولا ينقادون للحكم عليهم، وصار اليهود يحتمون ببعض رعايا الدول الأوروبيّة بألقاب شتى؛ للحماية والتفصّي من الأحكام الصادرة

ضدّهم، واتسع الخرق على الرّاقع؛ لأنّ وازع البلاد إنّما هو للإفرنج وليس عليهم، كلّ هذا الجدل حول عهد الأمان أو الدستور، والبلاد يلفحها الجدب، وتودي بأرواحها الطواعين، وتسلبها أيادي العمّال ما تكسب، غليان... غليان ... في كلّ شبر من الإيالة، لا أظنّه ينتهي إلاّ بهبّة تقلع الجذور الميّتة، وتنبت زرعًا يانعًا يحمل هذا الصقع في قلبه.

المقطع الثامن والعشرون:
الفصل التاسع:
الهروب.

ركح الحكواتي:

أضيء ركح الحكواتي مجدّدًا وكان حينها منغمسا بين أوراق وأشياء، لم يعر الحضور كثيرًا من الاهتمام، بدا منهكًا، ولكنّه نطق: كان يا ما كان، بلاد قصيّة في أرض النسيان، وفجأة سام أهلها الطغيان، وتناوب على احتلالها الانجليز والبرتغاليون والفرنسيون والإسبان؛ فانتهكوا حرمات السكّان طردًا، وإبادةً، واستخدامًا، حتى أصبحت الغويان سجنًا كبيرًا متوحّشًا مورست فيه كلّ العذابات ألوانًا، فقد أغرى الملك لويس الرابع عشر قديمًا رعيّته بمناجم الذهب والأحجار، وشجّعهم على تجارة الرقيق ووضع العبيد كممتلكات منقولة محشورين عراة في الظلام بين طوابق السفن، وغالبا ما ماتوا بسبب الجوع والطواعين والازدحام... توافد الفرنسيون وعبيدهم إلى الغويان حيث لم يجدوا إلاّ الفناء ولا ذهب أوأحجار، ففرّ كثيرهم إلى جزر السلام، طالبين العودة إلى فرنسا وترك الغويان.

وحوّلها نابليون الثالث إلى معتقل ما شهدت البشريّة سوادا متوحّشا مثله، وصمة في الجبين محفورة ما عاش الإنسان.

واسترسل الحكواتي: «في صبيحة يوم مطير، دلف أحد الحرّاس إلى معتقل جزيرة الشيطان وبيده قائمة، وطفق ينادي أسماء المسجّلين بها، وما إن تذكر الأسماء حتى تفكّ الأصفاد، ويحاول المساجين أن يهرولوا تجاه

البوابة لولا خذلان أرجلهم وقد حفرت فيها الأصفاد فانتشرت الجراح وعمّ بعضها الانتفاخ، وكان الهادي الوشتاتي وعبد الحميد بوعلام على أحرّ من الجمر ينتظران نطق اسميهما للنطّ خارجا ومغادرة هذه المقصلة الجافة نحو متسع آخر من السجون سماؤها مفتوحة على احتمالات شتى، ولكنّها في نظريهما أرحب من هذه الزنازين القاتلة دون سفك للدماء. كانا خائفين من عدم قبول مطلبهما بالخروج من المعتقل والاستفادة بمقسم أرض وتعميره زراعة مع الالتزام بالبقاء في الغويان.

قال عبد الحميد بوعلام موشوشًا: قد يقع استثناؤنا، فقد نفينا بعد كلّ هؤلاء. ولم يتمّ عبارته حتى نادى الحارس اسميهما في ذيل القائمة فعمّهما فرح عارم.

كان الحارس يتبادل مع رفيقه الضحكات الهازئة وهما يتابعان هرولة المساجين نحو المراكب في أسفل منحدرات الجزيرة الحادّة ثمّ قال: أتدري أنّ كريستوف كولومب قد أطلق على هذا البلد «أرض المنبوذين»؟ أكان يعلم أنّها ستكون أرض هؤلاء العبيد والمنبوذين والمجرمين وخونة فرنسا؟

فردّ رفيقه معلّقا: وماذا عنّا؟ ها أنّنا نعيش نفس ظروفهم ألا تعتقد أنّ جميعنا أسرى، إمبراطورنا المفدّى نابليون الثالث وخاصّته والنبلاء يعيشون في باريس في رغد، ونحن نرعى المنفيين، ونبني المستعمرات، ونتعرّض لهجمات السكان الأصليين وكلّ جوائح هذه الأرض الملعونة، لقد سئمت هذا العمل، بل سئمت حياتي كلّها.... في يوم ما قد ألقي بنفسي من شاهق جزيرة الشيطان هذه نحو جوف القروش حتى تستريح الرّوح.

فصاح به مرافقه: اصمت، قد يشي بنا أحدهم، لا تذكر اسم الإمبراطور ثانية، فقد يطير رأسك في لمح البصر، لم يسلم قادته من العقاب وبعض

المقربين لمجرّد ملاحظة، وها أنّ مستعمرة الغويان أصبحت تضمّ الآلاف منهم. لقد زرع الرّعب في قلوب الفرنسيين، ألم تلاحظ أنّ أخبار حروبه مع بعض الدول الأوروبيّة قد عادت لتصدّر الجرائد.. وجودنا هنا نعمة، أليس أفضل من تقدّم الصفوف في معارك طاحنة.

ضحك رفيقه ضحكة صفراويّة وهو يردف: هل تفضّل الموت في بطن القرش أو يقصفك مرض استوائيّ، على أن تكون في ساحة الحرب رافعا راية فرنسا؟

خيّم الصمت بين الحارسين وعادا لمتابعة المنفيين في زحفهم نحو أسفل الجزيرة. وقد صُفّفوا في قوارب محليّة باتجاه سواحل الغويان في انتظار توزيعهم على الأماكن المقفرة وغير المأهولة لتعميرها.

بات الهادي الوشتاتي ورفيقه الجزائري في كنيسة قيد الإنشاء بالقرب من «كاين»، كانا يعيشان مشاعر متضاربة بين فرح بعد أن أضحيا من «المساجين الأحرار»، وتوجّس من مستقبل خطوطه مبهمة، فهما على أرض لا يمتان لها بصلة، ولا يربط بينهما وسكانها أيّ رابط، فكيف التأقلم؟ ليس لهما المال غير هذا الجهد البدني الذي أنهكته جزيرة الشيطان... ظلّت الأسئلة تستوطن ذهنيهما، والحيرة تبدّد ما اعتبراه تحرّرا وهما بين حيطان الكنيسة في ظلام دامس مثل واقع مجهول لفّهما بعد مغادرة المعتقل.

عندما كفّت الأمطار صباحًا اشتعلت في سماء «كاين» شمس حارقة، فحثّ الرفيقان الخطى نحو إدارة المستعمرة لاستكمال إجراءات توزيع المقاسم وبعض البذور.

اعتقد الهادي الوشتاتي أن الحظ قد ابتسم لهما فقد حظيا بمقسم قرب تلك الكنيسة؛ حيث تمكنا من الإقامة داخل مبنى فرعي ما أسقط عنهما مؤونة السكن وهو معضلة كبرى في المستعمرة. وبدآ حياة جديدة، عمل بالنّهار

في تحدّ لظروف مناخيّة قاسية جدّا بين حرارة قاتلة ورطوبة خانقة، وتأمين لوجبات بسيطة أساسها الأسماك من النّهر القريب أو صيد حيوان برّي من الغابات المطيرة، لينتهي اليوم بإثبات الحضور لدى سلطة المستعمرة.

مرّت أشهر قبل أن يقترح عبد الحميد بوعلام على الهادي الوشتاتي قائلًا: ماذا لو أوغلنا في الغابات واختلطنا بأولئك الزنوج الذين فرّوا من أسيادهم بعد رفض تحريرهم، يقال: إنّهم كوّنوا تجمّعات خاصّة بهم، هم أفارقة وقهرنا مشترك، قد يتعاطفون معنا!

قال الهادي الوشتاتي: أوافقك، خاصة وأنّ ظروفنا ذاهبة للأسوأ، فقد طلب منّا مغادرة هذا المبنى استعدادًا لافتتاح الكنيسة.

وأردف: لو أنّ الأنبياء الذين أرسلوا بهذه الأديان كانوا أحياء لسارعوا باحتواء الإنسان قبل البنيان، ما أهميّة الكنيسة وهذه الصلوات التي نرى، والبشر مشتتون في هذه الأدغال يعانون الويلات؛ إن رحمتهم الضواري والأمراض، لم يجدوا اللقمة والمسكن، عندنا هناك في جبال خمير لا يبيت أحدنا دون عشاء، وإن حدثت مصيبة نتقاسم آلامها.... ويحنا ما الذي ألقى بنا في هذا الجحيم؟

وأنهى متسائلًا: ولكن يا صديقي، بأي لغة نخاطبهم؟ قد يطلقون علينا النّبال عند مرآنا، لوننا مختلف وفي قلوبهم حقد على ذوي البشرة البيضاء، آه لو كنّا زنوجا مثلهم، نحن لا نحتاج في ظرفنا هذا أن نكون بيضًا؛ فالرّجل الأبيض في نظرهم مجرم، وهم على حقّ؟

قال عبد الحميد بوعلام: خوفك مشروع، غير أنّنا سنجد منفذا للتواصل، ولكن كيف نقوم بهذا دون علم سلطة المستعمرة، ألا يعدّ التحاقنا بالزنوج خرق للالتزام الذي وقّعنا عليه، وقد يُزجّ بنا ثانية في معتقل جزيرة الشيطان؟

قال الهادي الوشتاتي: وقد غدت حياتنا هنا مستحيلة، الأرض فقيرة جدباء لم تنتج لنا شيئا ممّا زرعنا، بطوننا خاوية، أجسامنا ذاوية، أرواحنا هاوية، وأخيرا طلب منّا إخلاء المبنى قريبًا، لم نحرز تقدّما وصرنا إلى الموت أقرب، ألم يكن هدفنا ونحن نغادر المعتقل أن نهرب، لا أن نموت جوار هذه الكنيسة؟ فلنبدأ المغامرة ولنمت ونحن نحاول أفضل من الجلوس والبكاء.

كان الليل دامسًا والخفافيش الضخمة ترافقهما المسير نحو الغابة التي عايناها بالنّهار عن بعد، وكانت حركة الكائنات الليلية لا تهدأ عواء، مواء، وضرضرة النمور البعيدة تفزع القلوب، الأفاعي تنزلق على الأعشاب وفحيحها المؤذي يدعو الرفيقين للتوقف حتى لا يصابا بقذفات أو لدغات قاتلة.

عندما رأيا سامور النار الملتهب، توقفا فبادر عبد الحميد بوعلام قائلا: علينا أن نشهد الله على وحدانيته ونطلب المغفرة والرحمة، من يدري المصير المنتظر؟

فقال الهادي الوشتاتي: بل الرحمة يا صديقي، سر بنا نحوهم.

لم يتمّ كلامه حتى وجدا نفسيهما مطوّقين بثلّة من الزنوج وبعض النبال والعصيّ تكاد تنغرس في صدريهما، رفعا الأيدي علامة الاستسلام، كُبّلا بلحاء الأشجار وحملا إلى إحدى الخيام ليقضيا الليلة وهما مصفدان محروسان حتى انبلجت أولى خيوط الفجر، لّما دخل عليهما أحد الزنوج يبدو أنّه زعيمهم محاولا معرفة حكايتهما، وكانت الإشارات وبعض الكلمات الفرنسية كفيلة بفك القيد والقبول بهما.

وكان من الصديقين الفارّين من سلطة المستعمرة الالتزام المطلق بما يمليه هذا التجمّع الزنجي من عادات ونمط عيش وجهد في تحصيل

القوت، شاركاهم في الدفاع عن الخيام التي تتعرض من حين لحين لهجمات السكان الأصليين الذين نقموا على كلّ وافد؛ نتيجة ما تعرضوا له من إبادة وتسخير من قبل المستعمرين الكثر الذين مروا على الغويان وآخرهم الفرنسيون، وأبديا بطولة فريدة وهما يهاجمان قوافل المستعمرين المحمّلة بالأغذية والأدوية، فاستبسل الزنوج في المقابل في الدفاع عنهما لمّا لوحقوا من قبل حرّاس المستعمرة.

قال عبد الحميد بوعلام للهادي الوشتاتي ذات ليلة: قد والله وقعت في العشق يا أخي.

انفجر الهادي ضاحكًا: وكيف تمكّن منك ولا لغة لك إلاّ ما ندر مع هؤلاء؟

قال عبد الحميد بوعلام: للحبّ ألف لغة ولغة اللسان إحداها، إنّها صبيّة جذابة ورشيقة كانت في المجموعة التي كلفت معي بقطف «لبّ الأساي» قرب النّهر المتاخم للغابة الشرقيّة وابتدأت قصّتنا، فبماذا تنصحني؟

قال الهادي الوشتاتي: وهل بعد وقوع سهم الحب من شفاء أو نصح، معنى ذلك أنّك لن تفكر معي في رحلة الهروب؟

بدا الوجوم على وجه عبد الحميد بوعلام وهو يقول: لا أقصد الإحباط ولكن هل لنا القدرة أصلا؟... نحن في منفى مقطوع تحدّنا البحار والمحيطات والأخطار، ولا نملك أيّ مال...

قاطع الهادي الوشتاتي صديقه متأففًا: أنت ومنذ خروجنا من المعتقل لم تثر الموضوع حتى وها أنّك تجد النفسيّة ملائمة للعشق، خذ ما تراه مناسبًا من قرارات، ولكنّي لن أموت وأدفن في تربة لا موتى لي في جوفها، لا أشعر بالانتماء إلى مائها أوهوائها، سوف أهرب، لقد علمت من أحدهم أنّ مناجم

للذهب تقع على الحدود بين «الغويان والبرازيل» ومستعمرة «سورينام»، وأنّ العمل بها مجزٍ، فقد أتسلّل رفقته إليها، وإن حصلت على المال يمكنني السفر.

قال عبد الحميد بوعلام وأسف يبدّد وجهه: وهل تتركني جريا وراء حلم أراه بعيد المنال؟ لماذا لا تقتنع أنّ العودة إلى الوطن مستحيلة، وأنّ القدر سطّر لنا خطّ سيرنا، وها هو ينتهي عند هذه النّقطة المنبوذة، صدّقني أنا لا أعلم حتى وجهة الوطن في أيّ اتجاه.

فردّ الهادي الوشتاتي: مثلما شدّت حبيبتك الزنجيّة وثاقك إلى هذا المكان، أنا أيضا تركت وريدة تنتظرني عند التلّ قرب الوادي آخر مرّة ولن أخلف موعدي معها.

مرّت تلك الليلة مؤذية لكليهما، ولم تنقض بضعة أسابيع حتى افتقد عبد الحميد بوعلام صديقه الهادي الوشتاتي ولم يجده، وسرعان ما شاع خبر اختفاء «ممبو» الزنجي والهادي الوشتاتي اللذين حلما بمناجم الذهب والانعتاق من حياة الذلّ والجوع التي عايشاها.

كان خوف الهادي الوشتاتي من الوقوع في أيدي سلطة المستعمرة التي تحاول بسط نفوذها على كلّ الغويان يوم الهروب، فقرّر ركوب النّهر مع « ممبو»، صنعا طوفًا من خشب جوز الهند وأخفياه في الدغل في انتظار اكتمال القمر، وفي ليلة مضيئة جدّفا بعيدا عن تجمّع الزنوج وهما يعلمان إمكانية الوقوع بين مخالب بشريّة أو مخالب نمور الجاغوار التي تستوطن الغابات وتسبح في الأنهار وتنقض على فرائسها دون رحمة.

وما إن انساب القارب في نّهر «ماروني» الذي يشكل جزءًا من الحدود بين غويان وسورينام؛ حتى أظهر ممبو مصباحًا وهّاجا قال: إنّه استولى عليه من الكنيسة، وألقى على كتفي الهادي الوشتاتي ثوبًا جلديًا مما يرتدي

السكان الأصليون وهو يقول: الجاغوار يخاف النار التي في المصباح، وهذان الثوبان الجلديان يبعدان عنّا المحتلين والسكان الأصليين لو تفطنوا إلينا، لا تبتئس سنصل إلى حيث حلمنا.

وظلّ القارب يطوي مويجات النّهر حتى قاربا الوصول إلى شلال دافق كان ممبو يعلم مصبّه العميق، فتوقفا عائدين إلى غابات المستنقعات يحملان الطوف متجاوزين خطر التيّار، يدفعهما طموح النّجاح في التسلل إلى موقع المناجم، ليجدا نفسيهما في مواجهة إحدى القبائل الأصلية، كانت قبيلة «الأرواك « مسالمة فمكنت الرفيقين من اجتياز المستنقعات نحو نهر» ماروني « مجدّدا.

تكبّدا مشقّة الرحلة طيلة يومين، وما إن أشرفا على موقع ضخم حتى علما أنّ تلك آليات الحفر، وأنّ أولئك العمّال ليسوا سوى المنقّبين عن المعادن النّفيسة، والسؤال؛ كيف ننضمّ يا ممبو إليهم؟ – قال ذلك الهادي الوشتاتي – والسعادة تغمر كلّ كيانه.

ردّ ممبو: أخي «دُمبا» يعمل منذ سنة ضمنهم، ألم أخبرك؟ وهو من شجعني على الالتحاق به.

أبدى الهادي الوشتاتي بعد إدماجه سرعة في التأقلم وقدرة على العمل فائقة، لم يرهبه جوف الأرض داخل المناجم المشتعلة، فكان يقنع نفسه بأنّ حياته منذ اعتقل بالجزائر تحوّلت إلى فصول من المغامرة بل هي متاهة داخل منجم مظلم، وما عليه سوى تقمّص شخصيّة الباحث عن الخلاص بشوق وحرفيّة، صار يؤمن بقدر يسيّره ولا يدري أين ينتهي به؟ ولكنّه قدر واعد كما يزيّنه له الأمل.

كثيرا ما كان يختلي بنفسه في أويقات الرّاحة ونار متأجّجة في قلبه

يخاطبها: «هل لما اقترفت فرنسا في حقّي والملايين مثلي من حدّ؟ هل يكفي أجيالها المتعاقبة أن تعتذر؟ كيف لها أن تبرأ جراحات طالت أعمق ما فينا؟ الاختطاف، الإخفاء القسري، الحكم بالنفي والتغريب، انتهاك حرمة المنفيين الجسديّة واستغلالهم، والإعدامات، والتشنيع بكلّ رافض لاستيطانها، هل يمكن أن نتحدّث عن عالم حرّ ومزدهر؛ في حين أنّه بنى بنيانه على ثروات المستعمرات وجثث سكّانها الأصليين؟ هؤلاء الأفارقة من حولي جيء بهم في سفن كأنّهم السّوائم، وهؤلاء الهنود وهم السكان الأصليون سعى المحتلّ إلى إبادتهم واستولى على مواطنهم ففرّوا إلى الأدغال مع القرود يتغذّون على العشب ويهيمون على وجوههم في حين تستخرج ثرواتهم وترحّل إلى هناك، إلى أوروبا الثورات المتعاقبة والحريات وحقوق الإنسان.

المقطع التاسع والعشرون:

الفصل العاشر:

الثورة:

ركح الحكواتي:

ظلّ الحكواتي تلك الليلة موليًا ظهره للجمهور وهو صامت حتى استفزّه أحد الحضور بقوله: لقد شتتنا عبر أمكنة وأزمنة وحكايات، فبقيت أذهاننا معلّقة بين الغويان وسجونها المرعبة، وها أنّنا نتشوّق لسماع ما جرى لأسلافنا إبّان ثورة علي بن غذاهم، وقد حاق بهم الشرّ وحاصرتهم الأوبئة ونكّد عيشهم الإفلاس والمجبى، أيعقل كلّ هذا؟

ردّ متابع آخر: وكأنّ ما وقع لم يتكرّر، ألسنا نعيش منه الألوان؟

وقال آخر: تصحيحا للتاريخ أقترح أن نطلق عليها ثورة «فرج بن دحْر» فهو صاحب المواقف المبدئيّة بينما تسبّب ابن غذاهم في فشل الثورة بقبوله الحوار الغادر، ليته لم يصالح.

خشي الحكواتي أن يعمّ اللّغط فاستدار للحضور وهو يرفع الصوت تدريجيّا قائلًا: الشوق إلى المعرفة أولى درجات الوعي؛ ذاك الذي يحاربه كلّ مستبدّ، والنّضج يعقبه الغليان، والظلم يولّد الانفجار، وما لم تتحقّق هذه الشروط متلازمة سقطنا في الفوضى المخادعة... كانت – أيّها الحضور الكرام – الإيّالة التونسيّة تعيش أسوأ سنواتها؛ وقد تراكمت ديونها، وكثر فُسّادها، وأحاط بالصادق باي حاشية من اللّصوص، وسيطر على مواقفه

القناصل الأوروبيون، ودوّخه عشق الغلمان، وحلول صانع الحلاّق الأعور الغلام مصطفى بن إسماعيل طار ببقيّة عقله.

وقد تمكّن القنصل ليون روش من أن يغمد سيف فرنسا في قلب الإيّالة، وجرّ الباي إلى ديون كان يعلم مسبقا أنّ البلاد ستكون عاجزة عن دفع فوائضها فضلا عن أصلها، واجتهد في إحداث القطيعة بين الإيّالة والدولة العليّة، فأوهم الباي أنّه قادر على تسليمه الاستقلال، فبنى الباي قصورا على هباء منثور، وتجاهل الأستانة وهداياها من نياشين وسيوف مرصّعة ومكاتيب السلطان بخطّ يده، ولم يلتفت إلى ما يثمر الألفة بينهما، ولم يستمع لنصح ريشارد وود القنصل الإنجليزي وهو ينبّهه إلى عمل فرنسا على الاستفراد بالإيّالة وضمّها للجزائر، كان كلّ يغنّي على ليلاه لاهثًا خلف مصالح بلاده إلاّ أصحاب الإيّالة وحكّامها؛ كانوا باعة وبأسعار بخسة، وصار السماسرة والمقرضون اليهود والوافدون يسدّون على الباي أنفاسه مطالبين باسترجاع أموالهم عن طريق ضغط قناصلهم، فنادى الباي في مجلسه للاجتماع ليتكلّموا في شأن زيادة الدخل للإيّالة....

واختفى الحكواتي في ظلمة دامسة.

الفصل الحادي عشر:

ركح البايات: (محمد الصادق باي، مصطفى خزندار، خير الدين باشا، نسيم شمامة، الجنرال حسين، فرحات عامل الكاف..)

محمّد الصّادق باي صارخًا فيمن حضر: حال الإيالة لم يعد خافيًا، وإفلاسنا ليس سرّا، وصكّنا لعملة النّحاس كان نحسا علينا، وها أنّ القناصل على الأبواب يهدّدون ويتوعّدون، فماذا ترون؟

في حين لزم مصطفى خزندار الصمت قال خير الدين باشا صهر الوزير الأكبر وغريمه: لو فكّرنا في بعض الإصلاحات والنّظر في تخفيض المصروف والمرتبات لكلّ من يتقاضاها.

سرت همهمة في المجلس أعقبها تدخل فوريّ لمصطفى خزندار: سيضجّ أصحاب المرتبات وخاصة العساكر، وقد ينقلبون علينا.

اتسعت عينا الباي رعبًا وهو يشير برأسه رفضا لمقترح خير الدين.

حتى قال بعضهم: الرأي أن يضاعف مال الإعانة ويعمّم في سائر بلدان المملكة من غير استثناء أو اعتبار لحال الدّافع.

فنظر محمد الصادق باي بعين الرضى لنسيم شمّامة رئيس اليهود، وصاحب لزمات القمح، والزيت، والمكسرات، والملح، والصابون، وكلّ ما يباع أو يشترى، بعد أن كان صانعا لبائع الأقمشة فقيرا قصير اليد والقامة... وما هي حتى رفع الباي رأسه تثمينا للمقترح.

فانتفض الجنرال حسين رئيس المجلس البلدي وهو يقول: يا سيدي ليس لهذه المملكة القدرة على احتمال الزيادة، وحالها كحال البقرة حُلبت حتى نزّ ضرعها دمًا، فهي أقرب للعطب منها إلى السلامة.

وسانده خير الدين باشا بقوله: هذه الزيادة ستحوجنا إلى مال أكثر لتجهيز جيش يغصب الناس، وهل نقدر؟ ولن نجد في العام القادم الإعانة أصلا.

وقال فرحات عامل الكاف: عربان بلدنا لن يقدروا، فحال الضعف استشرى، وقد اضطررت في العام الماضي إلى بيع خيام الضعفاء وتركتهم مع صبيانهم تحت أديم السماء للقرّ والحرّ.

أظهر محمد الصادق باي تأفّفًا وهو يعلّق على مواقف الرافضين: إنّ الرعية ولا سيما العربان في ثروة وغنى، وأموالهم مدفونة تحت التراب، وإذا كثر مالهم ساء حالهم، وربّما بادروا إلى العصيان، فلْنخضد شوكتهم بمضاعفة الإعانة وختم مقهقهًا: العربي خذ ماله واقطع رأسه كما يقول المثل التركي.

ثمّ استأنف الباي جادّا: اكتب يا ابن أبي الضياف هذا المنشور: «اقتضت المصلحة أن تكون الإعانة اثنين وسبعين ريالا في العام فرضا على كلّ نفر وفي كلّ ناحية من المملكة حتى القيروان...ثم التفت إلى بعض العمّال بالمجلس» حذّروا أهل عملكم من التراخي، وانشروا اتفاقنا هذا صباح غد، لا وقت لدينا، وقد نفذت أموال الخزينة وصرنا عند الدّائنين رهينة.

عقّب بعض من باشر العربان في خلاص الجباية: سيدي الباي، نحتاج قوّة قاهرة لغصب الرعيّة مثلما تفضّل بذلك المحترم خير الدين.

لم يستمع محمد الصادق باي إلى رأي بقيّة أعضاء مجلسه شأن كلّ مستبدّ حتى قال وهو يوجّه الكلام لوزيره الأكبر مصطفى خزندار:

استعجل توجيه العمال لخلاص هذه الإعانة المضاعفة، وليكن «حسين آغة» في باجة، و«إبراهيم بن عبّاس» في دريد وما والاها، ثم توجّه «لأحمد زروق «: اخرج إلى الجريد والهمامة فتمورهم تدرّ عليهم المال الوفير وهم في منعة، وأنت يا «فرحات»: تجهّز لبلوغ الكاف وعربانها، فحصادهم وفير وإن أظهروا الخصاصة.

تململ الرّافضون لإجراء مضاعفة الإعانة وانسحبوا في صمت، ولم يبق في المجلس سوى الباي ووزيره وكبير اليهود نسيم شمامة، فتوجّه مصطفى خزندار للباي طالبًا الإذن بالكلام:

سيدي الباي لقد أبدى المظفّر نسيم شمامة مدّ يد العون لسيادتكم بقروض ميسّرة في انتظار جمع الإعانة.

أشرق وجه الباي وهو يقول: لم يخب ظنّي فيك أيّها الوزير، وكنت أعلم أنّ مناكفاتك مع خير الدين ستنتهي يوما ما باستعفافه، فهو رجل متحجّر المواقف صعب المراس، وتسيير شؤون الحكم يطلب مرونة وتنازلات، فأنت للحكم أصلح، ونسيم شمامة لتصريف الأعمال والأموال أقدر، وأنا إليكما أميل.

ركح الحكواتي:

(انطفأت أضواء ركح البايات لتسلّط ثانية على ركح الحكواتي) وقد بدا وأمامه النرجيلة ينفث أدخنة في كلّ اتجاه حتى قال: طار خبر مضاعفة الإعانة وتسرّب في كلّ أنحاء الإيالة كهذا الدخان الذي ترون؛ فزلزلت الأرض زلزالها، واشتدّ على النّاس الهرج، وسرت بينهم الأراجيف، وشرعت مظاهر التمرّد تكشّر عن أنيابها، وأعلن أغلبهم رفض الزيادة في الإعانة، واستشعر قناصل أوروبا الخطر الدّاهم؛ فهبّ بعضهم للباي يحاول ثنيه عن قراره، وكان أشدّهم ملازمة له القنصل «شارل دو بوفال» الذي خلف ليون روش بعد أنّ مهّد هذا الأخير كلّ الطرق والثنايا المؤدّية إلى سرايا باردو وقراراتها، واستنزف بالرشاوي كلّ طاقاتها، وأوهن كلّ قدراتها، حينها غادر تونس تاركا المجال لسلفه كي يجهز على ما بقي.

وبدا «دو بوفال» في صورة المشفق على أهل تونس في قوله: «سيدي الباي، أنصحك بالتراجع عن قرارك، فقد تسببتم في زيادة دخل الدولة بطريقة تخالف حسن توزيع الأداء، وهؤلاء العمّال لن يكونوا رحماء، وسيحيق بنا البلاء.

وكان دو بوفال قد تلقّى الأوامر بضرورة تعليق العمل بدستور عهد الأمان؛ خوفًا من قيام ثورة شعبيّة يجد أبناؤها بين أيديهم دستورًا في الحقوق والواجبات، وفرنسا أدرى وهي أمّ الثورات والانقلابات تريدها رعيّة عمياء صمّاء.

وبقدر ما كانت الإيالة تغرق في الفوضى كان محمد الصادق باي يغرق في العشق؛ بعد أن أخذ مصطفى بن إسماعيل بمجامع قلبه.

قطع أحد المتابعين على الحكواتي كلامه وهو يرغو: موقف فرنسا من تونس ظلّ يراوح مكانه، دعم الحكام المستبدّين، وإحباط ثورات الشعوب حفاظا على مصالحها، يا للعار... يا للعار....

أومأ الحكواتي برأسه علامة الموافقة واستأنف الكلام: وشاع في المملكة أنّ قنصل الفرنسيين رقّ قلبه بالرحمة لحال هذه البلاد وضعاف حالها، وقلوب حكامهم لم ترقّ، فجاهرت أطراف البلاد بالعصيان، وفشا هذا السلوك في كلّ الأنحاء، وبادروا لشراء السلاح والبارود، ونشطت هذه السوق وكان للمالطيين والإيطاليين الربح الوفير، وظهر في ماجر من أهل مساهل علي بن غذاهم خطيب يحسن القراءة والكتابة ذو قدرة على الإقناع فنادى فيهم: «أن لا خلاص لكم إلاّ باجتماع كلمتكم على الامتناع»، وسانده في مذهبه جلاص وعربان القيروان بزعيمهم السبوعي بن محمد السبوعي، وفرج بن دحر من بيوت رياح، والتفّ أغمار العامّة ينشدون العصيان والامتناع متجاوزين ضغائنهم متوعّدين من خالفهم بحرق البيوت وسلب القوت، واتخذ كلّ عرش طبلا سمّوه «طبل الفزوع» يقرع عند الخطر الداهم أو الهجوم السّاحق، فيسمع له في الفلوات دويّ، وتعيّن علي بن غذاهم برغبتهم زعيمًا يحدّد أهداف الثورة واضحة: «الاستعفاء من الأداء الثقيل،

وإذا كان الغصب دافعناهم دون تعرّض للنّاس وأموالهم، هذا عهد بيننا، فالسور الذي يقينا هو أنّنا مظلومون».

ولمّا اشتدّ عود الثوار قال قائلهم: لن نكتفي بتخفيض المجبى، بل نطالب بعزل العمّال وأن لا يتولاّنا المماليك، وأن يسقطوا عنّا المكوس، وجرأوا على من أرسل من السرايا فأفشل أهل باجة محلّة حسين آغا واحتجزوه لولا أن أرسل الباي لإعانته، وتلقى عرش دريد ابراهيم بن العباس متوعدين بقتله، وأتوا داره بتبرسق فكسروا بابها، واستولوا على هنشيره، وساقوا دوابه وهم يهلّلون أنّهم استرجعوا ما نهب منهم رافعين عبارة: «رزق الباي ليك».

ولمّا ألقى فرحات عامل الكاف بنفسه يروم غصب أهالي الكاف وعربانها من ونيفة؛ قتلوه فقويت نفوس الثوار وماجوا، وجعلوا يترصّدون مكاتيب الدولة خوفًا من المطامع والترغيب، وشددوا المراقبة على فرسان المخازنيّة حتى لا يخترق جمعهم فلاذ الرسل بالاختفاء، وتقطعت أواصر المملكة حتى لجأ عامل الجريد لاتخاذ رجال في زيّ المجذومين وجعل لهم عكاكز مثقوبة فيها مكاتيب الجريد.

وأحجم الساحل عن إرسال العسكر خوفًا من أخذ بلادهم وزيتونهم إن سرّحوهم لإعانة المملكة، فالعرب بالمرصاد، ولمّا اشتدّ وقع الثورة وبلغ العجز من الدولة مبلغه؛ قال مصطفى خزندار للباي: ماذا لو جلبنا الشيخ مصطفى بن عزوز شيخ الطريقة التيجانيّة، فللرّجل مكانته وقدرة على المناورة، وله من المطامع ما يدفعه للإيقاع بابن غذاهم وقطع رأس هذه الثورة، فصاح محمد الصادق باي قائلا: تصرّف واعطه ما يطلب، وليكفّ عنّا هذا الهرج الذي يكاد يوقع بعرشنا، وها أنّ أساطيل الطليان والفرنسيس والانجليز قد اقتحموا علينا حلق الوادي ينتظرون سقوطنا، حتى الدولة العليّة يا وزيرنا أرسلت بواخرها وأفنديها (في إشارة إلى قدوم حيدر أفندي للوقوف على ما يجري)، وزمجر: بادر بجلب الشيخ.

وهلّ الشيخ الداهية على ابن غذاهم والثوار متوخّيا أساليب الترغيب والترهيب؛ فأعلنت عروش جلاص والهمامة وأولاد عون ونفات التوبة، وشرعت أواصر الثورة وأعمدتها تنهار، فاستجاب علي بن غذاهم لكفّ الشغب مبديًا طلب الأمان له ولإخوته وقومه، وأن يُعطى هنشير الروحيّة لبناء زاوية ولأخيه ولاية ماجر، وكانت تلك المطالب الإسفين الذي دق به عنق الثورة، غير أنّ الثائر فرج بن دحر لاقى بن غذاهم وحذّره من مغبّة قبول الحوار والمصالحة وهو يرغو: «لقد حاق بنا الغدر، وسترى أنت ومن معك عاقبة ما فرحتم به من هذا الأمان»، وظلّت مناورات الباي ووزيره تعمل عملها من إشعال للفتن بين القبائل حتى أيقن بن غذاهم أنّه وقع.

ولمّا علم الباي بنجاح الخطة استدعى قادة جيشه مرسلًا إيّاهم في محالّ مارست القتل والسلب والتشريد، ولم يبق لابن غذاهم سوى الاختفاء، منتظر مصيرا مجهولا سينتهي بحياته في السجن.

وأنهى الحكواتي أسفا: لم يدّخر قناصل الدول الأوروبيّة جهدا في إخماد هذه الثورة؛ رعاية لمصالحهم وأموال رعاياهم.

ولم يستفد الباي ممّا وقع، بل أمعن في التشفي من الرّعيّة عن طريق عمّاله الذين مارسوا التعذيب والإذلال ونهب ما بقي من أموال.

وفي ماي ١٨٦٤ كاتب الباي رئيس المجلس الأكبر بما معناه: «إنّ المصلحة اقتضت توقيف المجلس الأكبر».

فالعرب تأبى طباعهم القانون، وعاد ليحكم في النوازل طلق الشكيمة بلا رادع، والإيالة سائرة نحو الانحدار.

وفي هذه المعمعة هرب نسيم شمامة إلى فرنسا وفي قبضته سبعة وعشرون مليون فرنك، ليتولّى منصبه شلومو شمامة ويعيد سيناريو عمّه، والباي في غيمة أفيونه يحضن ابن إسماعيل في لياليه الملاح.

المقطع الثلاثون:
الفصل الثاني عشر:
بؤس الثورة:

ركح الحكواتي:

رُفع الستار عن ركح الحكواتي فظهر وعلى رأسه تاج من الرّيش، وبيده قوس بدائيّ، وما إن همّ بالكلام متماهيًا مع مظهره فكأنّما قد حلّ توّا من غابات الأمازون وهو يسأل: «هل تشوّقتم لصنيع الهادي الوشتاتي ومصيره؟ حتى سرت همهمة وتصاعد ضجيج غير معتاد من الحضور حتى نطق أحدهم وكان مشاكسًا: «لا نريد الآن سوى المزيد من الحديث عن وضع مملكة تونس، فقد أوجزت، وما أهلكنا سوى اختصار التاريخ وموجزاته، هذا بلدنا، كدنا نجهل ماضيه فغُمّ علينا حاضره.

عبّر الحضور عن تأييد المتكلّم فلم يجد الحكواتي بدّا من الخضوع للمطلب، فألقى بالتاج والقوس، وقلب أوراقه وهو يرطن بما لم يسمع الحضور حتى قال: قد والله أوجزت مداراة لوجع القلب...

لم يخل التاريخ البشري من قيام الثورات؛ نتيجة مظالم الحكام، وغياب العدالة، وما تعرضت له الشعوب من ويلات وانتهاكات، فما نجح منها هلّل له التاريخ وضمّه بين دفّاته وسمّاه ثورة، وما فشل منها أطلق عليه اسم انقلاب ونُكّل بأصحابه، ماعدا تلك الانقلابات التي نفّذها ذوو القوّة الصلبة حيث جثموا على صدور الشعوب وأذاقوهم الويلات، وثورة علي بن غذاهم وفرج بن دحر أفشلتها سياسة فرّق تسدّ والدّسائس والوعود

الكاذبة وتلاشي العروش، ولأنّ هذه الثورة لم تنبن على وعي مسبق، ولم تكن القبائل على كلمة واحدة تجاه الاختراق الذي قام به الوزير الأكبر مصطفى خزندار وبعض المشائخ من الصوفيّة، ولأنّ أوروبا أيضا لم ترض عن هذه الثورة خوفًا على مصالحها، تمّ إفشالها والتنكيل بكلّ المملكة.

إنّ العوْد على البدء يرهقني تماما مثل استذكار تلك الثورة الموؤودة، فقد كانت إسفينا أغمد في قلب هذا الوطن وجعله يعيش المعاناة عقب المعاناة، وإنّه من اليسير أن تتحوّل الثورة إلى فوضى إذا خرجت عن أهدافها وآلياتها، فالعربان وبعد انضباط أوّلي أباحوا السرقة والإغارة واكتسحوا كالجراد كلّ مناطق الإيّالة نهبا وسلبا للقوافل والقوارب والممتلكات الخاصّة، ولم تسلم إلاّ تونس المحصّنة بالعساكر، ولم يعد ابن غذاهم ولا أيّ من القادة لهم أمر ينفّذ أو كلمة تسمع، وهذا لعمري ما يرذّل الثورات ويضعفها ويعطي الحجّة للقضاء عليها، ولعلّ ذلك من الأسباب التي جعلت ابن غذاهم يقبل التفاوض ويطمع في صلح تبيّن كذبه، ليفرّ بعدها إلى التراب الجزائريّ وقد بات مطلوبا بعد أن أعطي الأمان، فالباي قد خصّص مالا طائلا لمن يقبض عليه حانثا بكلّ العهود. لم يهنأ الثائر كثيرا في الأراضي الجزائريّة التي كانت حينها تحت حكم الجنرال الدموي «ماك ماهون» فقد وضع رهن المراقبة وسلب ورفاقه الأسلحة؛ خوفًا من إثارة القبائل الجزائرية التي لم تستكن للمستعمر وكانت دائمة الانتفاض، فعلم ساعتها أن لا وفاء لمحتلّ، وأنّه يمكن أن يُسلّم للباي في صفقة ما، فعاد للهرب إلى داخل الأراضي التونسية محتميًا بالتضاريس العصيّة لجبل الرقبة حيث الكثافة النباتية والغابيّة المانعة لتغلغل عساكر الباي، و ذلك في ليلة شتوية ماطرة باردة من سنة ١٨٦٥.

كان عندما يشتدّ به القلق ويضيق صدره يتوجّه لأخيه وصفيّه عبد النبيّ وهو يقول: حسبنا أنّنا ثرنا من أجل هؤلاء الفقراء والمظلومين والجوعى المشرّدين في الفيافي هربًا من الجباة، ولكنّنا وجدنا أنفسنا منفيين في بلادنا، ملاحقين من الإخوة قبل عسكر الباي، لقد أطمعهم الخزندار في المكافآت لو أمسكوا بنا، أيّ مهزلة نعيش؟

كان عبد النبيّ يحاول التهوين على أخيه، ولكنّه ينهار أحيانا وهو يصرخ: مالنا ولهؤلاء؟ كنّا في أفضل حال نرتاد الزاوية التي لا ينقصها رغد العيش، كنت تمارس مهنة الطبّ وكانت لك سلطتك الدينيّة... ما لنا وللباي؟ مالنا وللسياسة؟ لسنا أهلها ولا كان أجدادنا يوما من ضمن رجالاتها لقد ظلّت حكرًا على المماليك من الشراكسة والغلمان من كلّ النّحل منذ أن فقدت هذه المملكة هيبتها وأقصي أهلها وأصبحت تابعة لكلّ من سبى أرضها واحتلّها.

وتمرّ الليالي في حوارات وأحزان وحلّ وترحال، لا يكاد جمعهم يحلّ بالمكان حتى يغادره؛ خوفًا من الوشاة والعسس الذين ملأوا تلك النّاحية، حتى كان اليوم الذي علم فيه ابن غذاهم بقدوم الشيخ عيد التمسّاني صاحب الطريقة التيجانيّة يقصد الحجّ، فنُصح بالتماس شفاعة الباي، فالعائلة الحسينيّة تنتمي قاطبة إلى الطريقة التيجانية، ولشيوخها كلمة لا تردّ لدى البايات، وليته لم يستمع إلى النّصيحة، فما إن توجّه نحو خيام الشيخ التي نصبت بجهة تبرسق حتى عُلم أمره، وأرسلت العساكر لاختطافه، فجلب لباردو وهو يمتطي حمارا ويرتدي جلبابا رثّا حاسر الرأس في وضع بائس زاده هجوم أخلاط العامة نكدًا، وفعلوا فيه الأفاعيل من ضرب وقذف ونتف للشعر وهم يستهزئون: «أأنت الباي؟ شتان بينك وبين مولانا الله ينصره.

فاكتفى بأن قال: هلاّ أتيتم لي وأنا على فرسي، أمّا إذا أتيتكم لا فخر لكم والحالة هذه.

وعلا صوت البرّاح معلنًا وقوع ابن غذاهم في الأسر، ودقّت طبول الغدر لتصمت طبول الفزوع إلى الأبد، ولتدخل المملكة في نفق مظلم يمتدّ لسنوات مهّدت للاحتلال...

صمت الحكواتي يروم إنهاء السهرة لولا الغليان الذي سرى بين الحضور: «نودّ الدخول معك لهذا النفق كي نعرف ما جرى، فالمعرفة تثمر الوعي، وهذا ما ظلّ ينقص كلّ من فرّطوا في هذه المملكة.

كانت الحجّة دامغة فانبرى الحكواتي يقول: حين تتهيّأ ظروف الغرق للسفينة لا ينجيها الصحو، فهزيمة الثوار لم تؤدّ إلى خروج المملكة ممّا وقعت فيه من مزالق قاتلة، حلقة التداين الداخلي والخارجي استحكمت فكان الإفلاس، وما من مفلس يكون سيّد نفسه لذلك أصبح الباي سهل الانقياد، مجبرًا على قبول الحلول المملاة وإن على رقبة المملكة، وتكالب السماسرة والمرابون الذين وطّأ لهم الخزندار المواقع، فهذا الشاميّ إلياس موصلّي المدير بالخارجية التونسيّة وزوجته لوجيا الفاتنة قد تمكّنا من كتف المملكة، وراحا ينسجان المكائد والدسائس يسيّرهما القنصل الفرنسي نحو مصالح بلده، وهؤلاء السماسرة من اليهود وغيرهم وجدوا ضالتهم في إغراق الدولة، وتكالب كلّ من موقعه ينهش ما استطاع نهشه. ولم تحلّ سنة ١٨٦٧ حتى ابتليت الإيالة بالكوارث الطبيعيّة؛ من انحباس للمطر، وسحب من الجراد أتت على الأخضر واليابس فعسرت الحياة، واضطرّ العربان لبيع المواشي، حتى الخيام لم تسلم، وذاقوا مرارة المسغبة حتى لجأوا إلى أكل لحوم البشر، وتشتت العروش وارتحلوا هائمين، وكثرت الغارات

والنهب بعد أن أكل الناس جميع ما عندهم من الحلال والحرام حتى الخيل والأحمرة، وصار الناس يأكلون أمواتهم؛ بحيث أنّ كلّ من يموت يجرّد ويطيب ويؤكل مثل الشاة وحقّ الله تعالى.

حلّ فصل الشتاء على المملكة قاسيًا، برد ولا مطر، جوع ولا طعام، وانتشرت الأخبار حول تفشي وباء الكوليرا بحارة اليهود، وانتقال العدوى للرّبطين والأرباض ليعمّ المملكة المنكوبة، فكثر عدد الموتى حتى تجاوز المائة في اليوم الواحد، ولم تكفِ النّعوش لحملهم، فصاروا يحملونهم على ظهور الحمّالين، ويحملون الثلاثة في نعش واحد؛ بمرأى ومسمع من الباي القابع حينها في القصبة، ولم يظهر على وجهه تأثّر البتة، فانشغاله منصبّ على سلب ما تبقى من أنفاس الرعيّة، غارق في أفيونه وعشقه المستبدّ لغلامه مصطفى بن إسماعيل، وقد غدا هذا الأخير يصول ويجول في السرايا تحرّكه عقده وأطماعه غير المحدودة، يمارس كلّ سبل الخديعة والدسائس للإثراء والتموقع، فنهب قصر إسماعيل السني بعد قتله شرّ قتلة، واستولى على ممتلكات الخزندار عندما أعفي، وسرق مجوهرات البايات من قصورهم، ولكن كلّ هذه الشنائع لا تقاس ببيعه لأسرار المملكة للقناصل، وتلقي الرشاوي والوعود بتولّي الوزارة الكبرى بعد تعطيل عمل خير الدين الذي تكالبت عليه الأطراف الداخلية والخارجية، لقد مارس مصطفى بن إسماعيل الوزارة الكبرى حين تولاها الشيخ محمد خزندار بعد استعفاء خيرالدين، وأملى عليه ما أراد في انتظار الانقضاض عليها فعليًا.

وكان الثعلب «تيودور روسطان» قنصل فرنسا الديبلوماسي المحنّك عشيق لوجيا موصلّي يدفع بها نحو تكوين شبكة من الجوسسة؛ لاستقصاء

أخبار السرايا، سلاحها جمالها، فوجدت في ابن إسماعيل وأصدقاء طفولته المشردة خير معين، فأصبح علالة بالزاي أحد مجرمي المدينة يعقد الصفقات، ويتلقى الرشاوي، وينجح في إيصال رسائل روسطان، فلم تفلح إصلاحات خير الدين، ولا الكومسيون المالي، ولا رغبته في جعل المملكة ولاية عثمانية لكبح جموح فرنسا، ولا تمكّن من الوقوف ضدّ مدّ سكّة الحديد من دخلة جندوبة نحو حدود الجزائر السكة الممهدة لضمّ تونس إلى مستعمرة الجزائر. ثم قفز الحكواتي نحو الظلمة تاركا الحضور في ذهول وترقب.

الفصل: الثالث العاشر:

ركح البايات: (محمد الصادق باي وقد بدا مرهقًا منهكًا متجهّم الوجه ارتسمت عليه علامات التقدّم في السنّ، مصطفى بن إسماعيل ظهر فارع الطول مزهوّا، متأنّقا ترصّع أصابعه الخواتم ذات الأحجار الكريمة، علالة بالزاي، الحاجب...)

مصطفى بن إسماعيل وهو يتقرّب من الباي يكاد يعانقه: دمت لنا ودام ودّك سيدي، كنت أفضّل أن يكون لقاؤنا في مخدعك وليس رسميّا كما أرى...

محمد الصادق باي ممتعضًا: دعني من الغرف، ما يحدث للمملكة أرّقني.

مصطفى بن إسماعيل: لا عاش من يؤرق سيدنا، مُرني أقطع نصف هامات الرّعيّة من أجل أن تنام هانئا... أم أنّ غيابي عن أحضانك أذهب عنك الكرى؟

محمد الصادق باي مشيحًا بوجهه يعلو سحنته غضب: اسمع يا وزيرنا، أوامر القنصل الفرنسي لم تعد تُحتمل، أشعر أنّه يسحب منّي السلطة تدريجيّا، صرت خائفًا من أن أحشر سجينًا في الزندالة وأن ينتصب تيودور روسطان على هذا الكرسيّ، هل من تفسير يقنعني ويبرّر تواصل هذا الخبيث مع الفئات المختلفة في المملكة، ولقاءاته المتكررة مع زعماء القبائل ومشائخ الطرق الصوفية، ما الذي ينوي فعله بعد أن أسلمنا له الرّقاب صاغرين؟

مصطفى بن إسماعيل: انزع عنك هذه الوساوس، وهل أسمح بذلك وأنا وزيرك وآمر جندك؟ لقد حصل على الموافقة بمدّ سكة الحديد من دخلة جندوبة إلى حدودنا مع الجزائر وانتهى... لن يطلب غير ذلك.

محمد الصادق باي وهو يستعيد رشده من غيبوبة السكر والأفيون: أخشى أنّنا وافقنا على هلاكنا، أكان وزيرنا الأكبرمحمد خزندار وقبله خير الدين مخطئين لمّا امتنعا عن الموافقة؟

مصطفى بن إسماعيل: نعم سيدي، تعنّت خير الدين وحجّته عدم موافقة السلطة العليّة بالأستانة، وهذه مملكتك التي أراد إلحاقها بالدولة العثمانية؛ طمعًا في ولايتها كما أثبتّ لك بالقرائن، وأمّا الوزير الأكبر محمد خزندار؛ فالرّجل قد خرف وكان تحت تأثير خير الدين، ما قمنا به هو عين الصواب، ولا تنس سطوة الإمبراطور ية الفرنسية؛ فهي قادرة على نسف المملكة في يوم سيدي، ومن خاف نجا....

محمد الصادق باي: الكومسيون المالي جرّدنا من التصرّف في أموالنا، وفرض علينا تقشفًا حتى كدنا نجوع في السرايا، ورغم ذلك لم نستطع الإيفاء بالديون ولا فوائضها، ضعنا يا وزيرنا، والقناصل تجرّأوا علينا يدفعهم الدائنون، وهؤلاء الذين هرّبوا أموالنا احتموا بالدول الأجنبيّة وخسرنا جلّ القضايا.

مصطفى بن إسماعيل وقد ضجر من شكوى الباي: أزمة وتمرّ سيدنا، المهمّ تمكّنا من كشف الخونة وتخلّصنا من دسائسهم.

ثمّ استأذن في المغادرة بعد أن أعلمه الحاجب بوجود علالة بالزاي في انتظاره لأمر ملحّ.

محمد الصادق باي وحيدًا على الركح وقد ألمّ به صحو على غير العادة، فجعل يكلّم نفسه بصوت عال: حتى أنت يا ابن اليهوديّة صرت تغادر مجلسي ذاهبًا لصديقك الدنيء علالة بالزاي، كيف استطعت أن تلبسني خاتمًا في أصابعك القذرة؟ كيف لم أصدّق ابنتي جنيْنة زوجتك حين نقلت لي كلامك حول اعتمادك السحرة والمشعوذين؛ لجعلي رهين التعلّق بك؟

ظننتها غيرة النساء قد ذهبت برشدها بعد أن استأثرتُ بك، نعم لقد سمعتك تحادث بالزاي قائلًا: لقد مزج لي السحرة شعر الإبط والأظافر برحيق العسل وعجين الفستق نقدّمه للباي؛ وهذا أمر عجيب للمحبّة، وإنّنا نريد أن نطعم سيدنا منه يزداد لنا محبّة، «عجبا يا ابن اليهودية كيف جرأت وانجررتُ خلفك كالشاة، بينما السرايا تعجّ بالغلمان؟

كان عليّ أن أعيد النظر لأستذكر كلّ ما صنعت، وأنا يا ويلي كنت أوافق على كلّ ما تشير به، ظننتك خليلي، وأنّك تقابل المعروف بمثله.

فهل صحيح أنّ خير الدين قد طمع في ولاية المملكة وهو المستعفي من نفسه من الوزارة الكبرى؟ عليّ أن أعترف بأنّ إصلاحاته كانت لتنقذ مملكتنا أو تحدّ من هذه الهجمة التي نرى، كان رجل دولة، خسرناه وربحته الأستانة، وإلاّ لماذا يوليه السلطان عبد الحميد الثاني منصب الصدر الأعظم؟ لقد تكالبتم جميعكم ضدّه وأقنعتموني بقبول استقالته؛ رغم ما أنجز خلال سنواته الأربع...

ويحقّ لي أن أسأل عن الموت الغامض الذي حلّ بأخي محمد العادل باي في سجنه، صحيح لقد ثار عليّ، ولكني ما نويت له الموت، ولا انتظرت موت أخي الطاهر باي؛ فهو لم يشك من مرض قبل تلك السهرة الخمرية التي جالسته فيها يا ابن اليهودية.

ومالي أودع علي باي والطيب باي السجن بناء على ادعائك بأنّهما يتعاملان مع فرنسا وإيطاليا؛ طمعًا في الملك، ونحن؛ ألسنا نُسيّر من روسطان وغيره من القناصل؟

كيف نسيت أنّ علي «باي المحالّ» قد أبلى في إخماد ثورة المقبور علي بن غذاهم ومهّد قبائل وعروش الشمال الثائرة بمعيّة أحمد زروق؟ أليس

عليّا من جاءني بأخيه العادل المحتمي بجبال خمير طائعًا مستسلمًا، فإذا كان ينوي الغدر فقد توفّرت له أكثر من فرصة، آه أيّها الباي المهزوم، لقد عزلوك عن أسرتك وصرت أنت السجين داخل هذه السرايا؛ وأصبحوا يرتعون طلقاء في المملكة، ولا أدري أيّ مصير ينتظرني؟ فهل فات الأوان كي أستردّ سطوتي؟

فلو فكرت في عزل ابن اليهودية قد يطير برأسي قبل أن أبادر، لقد أحاط نفسه بعصابة تأتمر بأوامره، وها أنّه صار يتفاوض مع القناصل حتى في غيابي، سلاحه الدسائس والخديعة والرشاوي والقتل والتنكيل، عليّ أن أقرّ بأنّي قد علقت في شرنقة أخطبوط بشع متوحش، ووجب أن أساير بهدوء، وأتحمّل الأذيّة والنكران وما يطلب منّي؛ لأنجو برأسي وأحفظ ماء وجهي، فها أنّي أعترف بيني وبين نفسي أنّي غدوت عاجزا لا حول لي، وأنّني قد فرّطت في ملك أجدادي الذي امتدّ لقرون، لعنة الله عليك يا ابن اليهودية، ولعنة الله عليكم أيّها القناصل، ويا مصطفى خزندار، ويا نسيم شمامة، وبيشي الملعون، وسماسرة الشؤم، والمرابون، وهؤلاء الوافدون من كلّ حدب تكالبوا على مملكتي كالجراد حتى غدت قفرًا، بينما غمرت نفسي في الموبقات، رحماك يا الله... وصاح حتى زعزع صوته الركح: «أهي أرواح رعيتي التي حصدتها حملات الانتقام، أهي بطون الجوعى الذين قضت عليهم الفاقة والبرد والأوبئة عادت لتنتقم؟.... وظلّ في عويل مؤذ حتى خمد، فحمله الحرّاس كالميّت.

وما هي إلاّ لحظات حتى عاد مصطفى بن إسماعيل لاعتلاء الركح ومعه علاّلة بالزاي، وراح يسأل الحاجب في ازدراء: أين سيدنا الباي؟

الحاجب: لقد حمل مغشيّا عليه منذ حين بعد أن انتابته نوبة صياح.

علاّلة بالزاي موشوشًا في أذن بن إسماعيل: لقد اقتربت من الجلوس على هذا العرش، لن يطول به العمر، فقد أفلحنا في إنهاك جسمه وروحه؛ خمر، وتكروري، وسهرات مجون، وهموم المملكة المفلسة، فهل يحتمل جسده المترهّل وبطنه المدلوق أمامه ورئتاه المحروقتان كلّ هذه المصائب التي دفعناه إليها دفعًا؟.. ولا تنسَ عامل السنّ.

مصطفى بن إسماعيل: ليت الأمر يتمّ كما نشتهي، هل أعلو هذا العرش يومًا؟ وأردف مزهوّا: «مصطفى بن إسماعيل باي تونس، وهل يمكن أن أنسى تلك الطفولة البائسة؛ أعقاب السجائر، والجوع، والتشرّد، والاعتداءات الفاحشة التي جعلت منّي غلام خدمة، أنا ابن اليهودية المنبوذة، ونحن يا علالة سنقف سويّا وبيدنا مفاتيح مملكة تونس... كيف أصدّق؟

علاّلة بالزاي: لا تهمْ طويلًا، مازال أمامنا الكثير لنصل، هل نسيت ما طلب منّا روسطان آخر مرّة؟

مصطفى بن إسماعيل: لم أفهم يا علاّلة المطلوب تحديدًا لقد كان القنصل في تلك السهرة مخمورًا بين أذرع عشيقته لوجيا، ويتحدّث عن وثيقة يطلب أن نقنع بها الباي قصد توقيعها... لم أستوعب الأمر بعد، ولكن الآن دعنا من القنصل وحدّثني عن أموالي الأخيرة، هل اتفقت مع السماسرة على تحويلها إلى باريس؟ فقد بلغني من بعض الأصدقاء هناك أنّهم يرتبون لي زيارة، وأخيرًا سأدخل مدينة السحر والجمال والمال، سألاقي حسانها وأسكب عليهن من عطورها وخمورها، ستطأ قدمي قصورها وأقابل رؤساءها، أنا يا علاّلة، أنا؟

وأسدل الستار عن ركح البايات بخروج مصطفى بن إسماعيل وخلّه علاّلة بالزّاي وهو يواصل الصراخ: أنا الباي، أنا الباي....

المقطع الواحد والثلاثون:
الفصل الرّابع عشر:

ركح الحكواتي:

ظهر من العتمة وهو منشرح الوجه على غير العادة يرفع علمًا ويخفضه، لم يتمكّن الحاضرون من تبيّن ألوانه، حمحم معلنًا عن بداية الحكي؛ فعمّ الصمت حتى قال: اليوم أطير بكم إلى أوروبا ولن أقبل أيّ توجيه، ولو فعلتم أسدلت هذا الستار إلى الأبد، سأكون دكتاتورًا مثل شارل لويس بونابرت المسمّى نابليون الثالث لمّا استولى على الحكم إثر ثورة ١٨٤٨ وانقلب على المؤسسات الشرعية وجعل نفسه امبراطورًا، ولكنّه أنجز الكثير لفائدة فرنسا، وصيّر باريس أجمل عاصمة في أوروبا، مدّ سكك الحديد فاستفادالاقتصاد والمجتمع، وضاعف مساحة الإمبراطور ية فيما وراء البحار؛ حتى أنّه أنشأ وزارة للمستعمرات وقوات استعمارية من المشاة البحرية والزواف والرماة الجزائريين وغيرهم.

فصار له فيلق إفريقي، وفي المقابل ضيّق الحريات، ولاحق المعارضين ورمى بهم في المعتقلات ومنافي ماوراء البحار معتقدا أنّ البلاد ستنسى الحرية لصالح المجد، واستبدّ به العجب ككلّ مستبدّ فسعى إلى تحقيق مجده وتوطيد مركزه كإمبراطور داخل فرنسا وخارجها، مندفعًا في حروب وأحلاف ومغامرات ضدّ روسيا في حرب القرم وإيطاليا، ساعيًا للإطاحة بالأسرة الحاكمة بها، وأدّى به طموحه إلى المكسيك قصد إقامة إمبراطورية في القارة الأمريكيّة، غير أنّه جنى الخسائر، واستضعف جيشه واهترأت أسلحته.

في ذاك الزمن كانت البلدان الأوروبية تغلي كمرجل في سعيها لترسيم حدودها وترسيخ قومياتها، وأصبحت بروسيا تمثل قوّة صاعدة بقيادة ملكها وتوجيهات «أوتو فان بسمارك» الطامح إلى بناء إمبراطورية ألمانيّة قويّة؛ فورّط نابليون في حرب قضت على هيبته بالأسر، ووقع الاستيلاء على مقاطعتي الألزاس واللورين، وسقط الآلاف من الفرنسيين بين قتلى وجرحى وأسرى، وحوصرت باريس...

لم ينه الحكواتي كلامه حتى صرخ أحد الحضور: كفّ عنّا هذا الهراء، صرت تشغلنا بأيّ حديث، ما لنا ولأوروبا وبونابرت وبسمارك، نريد تاريخ بلدنا...

همّ الحكواتي بالمغادرة لولا أن كان ردّه جاهزا فقال: يا ابني، كي تفهم تاريخ بلدك عليك بقراءة تاريخ الآخر؛ لأنّنا لا نعيش بمعزل عن الآخر، فهو فاعل فينا وبعمق، وعندما تهبّ الأعاصير في أوروبا تقوم في أرضنا الزّوابع، بيننا وبينهم البحر ومجلّدات من الوقائع .

فسرى صمت قانع واسترسل الحكواتي: عندما عصفت الهزيمة بنابليون وأسر تمّ خلعه، وقامت مقاومة وطنية فرنسية أعلنت قيام الحكومة المؤقتة للدفاع الوطني ١٨٧٠ تحت قيادة الجمهوري «ليون غامبيتا»، وركزت قوة دفاعية في باريس منهية بذلك حقبة الإمبراطور ية لتشكل الجمهورية الفرنسية الثالثة، وانتهى عهد الاستفتاءات والمراسيم التي حكم بها نابليون رقاب الفرنسيين.

لم تصمد الحكومة أمام حصار باريس ففرّت باستخدام المناطيد إلى أرياف باريس؛ لمواصلة المقاومة ...

ولكن باريس سقطت واقتحم الألمان العاصمة فرضخت فرنسا ذليلة، ونتيجة للخسائر المتتالية والقبول بالشروط الألمانية المذلّة ثار عمّال باريس وساندهم الحرس الوطني، وأنشأوا ما أطلقوا عليه «كومونة باريس» التي

حافظت على نظام يساري راديكالي لمدة سنتين حتى قمْعها الدموي في أسبوع باريس الدامي الذي أشعل حربًا أهلية سقط فيها الآلاف، بينما العدوّ الألماني جاثم على وطنهم.

أرأيتم لماذا علينا أن نقرأ تاريخ الآخر؟ ومغزى ذلك أنّ الحكم الاستبدادي مفسدة وعاقبته الدمار للأوطان.

ثم واصل: وبعد سحق الكومونة تولّى «باتريس ماك ماهون» العسكري رئاسة الجمهورية حتى استقالته في ١٨٧٩، ليلمع نجم جول فيري، وهذا بيت القصيد، وهنا مربط فرسنا.

سرت همهمة بين الحاضرين... فاستدرك الحكواتي قائلًا: لقد أصبحت فرنسا دولة منهكة مدمّرة، وبدأت مخزونات المواد الغذائية تقلّ، وتم تقنين الطعام، واصطفت الطوابير أمام المخابز والجزارين، واستبدل اللحم بالشحوم؛ فحصل عمدة باريس «جول فيري» حينها على لقب «مجاعة فيري»، وقد اضطر الباريسيون إلى أكل حيواناتهم الأليفة، والكلاب، والقطط، والعصافير، والجرذان التي بيعت مقابل الفرنكات، ومات من الفرنسيين من الجوع والبرد أضعاف ما قتلتهم الحرب.

ثم توجّه للحضور مستفزّا: «هل تعرفون بلدًا غير فرنسا عاش ما عاشه الفرنسيون وفي نفس الحقبة التاريخيّة «؟

فجاء الردّ سريعًا: «نعم، إنّها تونس بعد ثورة علي بن غذاهم، كنت حدّثتنا عن ذلك».

فقال أسفًا: صحيح، مررنا بما مرّوا، ولكن بيننا الآن وبينهم بون بائن، لقد سبقونا في الحضارة بأشواط، فما الأسباب حسب رأيكم؟ وانطلقت من صدره آهة كادت تقطع نياط قلبه.

وفي صمته نطق من الحضور نفر وهو حائر: أمن أجل هذا الاستنتاج وهذا السؤال المعلّق طرت بنا إلى فرنسا تسرد لنا حروبها وسقوط امبراطورها... عجبًا، كيف تتوّهنا؟

قال الحكواتي ضجرًا: أروم بعثًا جديدًا وأحرث بالسؤال أرضا تعوّدت السبات، فما نعمت بما تنعم به الأمم السّابقة لنا في النهوض، ومع هذا سأردّكم إلى تونس ولكن من بوّابة فرنسا.. فبعد سقوط الإمبراطورية الثالثة وأسر نابليون الثالث ونفيه في بريطانيا تناوبت على فرنسا حكومات تخلّلتها كما أشرنا ثورة كومونة باريس الاشتراكيّة، ودام عدم الاستقرارلعشريّة كاملة، ولمّا استقال ماك ماهون تولّى الحكم «جول فيري»، فوقعت حكومته تحت عبء مالي كبير، فبادر إلى جملة من القوانين تهمّ حرية التجمعات، وحرية الصحافة، وإصلاحات في التعليم، وفي المقابل اجتهد في تحقيق هدف فرنسا ألا وهو ضمّ تونس إلى مستعمرة الجزائر، هلاّ توضّح لكم التمشي.

واسترسل «كان جول فيري سياسيّا محنّكًا وخطيبا لامعًا يدوّي صوته صادحًا داخل البرلمان الفرنسي بأطروحاته التوسعية، وقد مهد لما كان يطمح إليه بالقول: لسنا فلاسفة وإنّما رجال عمل، نريد لمستعمراتنا التوسع والقوة؛ ولذلك يجب علينا التصرف عمليّا.

وما إن يجد معارضة حتى تطغى على فكره الرّوح الامبريالية فيحتدّ صوته وهو يروم الإقناع بأطروحته قائلًا: «الله خلق نوعين من البشر؛ نوع يوجد في الشمال خُلق ليسيطر ويقود النوع الثاني من البشر الموجود في الجنوب... لنا الحق كشعوب راقية في تمدين الشعوب الدنيا..

وكانت جلسة التصويت في البرلمان الفرنسي حامية الوطيس يوم طلب جول فيري منحة لفائدة الجيش حتى يقتحم إيالة تونس، فقد سرد لهم

السياقات والعناصر التاريخية التي تدعو إلى ضمّ تونس لمستعمرة الجزائر وصدح واثقًا: حضرة النواب الكرام، لقد تلقينا الضوء الأخضر من الدول الأوروبية إثر المؤتمرات التي عقدت حول المسألة الشرقية، فهذا «أوتوفان بسمارك» قد شبّه لنا تونس بالإجاصة النّاضجة وقد حان وقت قطافها، فإمّا أن نقطف أو ندع غيرنا ليقطف، فهل توافقون أن يفعل ذلك غيرنا على حدودنا الشرقية، ولقد دعانا وزير خارجية بريطانيا «اللورد ساليز بوري» إلى عدم ترك قرطاج بأيدي البرابرة، ونحن الفرنسيون الخارجون من هزيمة مذلّة، ألسنا في حاجة إلى استرداد هيبتنا بل إلى إنعاش اقتصادنا المتردّي؛ فالمستعمرات هي صمّام أمان اقتصادياتنا.

وأمّا عن الإجاصة فقد نضجت حتى التعفّن؛ إفلاس، وفساد، وفوضى حتى صرنا نخاف على حدودنا الشرقية والتي تكررت على مشارفها الهجمات وتهريب الأسلحة، وما قتْل الشاب من خمير التونسية الذي جدّ منذ أيّام قليلة سوى مؤشر حقيقي على ضرورة التدخل العاجل وإلحاق تونس بمستعمرتنا الجزائرية، فهل نتخلّف عن هذا القرار التاريخي؟ وهل نحجب المنحة التي ستخول لجيشنا دخول تونس؟

كان الخطاب حماسيًا أعقبته نقاشات حادة بين مؤيّد ورافض حسب الانتماءات الفكرية والسياسية للنواب، ولكنّ الكفّة رجحت لصالح أطروحة جول فيري المؤمن بالمركزية الغربية وبضرورة تبليغ رسالة التمدين للشعوب الدنيا من قبل الرجل الأبيض عن طريق القوة وجحافل العساكر.

ولم تمرّ غير أشهر حتى بدأت الاستعدادات لاستعمار مبطّن، وجعلت آلة الحرب تشحذ سيوفها في فرنسا، بينما آلة الدسائس والرّشاوي والضغوطات على محمد الصادق باي قد مرّت إلى سرعتها القصوى في

الإيالة التونسيّة؛ حتى يمضي على ما أسموه «معاهدة الحماية» تخفيفًا من ثقلها على سكان الإيالة، في حين كانوا يقصدون بها الاستيطان والاستعمار وضم تونس إلى مستعمرة الجزائر، يسيّرهم في كلّ ذلك عقل سطر خارطة التوسع خارج أوروبا بحثًا عن الأسواق، والثروات، واليد العاملة البخسة، وحسم أمره، وقد عبّروا كذبًا عن الرسالة التمدينية فلم يحملوا غير الذخائر، وما استعملوا غير القوة؛ يسندهم في هجمتهم المبشرون بالديانة المسيحية قصد فرض واقع مختلف، وطمس هوية الشعوب الشمال إفريقية، ومواصلة حربهم الصليبية التاسعة التي تكسّرت على أعتاب قرطاج.

توجّه الحكواتي إلى الحضور يستجلي رأيهم فيما حكى، وهل مازالوا مقتنعين بأنّه يحملهم شرقًا وغربًا حتى يتيه منهم التركيز وتنفصم عرى خيوط الربط؛ فقال منهيًا: لن أكفّ عن التحليق بكم في رحاب التاريخ مستغلًا ما سمحت لي به الجغرافيا؛ حتى تجيدوا فهم واقعنا المجهض من ماضينا، وأنّ مستقبلنا بلا وعي لن يكون بأيدينا.عمّ صمت من لا يعلم فلا يتكلّم. وأسدل الستار.

المقطع الثاني والثلاثون:
الفصل الخامس عشر:

ركح الحكواتي:

بدا الحكواتي منشرحا وهو يقلّب قطع الفحم الملتهبة في النّارجيلة وينثر في الهواء دخانًا مسترسلًا، ولمّا طال صمته صفّق أحد الحاضرين وقال: نعلم أنّنا قد أرهقناك وأغضبناك أحيانا، ولكنّنا استفدنا وتفتّحت أعيننا على ما لم نكن نعلم، وصرنا نعتقد أنّ المعرفة والوعي هما الأسّان اللذان تبنى عليهما الحضارات وتزدهر بفضلهما الأمم...

فابتسم الحكواتي وهو يستهلّ حكيه: ما صبرت على شغبكم إلاّ من أجل هذا الذي أسمع، فالمكابدة من أجل الهدف تُنسى حين تحقّقه، وكذا اعتقد الهادي الوشتاتي، هل تذكرونه؟

فقال شيخ أدام الجلوس في مقدّمة الحضور ولم ينقطع أبدًا عن المواكبة: إي والله، نشتاق إلى أخباره.

فاستأنف الحكواتي: عمل الهادي الوشتاتي في منجم التنقيب عن الذهب بجدّ يحدوه الأمل في الرّجوع ذات يوم إلى وطنه، لم تكسر المصاعب حلمه يومًا ولا هدّت إرادته المتاعب. وكان ما إن يختلي بأحد العمال حتى يغمره أسئلة حول إمكانية المغادرة، وأيّ السبل أجدى؟ كانت أسئلته تذهب أدراج الرّياح لضعف التواصل وعائق اللغة، حتى جالس ذات أمسية أحدهم وكان يتكلّم اللغة الفرنسية بعد أن أصبح الهادي الوشتاتي يتقنها بحكم الاختلاط، بادره قائلًا: تبدو منطويًا على نفسك لا تخالط العامة منّا، أيحرجك أن نتحادث؟

فأجاب هازّا رأسه علامة النفي.

الهادي الوشتاتي: أنا تونسيّ وقع اختطافي على الحدود الجزائريّة رفقة صديقي... الذي لم أره من يومها، كان الفرنسيون أشدّاء معنا وحكموا علينا بالتغريب المؤبّد، ذقنا في معتقل جزيرة الشيطان العذاب الوحشيّ ألوانًا، وما إن أطلقنا للعمل تحت طائلة المراقبة الإدارية حتى فررت مع الفارين، وأنا الآن أبحث عن سبيل للمغادرة لأيّ مكان يؤدّي بي إلى الوطن.

صمت محاوره برهة ثم تأفّف وقال: إنّه من العار على بلدي فرنسا التي كانت سبّاقة للثورات وتحبيرمراسيم حقوق الأنسان أن تتحوّل إلى قوّة طاغية ظالمة، أنا مثلك محكوم عليّ بالنفي في هذه الأرض المنبوذة، أنا سياسيّ حرّ شاركت في مظاهرة ضدّ الدكتاتور نابليون الثالث، ونشرت مقالات تدين أعماله الفظيعة ضدّ مناوئيه وممارسات عسكره في المستعمرات؛ فكان نصيبي النفي، ومثلك فررت تاركًا خلفي الغويان بعد أن أصبحت مقبرة للمنفيين.

وجد الهادي الوشتاتي أخيرًا من يفهمه ويحمل جرحه، وأصبحا صديقين، حتى كان ذاك اليوم الذي جاء فيه «هنري شولد» مستبشرًا وهو يقول: لقد حصلت على خيط قد يخرجنا من هنا.

صاح الهادي الوشتاتي متأثرًا: وكيف ذلك أنعش قلبي فقد اضطرب خفقانه لفرط حزني وذهاب نومي؟

تربّع هنري شولد تحت ظلّ الشجرة القريبة وبيده أحد أغصانها ثمّ أشار للهادي: سأرسم لك افتراضيّا الطريق الذي سنسلك لو عزمنا، نحن لسنا بعيدين عن حدود البرازيل، ويمكننا السير في هذه الغابة قرابة اليوم

أو أكثر، وعند المنتهى يرابط بعض القراصنة على ضفاف نهر «أويابوك» النهر الممتد على حدود الغويان مع البرازيل، وهناك تبدأ المفاوضات من أجل أن ينقلنا هؤلاء القراصنة إلى غابات البرازيل خفية...

كان هنري شولد يفسّر ويرسم المسار بينما الهادي الوشتاتي فاغر فمه وهو يستمع بكلّ جوارحه حتى قال هنري: هل نغامر سويّا؟ ولكنّ المغامرة لا تخلو من مصاعب أو مفاجآت طبعا.

قال الهادي الوشتاتي: هب أنّنا قد وصلنا، وأنّ القراصنة قد التزموا بالعهد، ماذا نصنع بغابات البرازيل؟ أليس نخرج من منفى إلى غيره؟ انتفض هنري شولد وعلا صوته: لن نبقى بالغابات، إن هي إلاّ مرحلة ننتقل إثرها إلى إحدى المدن ومنها إلى أيّ وجهة نريد.

قال الهادي الوشتاتي وبسمة تعلو شفتيه: هل نتمكّن يا هنري؟ وهل ما عندنا من مال يكفي؟ واسترسل يسأل...

ردّ هنري شولد: دعنا نلتحق بعملنا، أمامنا الوقت للتفكير.

بات الهادي الوشتاتي مفتّح العينين بذهنه أسئلة حرّيفة ألهبت كلّ جراحاته دفعة واحدة، ومرّ أمام ناظريه شريط من الذكريات المرّة وبعض الومضات الحلوة، رأى في يقظته خيال وريدة وأوهم نفسه بمحاورتها وهو يقول: ها أنّي في طريقي إليك لم تصدّني الأنهر العظيمة ولا المحيطات المرعبة، تحدّيت الجغوار في عرينه والحيّات القاتلات في جحورها، وركبت هدير الشلالات الجارفة لأجل عينيك فهما سكني بل هما وطني.. وأخذ الهيام منه كلّ مأخذ، ولم يستعد واقعه إلاّ على صوت هنري شولد وهو يهزّه هزّا: قم يا الهادي، سيغادر المركب لجلب المؤونة مساء اليوم، ويمكننا تقديم بعض المال لصاحبه مقابل نقلنا إلى ضفة نهر «أويابوك»، فماذا ترى؟

قال الهادي والحماس يشلّه: «سنرحل الليلة، نأخذ ما خف حمله ونرحل، قم بالترتيب لذلك مع صاحب المركب، أظنّه أفضل من قطع الغابات المطيرة بأهوالها وقبائلها المتوحشة أحيانا».

لمّا انساب المركب صاح الهادي الوشتاتي متذرّعا: كن معنا يا الله، يسّر طريقنا وقنا شرّه، ظلّ المركب يتهادى في نهر «ماروني» وقد بدأ الظلام يخيّم وعجّلت الغابات الكثيفة بانتشاره، فكانت أصوات الحيوانات والطيور داخلها تشكّل مزيجًا متنافرًا مفزعًا أحيانًا، حاول الهادي الوشتاتي تجاهل ذلك بتتبع سير المركب وما يعترض سبيله من عقبات جذوع الأشجار والأوراق التي تتقاذفها التيارات المائية، كانت المسالك المائيّة تتشعّب أمامهم؛ ولولا دراية صاحب المركب في اختيار الطريق الصحيح لتاهوا.

حين التفت الهادي ناحية هنري شولد وجده في حال من الهلع، وقد غطى عينيه حذر دوار الماء وهو يستذكر تجربته المريرة في سفينة الترحيل التي نقلته من فرنسا إلى الغويان.

فجأة توقّف صاحب المركب وهو يشير إلى نار مشتعلة على ضفّة النّهر ثمّ قال: إنّهم أفراد من قبيلة « الكاريب» يترصّدون المراكب بالسّهام، ولا خلاص لنا منهم إلاّ حين نلقي لهم ببعض الأطعمة والمال وقد استعددت لذلك، ثمّ انزاح نحوهم ليقذف بين أيديهم لفافة من لحاء الأشجار بها بعض ما يطلبون، ولم يتركوا سبيلنا إلاّ بعد التأكّد ممّا فيها، ثمّ علا الفرح قسمات وجوههم التي بدت مستنيرة بقبسات اللهب، وقاموا برقصة حول سامور النّار وهم يصدرون ولولات خلناها نواح المآتم.

وقبل بلوغ نهر «أوياباك» نبّه صاحب المركب مرافقيه قائلًا: نحن نقترب من تيارات مائيّة قويّة ترافق منبع النّهر ولكن اطمئنّا لخبرتي في

اجتيازها، وأنهى مقهقهًا وهو يضع لفافة تبغ ملأت شدقيه، وراح يجدّف مسايرًا حركة الماء، فانساب المركب سلسًا حينًا، مائلًا منتفضا أحيانا ترافقه صرخات هنري التي تشتدّ مع قوّة التيارات، حتى يكاد يلقي بجوفه على وجه الماء. نظر صاحب المركب إلى السّماء وهو منزعج ثمّ قال: ستهطل الأمطار؛ وهذا سيّء لتزامن ذلك مع ما نرى من تيّارات جارفة، وفجأة انسكبت قلل السّماء، وجعل المركب يهتزّ وينخفض ولم يصمد كثيرا؛ فانقلب ملقيًا براكبيه في جوف النّهر الهادر.

صباحًا كانت أشعة شمس وهّاجة قد اقتحمت ظلمة الغاب، فتّح الهادي الوشتاتي عينيه وهمّ بالوقوف فخانته قواه، كانت آلام مبرّحة تكتسح جسده، رفع الصوت مناديًا: «هنري، هنري»، فلم يسمع سوى صدى صوته، ابتأس وخاف الهلاك وحيدًا في أرض غريبة، ولكنّه قرّر التحامل على نفسه وتحدّي الآلام ومشى حذو النّهر بضع أمتار قبل أن تحاصره مجموعة من السكان الأصليين؛ وسارعوا به نحو خيام وسط الغاب، كانوا يجرّونه جرّا ويلهجون بأصوات لم يفقه منها شيئًا، وما إن بلغوا مضاربهم حتى تبيّنت له مجموعة من الخيام المنصوبة على شكل دائري مغطاة بسعف النخيل عمادها الخشب، وما لبثوا أن ألقوا به داخل واحدة منها؛ فإذا به يصطدم بجسمي هنري وصاحب المركب الذي عبّر عن فرحه لرؤية الهادي الوشتاتي بعد أن عدّه مفقودًا، في حين لم يحرّك هنري ساكنًا فقد كان إلى الموت أقرب.

تُرك الرّفاق الثلاثة ليوم كامل على ما هم عليه، وعندما حلّ المساء وسعّرت السوامير أمام الخيام حُملوا إلى رئيس القبيلة وقد عاد لتوّه وفريقه من صيد الأسماك والحيوانات البريّة وبدأ حفل الطعام. حينها فقط علم صاحب المركب من رئيس القبيلة أنّهم في ضيافة قبيلة «يانومامي» وأن لا خوف عليهم.

كانت شهور عسيرة في كنف حياة جديدة وغريبة عاشها الرّفاق وهم بانتظار الخلاص، كان الهادي الوشتاتي يتعجّب من رؤية النسوة اللاّتي يغادرن إمّا للصيد أو بحثا عن أعشاش النمل الأبيض وغيرها من اليرقات والضفادع؛ لتحميصها لاحقًا كوجبات شهيّة، ولكن ما أذهب عقله هو حضوره طقوس حفرت مثل كابوس أبدي في ذهنه، فبعد وفاة أحد الصيّادين مسمومًا حيث وقع لفّه في أوراق الشجر ووضع بالغابة، ولمّا استفسر صاحب المركب أجابه: نعم هذا من طقوس القبيلة، وهم بانتظار أن تستهلك الحشرات أنسجته الرخوة، ثمّ تجمع عظامه لتحرق.

صرخ الهادي الوشتاتي مذهولًا: لماذا؟

صاحب المركب: ستكتشف ذلك بنفسك، وختم مقهقهًا.

مرّ على حادثة رمي جثّة الصياد قرابة الشهر، وإذا بالعظام قد حرقت وطحنت، وإذا النسوة يسارعن لإعداد حساء الموز بعد أن مزج برماد العظام، وإذا أفراد القبيلة يقبلون على الحساء بشهيّة مفتوحة. وإذا الهادي الوشتاتي وهنري شولد قد قاربا الغثيان وهما يريان صاحب المركب مقبلًا مع الجمع على احتساء الحساء.

قال هنري في ذهول: منذ أيّام مررت بعشّة نائيّة وإذا حركة داخلها، راقبت عن بعد وإذا عجوز بصدد إطعام فتاة عن طريق عصا، والفتاة حليقة الرأس وقد رسم عليه شعار القبيلة بعد أن طلي جسدها بالسواد، لم ألبث طويلًا حتى لا أعدّ منتهكا لطقوس القبيلة.

ضحك صاحب المركب وهو يعلّق: تلك الفتاة قد أصبحت بالغًا، وستراها بعد أيّام وهي تقفز على النار المشتعلة إيذانًا بأنّها أصبحت مؤهّلة للزواج... وختم: دعكما من هذا، وفكرا معي كيف نخرج بعد أن فقدنا متاعنا ومالنا؟

قال هنري يائسًا: هل نعود إلى منجم الذهب حيث كنّا؟

قال الهادي الوشتاتي: لن نرجع على أعقابنا أبدًا، ألم تخبرنا يا «فويا» بوجود المزيد من المناجم خلف هذه الجبال، فلنجرّب حظّنا. ولمّا عزموا فوجئوا ليلًا بمرض هنري وارتفاع حرارته حتى الهلوسة، خارت قواه وأوشك أن يفقد وعيه؛ فسارع «فويا» صاحب المركب يطلب الغوث، وما هي لحظات حتى أقبل كهل مكلّلًا بتاج من الريش، تتدلّى من رقبته سلاسل الخرز الملوّن، وبيده طبل يقرعه. كان رصين المشية خاشع النظرات، وما إن اقترب من هنري حتى انطلق لسانه بما لا يفهم، وجلس قبالته وهو يطلب أسماء الموتى لعائلة هنري حتى يستحضر أرواحهم، وانطلق في غناء جنائزي وولولة إلى أن بحّ صوته، ثمّ سكب محلولًا في فم هنري وغطّي له جسده بأوراق الشجر الحامي، ولم تنقطع ولولته وهو يغادر مشيرًا إلى السماء بيدين تخفقان كجناحي نسر.

فقال الهادي الوشتاتي: من هذا؟ وهل يجدي صنيعه نفعًا؟

ابتسم «فويا» وهو يجيب: إنّه «الشامان» صاحب القوة ومالك القدرة على الإشفاء عن طريق تحضير الأرواح، ألم تر أنّه تواصل مع الموتى، لقد كشف عن خلل لدى هنري؛ فقد ضعفت نفسه البشرية وتأثر جسمه لذلك، وقام الشامان بالمطلوب كي يعيد له التوازن مع القوى الكونية الشاملة.

لم يمض سوى أسبوع حتى كان الرفاق يستأذنون رئيس القبيلة في المغادرة بحثًا عن حلّ لما وقعوا فيه، شاكرين لطفه معهم، ثمّ اتجهوا جنوبا ليقطعوا جبال «هاماك» والغابات المطيرة؛ حيث أخبروا بوجود مناجم الذهب وحاجة أصحابها إلى المنقبين.

المقطع الثالث والثلاثون:
الفصل: السادس عشر:

رُكح الحكواتي وكان خافت الإضاءة.

قال بصوته الجهوري: لمّا يوغل المرء في قراءة التاريخ يمتلك حصانة ضدّ الموت الفجئي؛ لأنّه يموت بين الصفحات مرّات، وينجو من الزهايمر؛ لأنّ ذاكرته تتحوّل إلى شلاّل دائم وبركان نشيط.

ثمّ تنحنح وهو يستأنف: اليوم ألقي بكم مجدّدا في جحيم تونس.

قاطعه الشيخ الجالس أمامه أبدًا: نعوذ بالله، ما هذا يا أخانا؟ نحن نمشي على صراطها زقفونة في حاضرنا الذي نعيش، فهل جحيم الماضي كان أشدّ؟

قهقه الحكواتي على غير عادته وهو يردف: لا فرق بين هذا وذاك سوى أنّ الوعي الرّاهن بنزين مُضاف يؤلّب الحرارة في قلوبنا؛ فنشتعل بالكتابة أو بالحكي كما أفعل، رغم أنّ القافلة تسير ولا تولي لما نفعل اهتماما.

قال الشيخ: بل القافلة مُسيّرة ولا علاقة لمن يقودون بالمقود، تمامًا كلعبة إلكترونية مبرمجة؛ يعتقد الصبيّ أنّه يتحكّم بسيرها، ولكن في الحقيقة هناك عقل قد برمجها، نحن بلا عقول، والذي امتلك عقلًا سُحب إلى ضفة غير ضفّتنا.

سرت همهمة لدى الحضور تستعجل الحكواتي بعيدًا عن مهاترات الشيخ، فقال الحكواتي: منذ عهود كنّا آذانًا نابتة خارج الجماجم، وجماجم تبرّأت من أجسادها، وأجسادًا مرعوبة من عوراتها تبحث كيف تغمرها في النسيان. النسيان لدى الأجيال مخدّر فعّال؛ وقد رُمتُ بهذا الحكي إبطال

مفعوله حتى نتعرّى جميعنا، ولا نعود للستر إلاّ باسترجاع عقولنا أوّلًا، فلا فرق بيننا والمجاذيب يمشون في الشوارع كما يشاؤون، ويتبرّزون تحت الحيطان وهم يضحكون، ويأكلون من القمامة، ألسنا نفعل ما يفعلون؟ وما يفصلنا عنهم سوى هذه الأثواب نكْبُت داخلها أجسادنا حتى نُعدّ بشرا، أنحن فعلًا من البشر؟

انكبّ أحد الحضور على الشيخ وكان يحاذيه وهو يقول: ألا ترى أنّ الحكواتي الليلة قد سكر فذهب عقله وبلغ به الهذيان إلى دعوتنا للتعرّي؟

ضحك الشيخ في سرّه وربّت على كتف السائل قائلًا: فعلًا نحن في حاجة إلى التعرّي حتى نقف على عوراتنا، وليس بالضرورة أن ننزع أثوابنا؛ بل أن ننزع غشاوة ظلّت تسمُك وتسمُك حتى غدت زبرًا من الحديد، والحكواتي يريدنا أن نتخلّص من أدران قديمة أودت بحاضرنا وتهدّد مستقبلنا، هل وعيت؟

السائل في حيرة: ربّما ربّما...

الحكواتي وقد أحسّ بضجر الحاضرين: قلت هذا لأنّ غشاوة بحجم السماء غطت عيون أهل تونس، وإلاّ كيف يرتقي نادل خمّارة وصبيّ الحلاّق الأعور القادم من عالم الشواذ والمجّان ليدخل سرايا الباي بمؤخرته، هل سمعتم بمؤخرة تحكم؟

قال صوت قابع في آخر الصفوف: الأنصاف السفلى سادت ومنذ عهود عندما غابت العقول.

سرت وشوشة بين الحضور وضحكات مكبوتة ردّدها بعضهم: «مصطفى بن إسماعيل هو المقصود»، ولكنّ الحكواتي واصل داعمًا لما قيل: «إي والله لقد تمكّن مصطفى بن إسماعيل من قلب محمد الصادق باي فأسلم له القياد؛ حتى

راود هذا المتسلّق حلم ولاية العهد بعد أن وسوس له القنصل «روسطان» بذلك قائلًا: «نفّذ ما نطلب، وسنوليك العرش بعد وفاة الباي، فوضع بن إسماعيل نفسه الوضيعة تحت إمرة القنصل، وتكوّن وفاق إجرامي ضمّ: إلياس موصلّي وزوجته لوجيا، وعلالة بالزاي، وثلّة من السماسرة والجواسيس ينفذون مخطط روسطان الرّامي إلى احتلال تونس مقابل رشاوٍ ووعود بالسلطة. فكانت خطابات «جول فيري» الداعية إلى توسيع المستعمرات تجد صداها لدى روسطان والجالية الفرنسية التي أصبحت تدعو جهرًا بإلحاق تونس بالجمهورية الفرنسية بعد أن حصلوا على امتيازات أكثر من أبناء البلاد، وكشر المبشرون عن حقدهم الديني، وبات لهم رأيهم في المسألة فلم يتأخر الكاردينال «»لافيجيري « عن إسناد بني جلدته؛ رغم أنّ السلطة الدينية قد وقع تحييدها في فرنسا عملا بقوانين فيري. ثمّ صمت برهة قبل أن يترك الركح واعدًا بالرجوع قريبا.

ركح البايات:

(محمد الصادق باي، مصطفى بن إسماعيل، إلياس موصلّي المستشار بوزارة الخارجية)

محمد الصادق باي: بلغنا أنّ فرنسا تحشد جنودها على حدودنا في الشمال الغربي، ألم آمر بضرورة تأديب قبائل خمير لما سبّبته من اضطرابات؟ ولماذا يرسل الحاكم العسكري بالجزائر إلى مدننا جحافل من الأسر الجزائرية؟ جاءني أهالي بنزرت يتذمرون من تدفّق الجزائريين وانهماكهم في شراء المساكن داخل الأحياء، و نازعوا السكان موارد رزقهم وعاملوهم باستعلاء.

مصطفى بن إسماعيل: لا أدري ما غاية الفرنسيين من التشجيع على هجرة الجزائريين إلى مدننا، ولكن بخصوص أوامرك بتأديب قبائل خمير؛

فقد قام علي باشا باي الأمحال بالمطلوب مصحوبًا بالمشاة والخيالة، وقد أعاد الأمن ونزع فتيل التوتر.

محمد الصادق باي: لقد أعلنت لهم أيضا استعدادي لدفع الغرامات، ماذا يريدون أكثر من هذا؟ التوترات بين القبائل التونسية والجزائرية على الحدود ليست وليدة اليوم، فما خطب فرنسا؟ إنّي أشمّ رائحة غدر.

إلياس موصلّي يهمس لمصطفى بن إسماعيل: بادر بطرح ما جئنا من أجله.

مصطفى بن إسماعيل مترددًا وهو يتوجه للباي: سيدي الباي أدام الله ملكك، قد يلين الجانب الفرنسي لو أمضيت معاهدة تحمينا وتحمي مصالح فرنسا، فربما تنطفئ فتائل الفتن هذه.

محمد الصادق باي: وهل يوجد اتفاقيات أخرى لم نوقّعها؟ وهل يوجد امتياز وحيد لم تتحصّل عليه فرنسا دون غيرها من الأمم؟

إلياس موصلّي طالبًا الإذن بالكلام: سيدي الباي الموقر، إنّ الصراع بين هذه البلدان الأوروبية على أشدّه؛ انجلترا، وإيطاليا، وألمانيا، وغيرها، وأظنّ أنّ مصالحنا مرتبطة بفرنسا أكثر، إنّكم ترون على مستوى الاقتصاد ماذا أنجزت الجالية الفرنسية من مشاريع هامة؟ ونحن والحال هذه قد تسقط عنّا فرنسا ديونها، فليكن بيننا عهد أو ما شابه يجعل من فرنسا راعيةً لنا..

محمد الصادق باي منفجرًا في وجه إلياس موصلّي: راعية، راعية والمعنى يا مستشار خارجيتنا؟

إلياس موصلّي: العفو سيدي الباي، أعتذر إن لم أتمكن من حسن اختيار العبارة.

ركح الحكواتي:

قال الحكواتي: وانفض اللقاء على غير توافق، وظلّ القنصل الفرنسي يضغط على مصطفى بن إسماعيل مزيّنا له ما ينتظره مستقبلا من سؤدد؛ حتى سكن هذا الأخير رأس الباي، وجعل يصبّحه ويمسّيه على ضرورة إفراد فرنسا بمكانة خاصّة من خلال اتفاقيّة تخوّل لها مزيدًا من الصلاحيات، والباي ينكر ذلك.

ولمّا علم «روسطان» بتلكؤ الباي لجأ إلى الأموال يغري بها نهم مصطفى بن إسماعيل غير المحدود؛ فمدّه بآلاف الملايين من الفرنكات قائلًا له: لا أنتظر منك سوى موافقة الباي على إمضاء معاهدة الحماية، وترقّب منّا توليتك العهد، وإن فشلت، يوجد من هو مستعدّ، لا تترك صبرنا ينفد.

كانت رسالة التهديد هي الظرف الذي أودع فيه روسطان تلك الآلاف من الفرنكات، واستوعب مصطفى بن إسماعيل الدرس جيدا فراح للباي توّا.

ركح البايات:

(محمد الصادق باي، مصطفى بن إسماعيل)

مصطفى بن إسماعيل وهو يتصنّع خوفًا على مصير المملكة التونسيّة: سيّدي صرت أتحاشى الجلوس في مكتبي لفرط المراجعين المطالبين بديونهم، وقد وصل بهم الأمر إلى التطاول عليّ وعلى حضرتكم.

محمد الصادق باي: بتّ لا تجلب معك غير الأخبار التعيسة، ما بيدي حيلة، بم تنصحني؟ دبّر يا وزير، رحمك الله يا مصطفى خزندار، كنت تحمل أعباء المملكة على عاتقك ولا تتذمّر... لقد رفع عنّي الكلفة طوال سنوات لولا خيبة طبعه، آه يا زمن، لقد فارق الدنيا دون أن يستمتع بتلك الأموال. أمّا أنت يا مصطفى، فما برعت سوى في المخدع، والقيل والقال.

أسرّ مصطفى بن إسماعيل في نفسه غضبًا كبيرًا ثمّ قال: سيدي الباي أدام الله جلوسك على عرشك، لا أخفيك سرّا حول وضعنا الدقيق في المالية، نحن مفلسون ولا أحد يقبل بإعانتنا أو إقراضنا، مصالحنا تعطلت... غير أنّ الحلّ ممكن لو وافقت على إمضاء معاهدة الحماية، فالقنصل «روسطان» وعدني بخير عميم في انتظارنا.

محمد الصادق باي: تقصد الاحتلال كالذي حدث للجزائر.

مصطفى بن إسماعيل: وما الذي كان سيمنع فرنسا من أن تفعل بنا مثلما فعلت بالجزائر، ولكنّ الأمر مختلف.

محمد الصادق باي: الحماية؟! هههه.... هل رأيت ذئبا حمى ضأنًا؟ هؤلاء ورّطونا، وأضعفونا، وانسقنا خلف شهواتنا حتى ضاعت المملكة.

مصطفى بن إسماعيل: إنّ القنصل الفرنسي قد خيّرنا بين أمرين؛ إمّا إمضاء المعاهدة، أو دخول فرنسا عنوة، وهؤلاء سيدي الباي لا يعبثون، فهل لنا قدرة على ردّ العدوان؟ عسكرنا بلا أسلحة ولا تدريب، وأعدادهم في نقص، وما أدراهم أن يخلعوك ويضعوا واحدًا من إخوتك مكانك؟

انتفض محمد الصادق باي وهو يقول: مستحيل، هذا العرش لي ولن يفتكّه منّي غير الموت، اغرب عن وجهي وإلاّ أمرت السيّاف بقطع رقبتك. ثمّ نادى بأعلى صوته: ليحضر إلياس موصلّي مستشارنا حتى أتبيّن حقيقة التهديدات الفرنسيّة.

يلتحق إلياس موصلّي بركح البايات مرعوبًا: ما بال سيدي يزمجر؟

محمد الصادق باي يواصل صراخه: كيف يصل الأمر بفرنسا إلى تهديدنا ولا تخبرني؟

إلياس موصلّي: اعتقدت أن الوزير الأكبر قد أخبرك، لقد فوجئنا بتلك اللغة القويّة التي خاطبنا بها القنصل «روسطان»، فقد خيّرنا بين أمرين.

محمد الصادق باي مقاطعًا: اغرب عن وجهي أنت أيضا، خونة، جميعكم أصبحتم تأتمرون بأوامر القنصل وبعتم المملكة.

يسدل الستار على ركح البايات ليظهر الحكواتي وهو في حال فزع.

ركح الحكواتي:

الحكواتي معلّقا: أحيانا يكون الصحو متأخرًا، لم يتفطن الباي إلى ضياع المملكة إلاّ بعد فوات الأوان؛ فقد تمكّن «جول فيري» من كسب الأصوات إلى جانبه بخصوص ضمّ الإيالة التونسية إلى مستعمرة الجزائر، وصدرت الأوامر باستعداد جيوش البر والبحر للقيام بمهامهم. في حين ظلّ جول فيري يدافع عن نظام الحماية الذي يقترحه ويراه الحلّ الأمثل، فإدماج الإيّالة يعفي فرنسا من إثقال كاهل ميزانيتها بمصاريف إنشاء إدارة فرنسية بتونس، كما يجنّبها الدخول في نزاعات أو خلافات ثقافية وحضارية مثلما وقع بالجزائر عشية الإنزال وتأليبه لمقاومة الأمير عبد القادر التي كبّدت فرنسا خسائر كبيرة، مذكرًا بأن خسارة حرب بروسيا أثرت على قدرات فرنسا الحربية.

وقد كان التنسيق بين «جول فيري ووزرائه والقنصل روسطان» على أشده عندما اقترح هذا الأخير على وزير الخارجية الفرنسي أن يستهلّ نظام الحماية باحتلال بعض النقاط الاستراتيجية؛ لضمان الوجود الفرنسي بتونس، ثم يتمّ إخضاع الباي للسلطة الفرنسية وتجريده من كلّ سلطاته لاحقًا.

المقطع الرابع والثلاثون:
الفصل السابع عشر:

ركح الحكواتي: (وكان الحكواتي متأثرا وهو يردّد: كأن شيئا لم يتغيّر بعد مئات السنين، فقد ظللنا ندور في حلقة البؤس والقهر والاستبداد)

كان فصل الرّبيع من سنة ١٨٨١ يودّع سهول المملكة التونسيّة وسهوبها، يعتذر لشحّ أوديتها وغياب الفراش على نوّارها، يهمس في آذان حقولها الجرداء بانتظار الغيث فقد يأتي في غير زمانه معجزة من السّماء، وظلّ يلوّح لأسراب السنونو التائهة بعيدًا عن أعشاشها ويذرف دمعا سخيّا على غير ما تعوّد، ثمّ يتوجّه إلى المقابر المتناثرة على الرّوابي بالدّعاء...

شهر أفريل اشتعل ذاك العام قبل حلول الصيف؛ وكأنّما يهيّئ النّفوس للبارود القادم من الشمال. الشمال الذي غُدر ذات فجر ربيعيّ بقوات فرنسيّة تجتاز الحدود التونسيّة؛ لتحتلّ الكاف ثمّ طبرقة، وتتوغّل في قلب البلاد.علم الباي فاشتدّ غضبه، غير أنّ مصطفى بن إسماعيل قال مطمئنًا الباي: «سيدي، هؤلاء لا يلبثوا أن ينسحبوا؛ فقد دأبوا على اجتياز حدود المملكة لتأديب بعض قبائل خمير.

وصدّق الباي على مضض الادعاء وهو يعلّق: ولكنّهم توغّلوا هذه المرّة على غير العادة، منذ أيّام كنّا نؤدب تلك القبائل، قلبي غير مطمئنّ يا وزيرنا»، وعاد ينغمس في أفيونه وخمره.

ركح البايات:

(يغادر مصطفى بن إسماعيل على عجل، ويبقى الباي وحيدًا مع الحاجب)

ظلّ الباي وحيدًا يجلس على كرسيّه مهمومًا بانتظار الضابط الذي أرسل إلى بنزرت لاستجلاء الأمر، وفجأة انفجر صارخًا: لماذا تأخّر الضابط؟ لقد غادرنا منذ الليل، نريد معرفة الحقيقة من الإشاعة.

الحاجب في ركنه خائفًا وبصوت خفيض: ضيعتم المملكة، وقريبا يدخل «الرّومي» ليستبيحنا.

سُمعت جلبة بجانب الرّكح، وإذا الضابط مهرولًا نحو الباي لا يكاد يستردّ أنفاسه: كلّ ما وصلنا سيدي الباي صحيح، فقد دخل بحرًا الجنرال «بريار» بنزرت وبعض المدن الشمالية، وقد أعلمنا بعض جندنا أنّه يستعدّ للتوجه للجديْدة؛ حتى يلتقي القوات الفرنسية البريّة بقيادة «فرجمول» و«لوجرو» بمجرى وادي مجردة.

محمد الصادق باي مصعوقًا: يا للهول، يا للهول كم هم مخادعون هؤلاء الفرنسيون، جيؤوني بابن اليهودية الذي ظلّ يفرش لي السرايا ورودًا ويطمئنني حتى وقع الفأس في الرّأس. لم يمض على الاجتياح البرّي أسبوع حتى غزوننا بحرًا. تُرى من يؤدّبون في بنزرت؟ لقد خدعني ابن اليهوديّة، أعتقد أنّه على علم فغادرنا مسرعًا اليوم، جيؤوني به من تحت الأرض.

(وكان مصطفى بن إسماعيل في ذاك الوقت بصدد مكاتبة جميع الجهات التي يريد العسكر الفرنسي أن يدخلها؛ طالبًا عدم اعتراض الجيوش الغازية، منفّذًا توجيهات القنصل «روسطان» حرفيّا).

صاح محمد الصادق باي في الضابط مجدّدًا: وهل في جندنا من تصدّى للجنرال « بريار» أو لا حقه؟

الضابط: نعم سيدي الباي، وقعت مراقبته عن بعد، إلاّ أنّه لم يمكث طويلا بالجديدة واتجه نحو تونس، وهو الآن مرابط على بعد ميلين من السرايا.

تزامن دخول مصطفى بن إسماعيل مع حالة الهستيريا التي سيطرت على الباي وهو يرغو: سنعلن الجهاد المقدّس بالمملكة، أين قادة الجيش؟ أين العسكر؟

مصطفى بن إسماعيل: أخشى أنّنا لا نقدر على المواجهة سيدي الباي، فجيوش فرنسا تمكّنت من الاستيلاء على عدة ثغور.

محمد الصادق باي: اصمت يا منافق، لم تصدقني القول، وظللت تزيّن لي الوضع، وتمجّد لي الكلب روسطان؛ حتى أحاطوا بقصري ونفذوا لمملكتي.

مصطفى بن إسماعيل: والحال كما ترى علينا توخي المداراة والبحث عن حلّ سلمي يرضي الطرفين دون اللجوء إلى القتال، نحن إزاء فرنسا سيدي الباي.

الحاجب راكضًا نحو الباي: القنصل روسطان قادم سيدي الباي.

هبّ محمد الصادق باي واقفًا وغيظا يمزّق تقاسيم وجهه: ما الأمر؟ لا موعد بيننا...

القنصل روسطان: عمتم مساء جلالة الباي، جئت أخبركم بقدوم الجنرال «باريار» بعد حين للتفاوض حول مسألة هامة.

محمد الصادق باي منتفضًا: هذا السلوك ينافي بروتوكول اللقاءات...

(لم ينه الباي كلامه حتى كان الجنرال «بريار» ممتطيًا صهوة جواده أمام قصر سيدي زروق؛ مرفوقًا بأركان حربه وضباط جيشه والخيالة «شاسور دافريك»، فما كان من الجنود التونسيين إلاّ أن أدّوا التحيّة العسكريّة للجنرال وهم في حال من الصدمة.

الجنرال «بريار» بعد أن أدّي التحيّة للباي: الجمهورية الفرنسية صديق حقيقي لمملكة حضرتكم، ونحن نرمي للوقوف معكم وحمايتكم، ونرجو أن يتمّ التوقيع على المعاهدة (مشيرًا إلى المعاهدة بيدي القنصل روسطان)

محمد الصادق وقد أسقط في يده: أيّ معاهدة؟ كيف نوقع على ما لم نطلع ولم نناقش مع مجلس حكمنا؟

الجنرال «بريار»: نمهلكم بضع ساعات فحسب، سنكون حذوكم في الانتظار.

مصطفى بن إسماعيل موشوشًا في أذن الباي: سيدي الباي، أنصحك بتوقيع المعاهدة قبل فوات الأوان، لقد أبلغني القنصل منذ حين أنّ هذه القوات مستعدة لتنحيتك وجلب أحد إخوتك للتوقيع، تصوّر العاقبة، حافظ على شرفك بل على حياتك، ولا تهرق دماء الرعية، وقع واخلص، وستكون بايًا مكرّمًا بيدك كلّ سلطاتك، ما جاءوا إلا لحمايتنا.

تململ الباي مرغمًا ومذعورًا: سأوقع على أن أشير أنّ الأمر كان تحت ضغط القوة.

المقطع الخامس والثلاثون:
الفصل الثامن عشر:

ركح الحكواتي:

وقف كارم الحكواتي مسندًا ظهره إلى الجدار على غير عادته ثمّ قال: إجلالًا لسكّان تونس الذين قدّموا ويقدّمون دماءهم مهورًا وقرابين من أجل عينيها الخضر لن أتخذ مجلسي اليوم وإن بدا الحكي مختصرًا؛ فلأنّ مقاومة الشعوب لا يمكن حصرها مطلقا لا في المكان ولا في الزمان.

واسترسل: ما إن انتشر خبر توقيع الباي على «معاهدة الاحتلال» حتى زلزلت المملكة من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها، عصفت الصحاري، وحملت الأودية، وتزعزعت الجبال، وهبّت القبائل والعروش، وعُقدت المجالس، وطفر الحماس، وقامت الضجّة، وانطلقت الصيحات من كلّ حدب وصوب تنادي بالثورة والجهاد وطرد «الرّومي» ومعه الصادق باي بائع البلاد، واندلعت مقاومة عنيفة للجيوش الغازية في كلّ شبر من المملكة، مثل معركة بن بشير، ووادي لايا، ووادي الزرقة، وجربة، وجرجيس، وصفاقس، وقابس، غير أنّ أوّلها وأشرسها كانت معارك خمير؛ كمعركة المنكورة بأولاد سدرة، وماكنة بمنطقة وادي الزان.

سأل غرّ صغير لم يتجاوز العاشرة من عمره: وهل سحقوا الجيش الغازي مثلما أرى في الألعاب الإلكترونيّة التي أحبّها؟

تنهّد كارم الحكواتي وهو يقول: أرأيتم كيف تجهل الناشئة تاريخ الوطن وتطلبون حبّهم له، أيّ عبث؟

وأكمل: نعم لقد وقفوا بشجاعة لا مثيل لها، وكبّدوا الجيش الفرنسي خسائر لم يتوقعها، ولكن هل تصمد بنادق الصيد والأسلحة البيضاء والهراوات أمام المدافع؟ وهل ينتصر شتات مخذول من سلطته المركزية التي لم تعتبره غير رقم في الجباية على جيش منظم أحسن المناورة وخطط لها منذ عشرات السنين، فشلوا في النهاية يا أخي، وبسط الاستعمار كامل نفوذه على الإيالة التونسية، وعمد إلى التنكيل بالمواطنين؛ فاستحوذ على الأرض، وانتهك العرض، وحرمهم من أبسط مرافق العيش، وانتقلوا من عبودية الباي إلى عبودية فرنسا، وامتلأت السجون والمنافي بالوطنيين الأحرار.

وكان ولع المستعمر الفرنسي بنفي المعارضين بالجزر منذ أمد بعيد، تعددت المنافي داخل الوطن السليب بجزر قرقنة وجالطا، وسيق الأكثر خطرًا إلى جزر بعيدًا عن الوطن؛ فحطّ المنفيون بكاليدونيا وسانت مارغريت وغيرها.

فصاح أحد الحضور: «سانت مارغريت» أليست هي الجزيرة التي رُحّل إليها العربي بوزيان صديق الهادي الوشتاتي؟

ابتسم الحكواتي وهو يثني على المتدخّل: بالضبط يا لذاكرتك يا أخي.... إيه يا جماعة لو تدرون منفى جزيرة «سانت مارغريت» وما مورس فيه؛ لطار نومكم لليال.

ضجّ الحضور: «احك لنا»، نريد التعرية كما ذكرت سابقًا.

قال الحكواتي مستجيبًا: كان المنفى بجزيرة «سانت مارغريت» الواقعة في البحر المتوسط قبالة مدينة «كان» الفرنسيّة من أكثر السجون حماية وبرودة وعزلة، وفيه حُشر المئات من الفرنسيين والجزائريين والزنوج الأفارقة، وكلّ من ثار من سكان المستعمرات الفرنسيّة أو عارض حكومات فرنسا من مواطنيها.

لمّا ألقي في منفى سانت مارغريت «العربي بوزيّان» الجزائري صديق الهادي الوشتاتي منذ سنوات كانت الجزيرة قد استقبلت قبله مجموعة من قادة الأمير عبد القادر وعائلاتهم وقد نفوا إثر المعارك، ولم تستطع جزيرة «سانت مراغريت» ذات الطبيعة البكر الخلاّبة أن تنسيهم منابتهم أو العزلة وسوء المعاملة التي وجدوا أنفسهم فيها، مرّت سنوات كادت تودي بحياة العربي بوزيان، فازداد نحافة واستوطنت جسمه أمراض جعلت حركته وئيدة وسعاله لا ينقطع، وبينما كان في يوم من الأيام جالسًا يستمرئ أشعة الشمس؛ إذ لفت انتباهه حركة في ميناء الجزيرة بعد رسوّ سفينة وكانت معبّأة بشرًا أخذ الحرّاس يسوقونهم نحو سياج خشبيّ لتثبيت هويّاتهم قبل الزجّ بهم داخل الحصن، فقال في نفسه: «ألن تشبع هذه المنافي؟ ألن تكفّ فرنسا عن سطوتها وجبروتها ضدّ الشعوب المستضعفة؟ « ثمّ سارع بالدخول إلى الحصن ليستجلي الخبر.

وشرع من كوّة صغيرة في جدار الحصن يراقب دخول المنفيين الجدد، وجوه مرهقة وأجساد معنّفة، أسمال بالية وآمال ضائعة، وفجأة صرخ: أليس هذا الهادي الوشتاتي صديقي التونسي؟ أم تراه قد خدعني بصري بعد أن أذبلته ظلمة الزنزانة؟

وعندما حانت فسحة المنفيين في بهو الحصن ظلّ «الهادي بوزيان» يتفرّس في وجوه القادمين إلى أن عثر على الهادي الوشتاتي وكان اللقاء أشبه بالحلم، بل أسطورة مستحيلة؛ فقد عمد المستعمر إلى تفريقهما على قارّتين إمعانًا في التنكيل وقطع كلّ أواصر الأخوة والصداقة، ظل الصديقان يتعانقان ويبكيان دون أن ينبس أحدهما بكلمة، حتى كان الليل جلسا يتبادلان عجائب ما حدث ومعاناة الرحلة وغبن النفي.

قال العربي بوزيان معلّقًا على ما روى صديقه: لا أصدّق أنّك تمكّنت من الهروب من «الغويان»، إنّها مغامرة كالخرافة، وأنّك تحمّلت كلّ تلك المشاق دون يأس حتى دخلت إلى البرازيل وما أبعدها عنّا، وامتلكت تلك الشجاعة لترحل مع سفينة القراصنة، يا لهول ما مرّ بك.

ولكنّ الهادي الوشتاتي ردّ ورعشة قد تلبّست حنجرته: لا يا صديقي، كلّ ما مرّ كان لعبة صبيان، أمام ما حدث لحبيبتي وريدة. ثمّ صمت لساعات، فشرع العربي بوزيان يسرد له كيف قضّى تلك السنوات في هذا المنفى منزاحًا به حتى تطمئنّ نفسه.

قال: كنّا خليطًا من المنفيين قاسينا برودة جمّدت فينا الحياة، أكْلُنا قليل ولا نفع منه، عشنا عزلة قاتلة أصابتنا الكثير من الأمراض وخاصّة داء الطحال، وجُنّ الكثير من قبيلتكم «الخمير» كما أطلق عليهم السجانون، ولقد وصلت الدناءة بفرنسا أن تعرض بعضهم على العامة لإثبات وجود أسرى حرب حقيقيين، هم من كانوا سببًا في احتلال تونس، لقد وظفوهم في معاركهم السياسية دون اعتبارهم من البشر، وتحوّل أهالي خمير إلى ما يشبه الأسطورة، وقع تضمينهم في بطاقة بريدية عنوانها سجناء خمير حملة تونس ١٨٨١، فقد زارنا المصور الفرنسي «جان جيليتا» لأخذها، وحدّثنا بعض الحراس عن وجود لوحة لرسام اسمه «هنري زوبير» على ما اعتقد بعنوان «خميريون في جزيرة سانت مارغريت، ظلّ ملتصقا بهم لأشهر ولم يغادر إلاّ عند إنهاء اللوحة، لقد اشتهرتم يا الهادي، وها أنّك تلتحق بالمجموعة بعد سنوات من احتلال تونس، ولكنّك الأشرس دون منازع، ظلّ العربي بوزيّان يهذي مخفّفا عن صديقه المصدوم ممّا حدث لحبيبته وريدة حتى انبلج الفجر.

كان الهادي الوشتاتي يستمع وشرود قاس يذهب بذهنه؛ فكان العربي بوزيان يحاول أن يرجّه بواقعة ما علّها تصدمه فيعود إلى وعيه كما عرفه منذ سنوات، قال له: لقد حاول الحراس إفزاعنا بخرافات واعتقادات يتهيّبون لها؛ فكثيرًا ما حدثونا عن الرّجل ذي القناع الحديدي وهو كما اعتقدوا أخًا غير شقيق للويس الرابع عشر، نفي بهذه الجزيرة وحيدًا لفضائحه السياسية والأخلاقيّة، وأنّ روحه الشقيّة استبدّت بهذا المكان وجعلت ترسم وجه السجين المقنّع في أماكن متعددة، ومن اكتشف الرسوم رُمي بلعنة أبدية، كنّا لا نهاب خرافاتهم فيستغربون، بل فيهم من يصاب بالرعب لو كلّف بمهمّة ليليّة ويلجأ إلينا لمرافقته، إنّهم جبناء ومهزوزن لولا هذه الأسلحة الفتاكة بين أيديهم، تصوّر يا الهادي أنّهم حوّلوا هذه الجزيرة إلى منتجع سياحي، وكان السياح يزورون سجننا لمشاهدتنا وكأنّنا تحف أثريّة، وكانت الإدارة تنظّم لهم مسابقات للصيد وتدعو أفرادًا من سجناء خمير ليحاصروا الطرائد كي يسهل على المشاركين صيدها، وتنهّد: هذه فرنسا الأنوار يا الهادي...

قال الهادي الوشتاتي وقد بدأ يستعيد رشده: كيف قضيتم هذه السنوات؟ أرى الجزيرة على جمالها مملّة، والمساجين في رتابة قاتلة.

قال العربي بوزيان: مرّت سنواتنا مثل جبال من الهموم، نعمد للدردشة، وفينا من جعل الصلاة ملجأه أوالانغماس في التأمل، كنّا نتابع حركة الشمس نستجدي حرارتها ونحن نرتجف من البرد، فهذه البرانيص كما ترى قد بليت ومعاطفنا قد تخرّمت وحتى تلك الملابس البيضاء التي قدموها لنا سرعان ما اهترأت فكأنّما يرومون قتلنا بردًا، جمّد الحزن مشاعرنا، وما فتئت أبصارنا معلّقة بالسحب الخفيفة التي يحملها النسيم نحو الوطن.

لقد ظللنا بالنسبة إلى فرنسا أدوات زينة يستخدمونها فقط لإثبات وجود معارضين لاحتلالهم... لا فرق بين ما صنعت فرنسا في الغويان، وفي الجزائر، وفي تونس، وفي إفريقيا... وتهدّج صوته ثم صمت.

رانت فترة من الفراغ الكئيب قبل أن ينطلق لسان الهادي وهو يقول: الاستعمار يا أخي هدفه تدمير الإنسان المستعمر حتى يستولي على ما في المستعمرات، وما فعله الأوغاد مع وريدة ومئات النسوة في كلّ مكان نزلوا به يجعلهم في خانة الوحوش لا البشر، لقد عانيت وعانيت من أجل الهروب ونجحت، وحين وصلت لأرض الأجداد وتمرّغت على ترابها واستنشقت روائح غابات الصنوبر والزان، كنت أحاول التسلّل إلى مضارب الأهل بعد أن ألقى بي القراصنة على شاطئ طبرقة، فوجئت بوجود عساكر وآليات حربية لم أتعوّد رؤيتها، وبينما أنا في ذهولي إذ قفز أمامي راعٍ مذعورًا، طمأنته وعرّفته بنفسي فأعلمني بما حصل، قال لي: انفذ بجلدك، فقبائل خمير وغيرهم محاصرون؛ لثورتهم على الفرنسيس لمّا دخلوا علينا من دخلة جندوبة وقتلوا، وشرّدوا، وسجنوا، انفذ بجلدك، وتركني ورحل، فغيّرت وجهتي وقلت: ألج إلى التراب الجزائري بحثًا عن حبيبة القلب أوّلا، وسرت في طريق أخبرها جيّدًا، ولمّا وصلت إلى مضارب قبيلة وريدة لم أجد غير بقايا خيام وأثافي الطبخ ورماد تذروه الرّياح، التاع قلبي وبلغ بي الحزن مبلغه، وماهي لحظات حتى رأيت خيالاً بشريّا يقطع الوادي القريب نحوي؛ فتخفّيت وظللت أراقب، كان خيال امرأة، كانت تغنّي أغنية بدوية جزائريّة بصوت حزين، وما أن اقتربت حتى تفرّست في وجهها مليّا وكدت أصرخ لولا خوفي من انكشاف مخبئي، كان خيال وريدة تفاحة القلب وشريان الروح؛ وجه معفّر، وعينان غائرتان، وجسم نحيل برزت عظامه، وشعر منفوش،

وأسهال بالية كشفت عن أغلب جسمها، جريت نحوها وأنا أعوي: «وريدة، وريدة»، أنا الهادي حبيبك، من الذي فعل بك هذا؟ فانطلقت نحوي وبيدها هراوة كادت تحطم بها رأسي، تراجعتُ فارّا وأعدت الكرّة، ولكنّها جعلت تصرخ ويركض بها الجنون في كلّ صوب؛ حتى تفطّن أحد الرّعاة القريبين منّا فلم يلبث أن قال لي: إنّك تلهث خلف سراب يا أخي، عد إلى أهلك، فهذه البنت أصبحت مخبولة تجوب المضارب تصرخ وتندب وتعتدي على المارّة، تعيش على الأعشاب والحشرات تأكلها نيئة، وصارت حديث الجدات يرهبن بها الأحفاد في حكاياهنّ، وامتنع الآباء عن تسمية مواليدهنّ باسمها تشاؤما. كنت أعرف أهلها ولكنّهم رحلوا وتركوها بعدما اعتدى عليها فيلق من المحتلّين الفرنسيين كانوا عائدين من تونس وهم سكارى، وكانت وريدة تقف على مشارف التلّ تناجي مجهولًا غائبًا، فسبوْها ،واغتصبوها، وتركوها ملقاة، حتى وجدناها مغميّا عليها، لم تحتمل عائلتها الفضيحة والقيل والقال الذي راج؛ فانسحبوا ليلًا تاركين مضاربهم والفتاة مرميّة في زريبة حيواناتهم، ومن يومها وهي على تلك الحال من التوحّد والتوحش.

وأكمل والدموع منسابة: فشلت في استردادها يا أخي، حاولت مرّات ومرّات، ولكنّني عدت يائسا وفي قلبي حماس للانتقام لكلّ ما فعلوه بي وبوريدة وبهذه الأوطان، وظللت أغتنم الفرصة، وأستعدّ بالسلاح، وأنصب الكمائن، وقد نجحت في القضاء على كثير من الجنود قبل أن يشي بي أحد المتعاونين مع الفرنسيين من أبناء جلدتي لأقع سجينًا عندهم، ولأنّ الحجج لم تكن مقنعة للقاضي حكم عليّ بالنفي، وها أنا حذوك منفيّا للمرّة الثانية بعد أن احتلّوا كامل الوطن.

قال العربي بوزيّان: يا لهول ما جرى لوريدة، ماذا يلزم لفرنسا حتى تكفّر عن جرائمها؟ ثمّ انطلقا في جولة قصيرة إحماء للأجساد وقد تخثّر دمها، وإذا بالهادي الوشتاتي يسأل يائسًا: أين يدفنون الموتى؟ أريد أن أرى مكان قبري، أم أنّهم يلقونهم في البحر كما في الغويان؟

أجاب العربي بوزيان حزينًا: هناك، في المقبرة الموجودة على الشاطئ الشمالي للجزيرة، فيها دفن السابقون لنا في المقاومة، وفيها سندفن يومًا ما كما دفنوا أوطاننا، فالمقبرة ستكون شاهدة إن لزم الأمر على كلّ الجرائم.

مرّت السنوات والصديقان لا يفترقان، يتجاذبان أطراف الحديث، يذكران الوطن ومرابع الصبا وأحلام الطفولة، وكثيرًا ما ينغمسان في قراءة بعض الجرائد التي تصل إلى السجن تنسّما لأخبار وطن سليب صُوّر كأنّه في حماية فرنسا أو هو مستعمرة فرنسيّة بصدد التطور بفضل التمدين الذي حملته فرنسا لأولئك البرابرة. استوقفت الهادي الوشتاتي فقرة في إحدى الصحف تتحدث

عن قضيّة المنفيين الفرنسيين في الغويان: « هنري شارييه المدان بجريمة قتل، ودريفوس المتهم بالجوسسة لصالح الألمان في حرب السبعين... فقال معلّقًا: هل يكونان وليمة للقروش كما المئات من المنفيين؟

تفاعل العربي بوزيان: التعامل سيختلف فهما فرنسيان، ونحن، من نحن؟

المقطع السادس والثلاثون:

خريف الشباب

كان اليوم خريفيّا غائمًا، أوراق الأشجار تذروها رياح مجنونة، والشمس تطلّ في خفر خلف سحب تتراكض في سباق محموم ثمّ سرعان ما تتخفّى في عشوائيّة، والعصافير تحلّق لا مستقرّ لها وقد أفزعها العجاج وسحب الأتربة التي تحملها الرّياح فتشكّل غلالة رمادية موحشة فوق سطح الأرض.

كان سامر ذاك الصباح قد انكبّ يراجع عمله طيلة أشهر مع حبيبته نور، وينتظر لحاقها به كما اتفقا، وما إن دلفت إلى مركز البحوث حتى قال سامر: تأخرت عزيزتي...

نور: أمّي يا سامر ليست بخير، لم تنم الليل، وها أنا أوافيك التزامًا بموعدنا.

سامر متأثرًا: لا بأس عليها، هل هي أزمات القلب المعتادة؟ .

جلست نور قبالته وهي تتحاشى الحديث في الموضوع: لا بأس، لا بأس دعنا من ذلك... هلاّ باشرنا تقييمنا.

سامر: لقد راجعت ما حبّرنا عديد المرّات، أعتقد أنّنا أفلحنا في بحثنا، ولكن تنقصنا حلقة ربط بين المرحلة الكولونياليّة وواقعنا اليوم، فهل تخطّينا لحظة الاعتقال الاستعماري؟ وهل ولجنا إلى التاريخ الحرّ كشعوب محتلّة؟ وبالتالي هل تمكّنا بوعينا وإنجازاتنا أن نجبر المحتلّ على تجاوز خطابات تلك المرحلة الكولونياليّة المقرفة؟ وهل سعينا لإجباره على الاعتذار عن جرائمه... كلّ هذه الأسئلة لم أشعر أنّها طرحت بوضوح فيما كتبنا، وهي حارقة كما أعتقد.

قالت نور متحمّسة: طبعا أسئلة مشروعة وضروريّة جدّا، وأعتقد أنّ ساسة تلك البلدان وأغلب مفكّريها لم يحيّنوا خطاباتهم، ولا تراجعوا عن

تلك الرّوح الامبرياليّة التي زينت لهم الاستيطان والاغتصاب، ألا تذكر خطاب الرئيس الفرنسي ساركوزي في جولته الإفريقيّة، فقد تكلّم تماما كرجل أبيض ما زال مؤمنًا بالأطروحة الكولونياليّة القائمة على تمدين الشعوب الإفريقيّة القاصرة، وتخليصها من الخرافة والأسطورة، ونقلها من حالة الطبيعة إلى حالة الثقافة، هم يا حبيبي لا يؤمنون باختلاف الثقافات، ولا تلاقح الحضارات أو تكاملها أوتشارك المصالح، فحتى برامجهم التعليميّة تتواصل فيها الأحكام الجاهزة حول الآخر غير المتمدّن والذي ما زال في حاجة إلى النبيّ الأبيض كي يغيّره للأفضل، وما موجة اليمين المتطرف إلاّ إحدى هذه التعبيرات التي تعيد نسج خطاب الأجداد الكولونيالي في سيرورة رجعيّة عنصريّة مقيتة لا تؤمن بالصيرورة التاريخيّة.

قاطع سامر نورا مستأذنًا: كلامك واقعيّ ومنطقيّ جدّا، ولكن ألا ترين أنّه يمكن تصنيفه في خانة ما سمّوها «نظريّة المؤامرة»، وأنّنا نلقي بهزائمنا كلّها على الآخر وكأنّنا أبرياء براءة الذئب من دم يوسف؟ .

ردّت نور: وهذا أيضا صحيح كنت سأشير إليه، لنأخذ الثورة مثالاً، فقد باركها الغرب علنًا، وسعى إلى إحباطها في السرّ عن طريق الوظيفيين من أبناء الوطن حتى تبقى دار لقمان على حالها، ويتواصل نهب الثروات وفتح مزيد الأسواق لبضائعهم، صدّقني لم يتمكّنوا من ذلك لولا ذاك الاستقلال المزعوم وخيانات الدّاخل المتواصلة، ثق يا سامر أنّ «ليون روش» القنصل الجاسوس لم يرحل عن هذه البلدان وأنّه لم يمت؛ فقد استنسخت الدول الكولونيالية منه المئات حتى يلعبوا نفس اللعبة، وطالما لم نتفطّن للدور الهدام «لليون روش» و«أوليفيي دارفو» والمتستنسخون جميعًا، سنبقى في حالة استعمار دائم... يحزنني إهدار ثوراتنا، ودماء الشهداء، وصريخ الجرحى وسط تدوير واضح للمنظومات القديمة التي هزمت شعوبها وباعت قضاياهم.

لماذا ناديتني يا سامر هذا الصباح؟ قلبي لم يعد يحتمل، ونفوسنا مرضى، وآفاقنا لا تتعدّى أنوفنا.

قال سامر: حاولت تجاوز الحديث عن الثورة خلال عملنا هذا؛ حتى لا أخوض في تاريخنا القريب في انتظار أن يصبح لنا مسافة منه، ولكن أجدني مضطرّا وقد ألمحت إلى ما حصل في ثورة ربيعنا وقد أسماها بعضهم ضجّة أو فوعة استباقًا لبؤسها.

وأردف: حبيبتي، اسمحي لي بإضافة عامل جوهري في سقوط ثورتنا بعد أن عُمّدت بدم الشهداء وأنين الجرحى، وهو يتعلّق أساسًا بأبناء الثورة والذين جنحوا لمصالحة زائفة مع القديم الذي قامت عليه الثورة، وفشلوا في إنتاج نموذج يليق بأشواق ثورة حقيقيّة. هل تجدين من فرق بين صنيع ابن غذاهم في قبوله بمحاورة شيخ التيجانية والدّخول في مصالحة كاذبة، وبين ما جرى في القصبة بعد أن رابط الثوار ورفعوا سقوفًا عالية للمطالب، وإذا بهم يتخلّون عن كلّ ذلك، ويجعلون من القدماء الذين عاصروا كلّ المستبدّين رؤساء ووزراء متأمّلين منهم أن يحقّقوا لهم أهداف الثورة، فبدأت رسكلة القديم والتفّت ماكينتهم كالأصلة على ما صدحت به حناجر الثوار. قد تكون القوى الغربيّة وغيرها من الجملكيّات العربيّة الفزعة من الحريّة ساهموا بأقساط في تردّي الثورة، ولكن نخر الدّاخل أشدّ.

ولمّا اشتدّ الحوار بين الحبيبين رنّ هاتف سامر فردّ ملهوفًا، فالمكالمة خارجيّة وهو غير مطمئنّ على صحّة الأستاذ نافع الجزيري الذي سافر منذ شهور ولم يعد، وإذا المتصل هو يوسف الابن البكر للأستاذ، ينعى إليه خبر وفاة الوالد إثر تدخّل جراحي غير موفّق، وأنّهم بصدد إجراءات نقل الجثمان؛ ليدفن في مسقط رأسه مدينة بنزرت طبقًا لوصيّة الرّاحل.

صُعق سامر للخبر وراح يسأل عمّا يجب عليه القيام به، فاكتفى يوسف بالقول: لا شيء، لا شيء.

بعد أيام من دفن الأستاذ كان الورثاء مجتمعين ليقرّروا بيع ممتلكات الرّاحل بما فيها مركز البحوث.

مضت على سامر أشهر من الحزن والعزلة إثر التفريط في أملاك الأستاذ نافع الجزيري، خرج بعدها في جولة أخيرة حول ما كان مركزًا للبحوث؛ بعد أن غدا مطعمًا للأكلة الخفيفة نهارًا، ومرقصا ليليّا، فظلّ شاخصا برهة اعتصره فيها الألم حتى البكاء، ثمّ تحوّل إلى موعده مع العم «شرف الدّين» صاحب المركب المغامر ليلًا في اتجاه الشمال؛ علّ البحر يرأف لحاله فينجيه من وطن أصبح يتعمّد قتل أولاده جهرًا، أو يلقيه في باطنه مثل الآلاف من الشباب السّابقين.

وداومت نور في جولاتها المسائيّة على الوقوف وحيدة عند شاطئ سيدي سالم تودّع النوارس المهاجرة، وتذرف الدمع وحبّات الياسمين على وجه الموج الثائر، وتبثّ رسائل صوتيّة مشفّرة لا أحد فهم مغزاها قبل أن تجرّ الخطى الوئيدة نحو بيتها الخاوي إلاّ من جدران الصمت وهي تردّد: «الأوطان العاهرة وحدها تسعى لوأد ما أنبتت أرحامها»، الأوطان العاهرة وحدها تبيع نفسها على قارعة الطرق والغزاة المتربّصين، «الأوطان العاهرة وحدها تبيع ثرواتها مراكنة مقابل تأبيد المستبدّين»...

وما برح بائع اللّب الشاب «ثائر التونسي» خرّيج معهد الحضارة يُورّق ما ألقاه أصحاب المطعم – المرقص أمام كشكه من مخطوطات وكتب وبحوث، يلتهم سريعا عناوينها ومحتواها ثمّ يحفظها داخل علب الورق المقوّى؛ خوفا عليها من العواصف التي تضرب المدينة، فلا تُلقي تاريخ الوطن نحو المجهول...

بنزرت شتاء ٢٠٢٣